سُورَةُ الْبَقَرَةِ

رِحْلَةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الِاسْتِخْلَافِ إِلَى الِامْتِثَالِ



رَدَّادُ السَّلَامِيُّ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

رِحْلَةُ الْإِنْسَانِ مِنَ الِاسْتِخْلَافِ إِلَى الِامْتِثَالِ

رداد الســـلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

كتابٌ دخلتُه قارئًا فخرجتُ منه مسؤولًا

لم تكن هذه الرحلة في سورة البقرة محاولةً للإحاطة بسورةٍ لا تنقضي عجائبها، ولا ادعاءً لبلوغ نهاية معانيها؛ فالقرآن أوسع من قارئه، وأبقى من زمنه، وكل جيل يقف عند شاطئه فيرى من أنواره بقدر ما أوتي من صدق النظر وسلامة القصد.

إنما كانت محاولةً للإنصات.

أن نقف أمام الآيات طويلًا، فلا نعبرها قبل أن تعبر إلى داخلنا. وأن نقرأ القصص لا بوصفها أخبارًا نجت من الماضي، بل مرايا تبحث في الحاضر عن وجوه تشبهها. وأن نرى الأحكام لا موادَّ متفرقةً في أبواب الفقه وحدها، بل أجزاء من مشروع قرآني يعيد بناء الإنسان في أعمق مواضع حياته.

لقد دخلتُ سورة البقرة وأنا أعلم أنها أطول سور القرآن، ثم خرجتُ منها وأنا أدرك أن طولها ليس امتدادًا في عدد الآيات فقط؛ إنه طول الطريق الذي يحتاجه الإنسان كي ينتقل من معرفة الحق إلى القدرة على العيش به.

فالإنسان لا يُبنى في لحظة.

ربما تكفيه آية ليعرف، لكنه يحتاج إلى تربية طويلة ليصبح ما عرفه خُلُقًا فيه. يسمع أن الله واحد، ثم تظل في قلبه أنداد خفية من الخوف والمصلحة ونظر الناس. ويؤمن بالآخرة، ثم يعقد صفقاته كأن الدنيا آخر السوق. ويستقبل القبلة بوجهه، بينما يتوزع قلبه بين جهات كثيرة.

جاءت سورة البقرة لتجمع هذا الشتات حول مركز واحد.

بدأت بالكتاب؛ لأن الإنسان قبل أن يمشي يحتاج إلى نور يعرف به الطريق. ثم قسمته أمامه إلى ثلاثة مواقف: قلب آمن فانفتح، وقلب كفر فأغلق، وقلب نافق فعاش ممزقًا بين وجهين.

ومنذ تلك اللحظة لم تعد السورة تتحدث عن أناس بعيدين عنا؛ كانت تتحدث عن احتمالات تسكن النفس البشرية كلها.

في داخل الإنسان استعداد المتقي حين يصدق.

وفيه شيء من المعرض حين يحب هواه أكثر من الحقيقة.

وفيه احتمال المنافق حين يخشى أن يكون باطنه كما يظهر.

ولهذا لم أقرأ صفات المنافقين وأنا أبحث عن شخص أضع اسمه تحت الآيات، بل حاولت أن أبحث عن الموضع الذي تتباعد فيه كلمتي عن حقيقتي. فالقرآن لا يمنحني مقعد القاضي قبل أن يضعني أمام مرآته.

ثم جاء آدم عليه السلام، لا ليحملني وزر خطيئته، بل ليعلمني حقيقة نفسي: مكرَّمة بالعلم، ضعيفة أمام الوسوسة، قادرة على الزلل، وقادرة ـــ بفضل الله ـــ على التوبة.

كان يمكن أن تبدأ قصة الإنسان بعبارة اليأس: أخطأ آدم. لكنها اكتملت بعبارة الرجاء: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾.

فعرفتُ أنني لا أنتمي إلى الإنسان الذي يخطئ فقط، بل إلى الإنسان الذي يستطيع أن يعود. وأن الذنب لا يصبح قدرًا نهائيًا إلا حين أحوله بالإصرار إلى وطن.

ثم وقفت طويلًا أمام تاريخ بني إسرائيل. لم أقرأه لإشعال عصبية ضد قوم، ولا لتوزيع أوصاف القرآن على الناس بلا عدل؛ فالقرآن نفسه فرّق بينهم، ومدح من آمن، وربط الذم بالأفعال لا بالدم.

قرأته تحذيرًا لكل أمة تحمل كتابًا.

فما وقع لهم يمكن أن يقع لغيرهم كلما تحولت النعمة إلى شعور بالاستحقاق، والعلم إلى مهنة بلا خشية، والنص إلى وسيلة لحماية النفوذ، والانتماء إلى بديل عن العمل.

قد يحمل المسلم القرآن، ثم يكرر مع الكتاب بعض ما عابه القرآن على من قبله: ينتقي الآيات التي تخدمه، ويكتم ما يحاكمه، ويطالب غيره بالطاعة، وينسى نفسه.

فالقصص القرآني ليس غرفة مغلقة على أصحابها؛ إنه قانون ينتظر من يكرر أسبابه.

وعند قصة البقرة شعرتُ أن السورة كشفت مرضًا شديد الخفاء: قد لا يرفض الإنسان التكليف، لكنه يثقله بالأسئلة حتى يصبح الامتثال بعيدًا. يسأل لا ليعرف كيف يعمل، بل ليؤجل العمل في صورة بحث.

كان الأمر: اذبحوا بقرة.

وكان يكفي أن يذبحوا.

لكنهم راوغوا، فضاق الواسع، واشتدت الأوصاف، وارتفع الثمن.

إن بعض المشقات لم يضعها الله في الطريق؛ نحن الذين نصنعها حين لا نملك شجاعة الجواب المباشر: سمعنا وأطعنا.

ثم أطل إبراهيم عليه السلام، فبدا كأنه النقيض الكامل لذلك الجدل. ابتلاه ربه بكلمات **فأتمهن**. لم يكن رجل البدايات المضيئة وحدها، بل رجل الإتمام. أخذ كل أمر إلى نهايته، حتى صار شخص واحد إمامًا للناس.

هناك فهمت أن القيادة ليست ما يسبق الاسم من لقب، بل ما يسبقها من امتحان. وأن الإمامة عهد لا يناله الظالم، مهما كان نسبه قريبًا من إبراهيم.

ورأيت البيت يرتفع حجرًا حجرًا، وإبراهيم وإسماعيل لا يقولان: لقد أنجزنا، بل يقولان: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا**﴾.

ما أعظم الفرق بين من يرى عمله منّةً على الرسالة، ومن يرى توفيقه للعمل منّةً من الله عليه!

وحين تحولت القبلة، لم أرَ وجوهًا تتحرك من جهة إلى جهة فقط؛ رأيت أمةً تستلم مركزها التاريخي. لكنها لم تُمنح القبلة لتتفاخر بها، بل لتصبح أمةً وسطًا وشاهدةً على الناس.

والشهادة لا تعني أن نقف فوق العالم ونصدر الأحكام عليه؛ تعني أن نقيم في أنفسنا النموذج الذي يدل على صدق ما نحمله. فإذا كذبنا وظلمنا وأهنا الإنسان، لم نُسئ إلى أنفسنا وحدها، بل حجبنا شيئًا من جمال الرسالة التي نزعم الشهادة لها.

ثم جاءت الاختبارات تباعًا.

خوف وجوع ونقص أموال وأنفس وثمرات.

فلم يعد الإيمان وعدًا بحياة بلا ألم؛ صار قدرةً على ألا يتحول الألم إلى قطيعة مع الله.

وكانت كلمة الصابرين: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾.

ترددت أمام هذه الآية طويلًا؛ لأنها لا تنكر الفقد، لكنها تعيده إلى موضعه في خريطة الوجود. نحن لله، وما نحب لله، ونرجع جميعًا إليه. ليست المصيبة فراغًا أسود بلا نهاية، بل فصلًا مؤلمًا داخل قصة يعلم الله تمامها.

وجاء الصيام ليعلمني أن الحرية ليست في امتلاك الأشياء وحدها، بل في قدرتي على الامتناع عنها. أترك الماء وهو حلال؛ كيلا أكون أضعف من أن أترك الحرام حين يناديني.

وفي قلب آيات الصيام جاء القرب: ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾.

لم يجعل الله الجوع جدارًا بينه وبين عبده، بل نافذةً إليه. كلما ضعفت الجوارح، اتسعت في القلب مساحة للدعاء.

ثم ذهبت السورة بي إلى الحج. رأيت الإنسان ينزع الثوب الذي عرّفه به المجتمع، ويلبس ما يشبه كفنه، ويقف في عرفة بلا رتبة ولا امتياز. هناك تتساوى الأجساد، ويبقى التفاضل في شيء لا تراه العيون: التقوى.

لكن السورة لم تسمح لي أن أبقى في عرفات طويلًا بعيدًا عن واقع الناس؛ أعادتني إلى الأسرة. دخلت بين الزوجين، ووقفت عند الغضب والفراق والرضاع والمهر والعدة.

رأيتُ كيف يصر القرآن على كلمة **المعروف** كلما اضطربت العاطفة. كأن المعروف هو الجسر الذي ينبغي أن يبقى حين ينهار الحب.

ما أرق قول الله: ﴿**وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾.

لا تجعلوا الجرح الأخير يمحو التاريخ كله. قد تعجزون عن الاستمرار زوجين، لكن لا تعجزوا عن أن تفترقوا إنسانين.

ثم جاء طالوت، وتعلمت أن الأمم لا تنهزم دائمًا بسبب قلة السلاح؛ قد تنهزم لأنها لم تستطع ضبط عطشها عند أول نهر. كان النهر امتحانًا صغيرًا في حجمه، عظيمًا في دلالته. مَن لم يملك نفسه أمام الماء، كيف يملك ثباتها أمام جالوت؟

ولكل جماعة نهرها.

قد يكون مالًا.

أو منصبًا.

أو شهرةً.

أو قربًا من السلطة.

تصل إليه الصفوف فتشرب، ولا يبقى للمعركة الكبرى إلا القليل.

وعند آية الكرسي شعرتُ أن اللغة بلغت مقامًا لا تملك فيه إلا أن تسجد أمام المعنى: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾.

ماذا يبقى من غرور الإنسان بعد هذه الآية؟

الناس جميعًا ينامون، وهو لا تأخذه سنة ولا نوم.

والملوك جميعًا يموتون، وهو الحي.

والأسباب كلها محتاجة، وهو القيوم.

والعلوم كلها محدودة، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

والقوى كلها تتعب، ولا يؤوده حفظ السماوات والأرض.

هنا يتصاغر كل ما أرعب القلب، ويعود إلى حجمه الحقيقي في ملك العلي العظيم.

ثم أعادتني السورة من سعة الكرسي إلى حبة ينفقها إنسان. وكأنها تقول: إذا عرفت عظمة الله حقًا، فسيظهر ذلك في يدك. ستثق بوعده أكثر من خوفك من الفقر، وسترى المال أمانة لا جدارًا أخيرًا للأمن.

ضربت للصدقة مثل الحبة التي صارت سبعمائة حبة، وللرياء مثل التراب فوق حجر أملس. المطر واحد، لكن التربة مختلفة. والعمل واحد في أعين الناس، لكن القلب يقرر هل يصبح بستانًا أم يُكشف صخرًا.

ثم جاء الربا ليكشف الرؤية التي تفسد المال. لم يعد المحتاج أخًا، بل صار فرصةً لزيادة مضمونة. وعوضًا عن أن ينزل الغني إلى ألم الفقير، جعل ألم الفقير يصعد إليه ربحًا.

لذلك قال الله: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾.

ليس كل ما زاد ناميًا، ولا كل ما نقص ضائعًا. قد يكبر الرقم وتضيق الروح، وقد يخرج المال وتتسع البركة.

ثم ختمت أحكام المجتمع بأطول آية: اكتبوا الدَّين.

هنا أدركت أن الإسلام لا يضع الثقة في مواجهة النظام، ولا الأخوة في مواجهة التوثيق. يكتب المؤمن الحق لأنه يعرف أن ذاكرته ضعيفة، وأن الموت قد يأتي، وأن الورقة قد تحفظ المودة حين تختلف الروايات.

إن التقوى ليست بديلًا عن العقد الواضح؛ هي الروح التي تمنعنا من التحايل عليه.

وفي نهاية الطريق جاءت الجملة التي تلخص الرحلة كلها: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾.

هذه ليست كلمةً سهلة. إنها تعني أن الله أكبر من هواي، وأن الوحي أعلى من مصلحتي، وأنني مستعد لتغيير طريقي إذا ظهر لي أمره.

لكن المؤمنين ما إن قالوا: أطعنا، حتى قالوا: ﴿**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**﴾.

لم يغتروا بطاعتهم. عرفوا أنهم يحملون التكليف بضعف بشري، وأن الطريق لا يكتمل بعملهم إلا إذا تداركتهم المغفرة.

وهذه هي الصورة التي أريد أن أخرج بها من السورة:

لستُ إنسانًا كاملًا يقدّم لله سجلًا بلا نقص.

أنا عبد سمع، وحاول أن يطيع، وزلّ، ثم عاد يطلب الغفران.

أحمل أمانة الاستخلاف، لكنني لا أستطيعها إلا بمعونة الله.

أريد أن أقول: سمعنا وأطعنا، لكنني أعرف مقدار ما بقي في نفسي من تردد.

ولهذا أقول معها: ﴿**وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**﴾.

لم أكتب هذه التأملات بوصفها تفسيرًا يغني عن كتب المفسرين، ولا فتوى يستقل بها القارئ عن أهل العلم. إنما هي صحبة أدبية تدبرية، تبدأ من ظاهر المعنى والسياق، ثم تحاول أن تفتح للآية نافذةً على النفس والحياة، مع الاعتراف بأن كلام الله أعلى من كل عبارة تحاول وصفه.

وكل ما في هذه الصفحات من صواب فمن فضل الله، وكل ما وقع فيها من نقص أو خطأ فمن قصور الكاتب، والقرآن منه بريء. وما أحوج من يكتب عن كتاب الله إلى أن يقول عند نهاية عمله ما قاله إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.

اللهم اجعل هذا الكتاب بابًا إلى كتابك، لا حجابًا عنه. ولا تجعل جمال العبارة يطغى على جلال الآية، ولا تجعلنا ممن يصفون الطريق ولا يسيرون فيه.

واجعل لنا من سورة البقرة قلبًا يؤمن بالغيب، ولسانًا يقول الحق، ويدًا تنفق، وإرادةً تصوم، ونفسًا تصبر، وعهدًا لا ننقضه، وسمعًا ينتهي إلى الطاعة.

فقد بدأنا هذه الرحلة أمام كتاب لا ريب فيه، ولا نريد أن نخرج منها بمعلومة جديدة فحسب، بل بإنسان أقرب إلى الجواب الذي ختمت به السورة:

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

مقدمة الكتاب

السورة التي تبني الإنسان على مهل

ليست سورة البقرة طريقًا قصيرًا إلى معنى واحد، بل مدينةٌ قرآنية واسعة؛ كلما دخلتَ بابًا منها وجدتَ وراءه أبوابًا، وكلما ظننتَ أنك بلغتَ طرفًا من أطرافها انفتح لك أفقٌ جديد.

فيها بدء الخليقة، وامتحان المعرفة، ووسوسة الشيطان، وزلَّة الإنسان، وكرامة التوبة. وفيها تاريخ أمةٍ أُنعمت عليها حتى أثقلتها النعمة، ثم طال عليها الأمد فتحوَّل العهد في أيديها إلى كلمات، والكلمات إلى جدل، والجدل إلى حيلة تهرب بها من تكاليف الإيمان.

وفيها إبراهيم عليه السلام واقفًا وحده أمام امتحان الوجود؛ يمضي في الطريق حتى نهايته، فلا تتقدَّم رغبته على أمر الله، ولا يتسلل إلى قلبه اعتراض. وحين أتمَّ الكلمات، صار الرجل الواحد أصلًا لأمة، وصارت خطواته في الوادي القاحل مناسك تمشي عليها الأجيال.

وفيها قبلة تتحول، فلا يكون التحول انتقالًا في جهة الصلاة فحسب، بل إعلانًا عن انتقال أمانة الهداية من أمةٍ بدَّلت إلى أمةٍ أُريد لها أن تشهد على الناس.

وفيها الصيام والحج، والقصاص والوصية، والزواج والطلاق، والإنفاق والدَّين، والجهاد والربا؛ لأن القرآن لا يريد إيمانًا يسكن الزوايا المعزولة من النفس، بل إيمانًا يدخل الأسواق والبيوت، ويجلس بين الزوجين، ويقف عند

موائد الأغنياء، ويحرس حقوق الضعفاء، ويضبط الغضب حين تشتعل الحرب، ويكتب الدين الصغير الذي قد ينساه صاحبه.

هنا لا يبقى التدين شعورًا دافئًا يمر بالقلب ثم ينطفئ؛ بل يصير ميزانًا للحياة كلها.

إن سورة البقرة تنقل الإنسان من سؤال: **بماذا أؤمن؟** إلى سؤال أعمق: **كيف يصير ما أؤمن به حياةً أعيشها؟**

فقد يعرف المرء أن الله حق، ثم لا يكون للحق أثر في ماله. وقد يقرأ عن الآخرة، ثم يظلم عند الخصومة. وقد يتلو آيات الرحمة، ثم يقسو على من يعيش معه. وقد يستقبل القبلة بجسده، بينما تتوزع قبلة قلبه بين الهوى والمصلحة ونظر الناس.

ولهذا كانت السورة طويلة؛ لأن بناء الإنسان لا يتم بكلمة عابرة، وتحريره من داخله ليس ومضة وجدانية تنطفئ بعد حين. إن في النفس فراعنة صغارًا لا يغرقون من أول مواجهة، وعجولًا خفية لا تسقط من أول موعظة، وأبوابًا للمراوغة لا يغلقها قرار واحد.

إنها سورة التربية الطويلة؛ تكرر، وتذكِّر، وتكشف، وتقص، وتأمر، وتنهى، ثم تعود إلى القلب من مدخل آخر، حتى لا تبقى فيه زاوية مختبئة من نور الوحي.

وليس امتداد السورة كثرةً بلا هندسة؛ ففي هذا الامتداد نظام دقيق. إنها تبدأ بثلاثة مواقف من الكتاب: إيمان، وكفر، ونفاق. ثم تعرض تاريخ أقوام مع

التكليف، وتنقلنا من آدم إلى بني إسرائيل، ومن بني إسرائيل إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى الأمة المسلمة، ثم تسوق الأحكام التي ستصنع هذه الأمة، وتختم بموقف المؤمنين من الوحي كله: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾.

كأن السورة تبدأ بالسؤال: من أنت أمام هذا الكتاب؟ ثم تنتهي بالجواب الذي ينبغي أن تكون عليه: عبدٌ يسمع ويطيع، ويؤمن ويستعين، ويحمل ما استطاع من الأمانة، فإذا ضعُف لم يستكبر، بل عاد إلى ربه مستغفرًا مستنصرًا.

وبين البداية والنهاية تجري رحلة كاملة: من التعريف بالهداية إلى الالتزام بها، ومن الاستخلاف إلى الامتثال، ومن اختبار آدم عند الشجرة إلى موقف المؤمنين عند أبواب التكليف.

هذه الرحلة لا نريد أن نمرَّ بها مرور السائح الذي يلتقط المشاهد ثم يغادر كما جاء؛ بل نريد أن نقيم في ظلالها، ونصغي إلى نظمها، ونتتبع خيوطها، ونقرأ حكاياتها بوصفها مرايا للإنسان، لا أخبارًا عن أناس انقضوا.

فبنو إسرائيل ليسوا قصةً بعيدة لا شأن لنا بها؛ إنهم نموذج يتكرر كلما انفصل العلم عن الخشية، وتحولت النعمة إلى شعور بالاستحقاق، وصار الإنسان يطالب بالبرهان لا ليهتدي، بل ليؤجل الطاعة.

والمنافق ليس صورةً تاريخية جامدة؛ بل احتمال ينشأ كلما صار ظاهر الإنسان منفصلًا عن باطنه.

والعجل لا يلزم أن يكون تمثالًا من ذهب؛ فقد يكون شهوةً يمنحها الإنسان من حبِّه وخضوعه ما لا ينبغي أن يُمنح إلا لله.

والقبلة ليست جهةً يتوجه إليها الوجه وحده؛ إنها المركز الذي تنتظم حوله شتات الروح.

والربا ليس زيادةً في الأرقام فحسب؛ بل رؤيةٌ للإنسان حين يصبح احتياجه فرصةً للالتهام.

والصدقة ليست مالًا ينتقل من يد إلى يد؛ إنها معركة صامتة ينتزع فيها القلب نفسه من قبضة التملُّك.

سنقرأ سورة البقرة إذن بوصفها سورة **العهد**: العهد الذي شرَّف الله به الإنسان، ثم اختبر صدقه في حمله. وسنحاول أن نرى كيف تتوالى مشاهد السورة لتطرح سؤالًا واحدًا بصور متعددة:

ماذا يفعل الإنسان حين يأتيه أمر الله؟

هل يتلقى كما تلقى آدم كلمات ربه فعاد؟

أم يجادل كما جادل أصحاب البقرة؟

أم يقول كما قال إبراهيم: ﴿**أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾؟

أم يبلغ مقام المؤمنين في ختام السورة: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾؟

ذلك هو السؤال الذي ستضعه السورة أمامنا، لا لتأخذ جوابًا من ألسنتنا، بل من حياتنا.

الفصل الأول

على عتبة اليقين: حين يعرِّف الكتاب قارئه

﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾

تبدأ السورة بحروف يعرفها العرب مفردة، لكنهم يقفون أمام نظمها هنا عاجزين عن امتلاك سرِّها: ﴿**الم**﴾.

الحروف ذاتها التي يصنعون منها كلامهم، لكنها حين تدخل في هذا البناء القرآني تصبح فوق قدرتهم. كأن الوحي يقول لهم: إن المادة بين أيديكم، ولكن السر ليس في المادة وحدها؛ الحروف حروفكم، واللسان لسانكم، غير أن هذا القرآن ليس من قدرتكم.

فالتراب واحد، ولكن نفخة الروح هي التي صنعت من طين آدم إنسانًا. والحروف واحدة، ولكن كلام الله لا يصير كلام بشر لمجرد أنه نزل بلغتهم.

تأتي ﴿**الم**﴾ كوقفة عند عتبة السورة؛ تُشعر العقل منذ اللحظة الأولى أن المعرفة لا تبدأ دائمًا من الإحاطة، بل قد تبدأ من الاعتراف بالحد. فالإنسان لا يملك مفاتيح كل شيء، وعدم إدراكه لسرٍّ من الأسرار لا يعني خلوَّه من الحكمة؛ بل قد يكون أول ما يتعلمه من الوحي أن العقل مصباح كريم، لكنه ليس شمس الوجود.

وما إن تفتح هذه الحروف في النفس نافذة التواضع حتى يأتي الإعلان العظيم:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

لم يقل: هذا الكتاب، مع أنه حاضر يُتلى؛ بل قال: **﴿ذَٰلِكَ﴾**، إشارةً تشعرك بعلو مرتبته وبعد منزلته عن أن تمتد إليه يد الارتياب. هو قريب في ألفاظه، بعيد في مقامه؛ تحمله الألسنة، ولا تحيط به العقول؛ تنظر إليه العين في سطور المصحف، بينما يأتي سلطانه من فوق العالم.

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾: الكتاب الذي يستحق أن يستقر في الذهن حين تُذكر حقيقة الكتاب؛ لأن ما عداه يظل عملًا بشريًا يحمل نصيبه من النقص، ويشيخ مع الزمن، ويكشف المستقبل جوانب قصوره. أما هذا الكتاب فلا يقف أمام التاريخ متهمًا يطلب البراءة، بل يقف قاضيًا يكشف انحراف التاريخ.

وهو **﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾**؛ لا لأن الناس جميعًا لن يرتابوا، فقد ارتاب المبطلون، ولكن لأن الريب ليس نابعًا منه. ليست فيه فجوة موضوعية تستدعي الشك، وإنما قد تأتي الظلمة من العين التي تنظر، لا من النور الذي تراه.

كم من قلبٍ اتهم الحقيقة لأنه لم يرد دفع ثمنها!

فالإنسان قد يشك لأن الدليل غامض، وقد يتظاهر بالشك لأن الدليل واضح أكثر مما يريد. هناك شك يبحث عن اليقين، وهناك شك يحتمي بنفسه من اليقين؛ الأول سؤال مسافر، والثاني باب مغلق.

والقرآن لا يخشى السؤال الصادق؛ لكنه يكشف ذلك السؤال الذي لا يريد جوابًا، وإنما يريد مهلة إضافية للفرار.

ثم يقول سبحانه: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

هنا ينهض سؤال: إذا كان القرآن هدايةً للناس، فلماذا خُصَّ المتقون؟

لأن النور قد يعمُّ المكان، ولكن الانتفاع به يحتاج عينًا مفتوحة. والمطر ينزل على الأرض كلها، إلا أن كل أرض تستقبله بحسب استعدادها: أرض تشرب فتنبت، وأرض تمسك الماء فينتفع به الناس، وأرض ملساء يمر فوقها الغيث ثم تظل كما كانت.

القرآن هدى في ذاته، لكنه لا يهدي القلب الذي عقد عزمه على ألا يهتدي. ليس النقص في الدليل، بل في الإرادة التي تستقبله.

والتقوى هنا ليست ثمرةً نهائية تأتي بعد الهداية وحدها؛ إنها أيضًا استعداد أولي لها: قدر من الصدق يجعل الإنسان حذرًا من الضلال، خائفًا من أن يخدع نفسه، مستعدًا لأن يغيّر طريقه إذا ظهر له الحق.

المتقي لا يدخل على القرآن ليجمع منه أدلةً لما قرره سلفًا، بل يدخل وهو مستعد أن يُعاد تشكيله. لا يسأل: كيف أجعل القرآن يقول ما أريد؟ بل يسأل: ماذا يريد القرآن مني؟

وهذه هي اللحظة الفاصلة في كل قراءة: هل تقرأ الكتاب لتقف عليه، أم تقرؤه ليقف عليك؟ هل تجعله موضوعًا تحت نظرك، أم تقبل أن تصبح أنت موضوعًا تحت نوره؟

إن بعض الناس يخرج من القرآن بمعلومات كثيرة، لكنه لا يخرج منه بقلب جديد. يحفظ مواقع الآيات، ويعرف وجوه الإعراب، ويتتبع دقائق الخلاف، ثم يبقى الكِبر في نفسه كما كان، والظلم في يده كما كان، والقسوة في معاملته كما كانت.

ذلك أنه تعامل مع القرآن ككتاب يضيف شيئًا إلى ذاكرته، لا كهدى ينقل خطاه من طريق إلى طريق.

الهداية ليست أن تعرف موضع الطريق في الخريطة فقط؛ بل أن تنهض وتسلكه. وليست أن تُعجب بالمصباح؛ بل أن تمشي في ضوئه. ولهذا لم يقل: معلومات للمتقين، بل قال: ﴿**هُدًى**﴾؛ والهداية لفظ يحمل الحركة والوجهة والوصول.

فالقرآن لا يريد أن يؤثث العقل بالأفكار ثم يترك الحياة خرابًا. إنه ينزل إلى أشد المواضع ازدحامًا في الإنسان: إلى خوفه ورجائه، وشهوته وغضبه، وحبه وبغضه، وماله وأسرته، وسلمه وحربه. ويظل يتعقبه بالنور حتى تتفق جهاته كلها على قبلة واحدة.

الإيمان بالغيب: اتساع الوجود وراء الحواس

﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾.

أول صفات المتقين ليست فعلًا ظاهرًا، بل نافذة باطنة تُفتح في جدار المحسوس.

فالغيب ليس هامشًا زائدًا على حقيقة الوجود، بل هو أوسع أبعاده. وما يقع تحت الحواس ليس إلا الشاطئ القريب من بحر لا تدرك العين مداه. نحن نرى الأثر ولا نرى كل مؤثر، ونعيش داخل الزمن ولا نعرف ما ينتظرنا بعد اللحظة، وتحمل أجسادنا أرواحًا لا نستطيع أن نزنها بميزان، مع أنها الفارق بين الجسد الحي والجثمان الساكن.

إن الإيمان بالغيب يحرر الإنسان من سجن اللحظة. فمَن لم يؤمن إلا بما يرى، ستقوده المنفعة العاجلة؛ لأنه لا يرى وراءها حسابًا، ولن يفهم التضحية؛ لأنها خسارة في ميزان الحس القريب، ولن يصبر على الطاعة حين تتأخر الثمرة؛ لأن أفقه ينتهي عند حافة اليوم.

أما المؤمن بالغيب، فإنه يرى بعين الوعد ما لا تراه عين الجسد. يترك الحرام في غرفة لا يراه فيها أحد، لأن الغرفة ليست خالية في يقينه. وينفق المال فيراه الناس نقصًا، ويراه هو وديعةً سبقتْه إلى الآخرة. ويقف مع الحق حين يخذله الأقربون، لأنه لا يستمد ثباته من عدد الواقفين حوله.

الغيب لا يعزل المؤمن عن الواقع، بل يمنحه القدرة على ألا يُستعبد له. إنه يعمل في الأرض، لكن سقف الأرض لا يغلق عليه السماء.

وليس الإيمان بالغيب تعطيلًا للعقل، بل إنقاذٌ له من ادعاء الألوهية.

فالعقل الصادق يدرك أن عدم رؤيته للشيء لا يساوي عدم وجوده، وأن أدواته مهما عظمت تظل محدودة. والإيمان لا يطلب من العقل أن يصدّق

المتناقضات، بل أن يتواضع أمام خبر الصادق سبحانه فيما يقع وراء مجال الحس.

إن أول ما يصنعه القرآن في الإنسان أن يوسِّع عالمه. كان يعيش بين الميلاد والموت، فإذا به يعيش بين الأزل والأبد. كان يحسب الخسارة بما خرج من يده، فإذا به يحسبها بما خرج من ميزانه عند الله. وكان يرى نفسه وحيدًا في المحنة، فإذا بعالم الغيب كله يرد إليه معنى الصحبة والرقابة والنصرة.

هكذا يتغير السلوك حين يتسع الوجود.

الصلاة: حين ينتظم الجسد حول إيمان القلب

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

لم يقل: يؤدون الصلاة، بل قال: **﴿يُقِيمُونَ﴾**؛ فالصلاة بناء، والبناء لا يكفي أن تمرَّ به، بل لا بد أن تقيم أعمدته، وتحفظ حدوده، وتملأه بالحضور.

الإيمان بالغيب معنى في القلب، لكن القرآن لا يرضى له أن يبقى معنى بلا جسد. تأتي الصلاة لتمنح الإيمان هيئةً وحركةً ووقتًا. ما يعتقده القلب تقوله الشفتان، ثم ينحني له الظهر، وتسجد له الجبهة، ويقف له الجسد كله.

كأن الصلاة اجتماع يومي تعقده أجزاء الإنسان على حقيقة العبودية؛ فما تفرق من القلب في الأسواق، وما تبعثر من الروح بين المخاوف والرغبات، تجمعه تكبيرة واحدة: **الله أكبر**.

ليست الصلاة خروجًا من الحياة، بل عودة إلى مركزها. فالإنسان لا يضل دائمًا لأنه يجهل الطريق؛ قد يضل لأنه ينسى ما يعرف. وتأتي الصلاة خمس مرات لتقاوم هذا النسيان المتكرر. كلما غطت الدنيا مرآة القلب بطبقة من غبارها، دعاه النداء ليمسحها بالوضوء، ويقف مرة أخرى أمام الحقيقة.

في الصلاة يتعلم الإنسان ألا يكون أكبر همِّه أكبر معبوداته. يدخلها مثقلًا بأمر يخيفه، ثم يقول: الله أكبر؛ لا لينكر وجود الخوف، بل ليضعه في حجمه الصحيح. يدخلها مفتونًا بمكسب، فيضع جبهته على التراب؛ فيتذكر أن أعلى موضع فيه لا يجد كماله إلا حين يخضع لخالقه.

إن السجود لا يهين الإنسان؛ بل يحرره من كل ما يُهينه. فمن سجد لله حقًا صعب عليه أن يسجد في باطنه لمال أو جاه أو بشر.

الإنفاق: امتحان الإيمان عند موضع القبضة

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

بعد علاقة الإنسان بالغيب، وعلاقته بربه في الصلاة، تأتي علاقته بما في يده. فالإيمان الذي لا يصل إلى المال قد يقيم في أهدأ منطقة من النفس، بعيدًا عن الامتحان الحقيقي.

المال ليس أوراقًا وأرقامًا فحسب؛ إنه ساعات من العمر تحولت إلى شيء قابل للادخار، وتعبٌ قديم استقر في اليد، وإمكانات مؤجلة، وشعور بالحماية من مستقبل مجهول. ولهذا يصعب خروجه؛ فالإنسان حين ينفق لا يفارق شيئًا خارجه فقط، بل يفارق جزءًا من خوفه وحرصه وتعلقه.

لكن الآية تسبق أمر الإنفاق بتصحيح عميق: ﴿**مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾.

ما في يدك وصل إليك قبل أن يكون لك. صحتك التي عملت بها رزق، وعقلك الذي خططت به رزق، والفرصة التي فُتحت لك رزق، والناس الذين تعاملوا معك رزق. لقد بذلت السبب، لكنك لم تخلق السبب ولا قدرتك عليه ولا نتيجته.

وهكذا لا يأتي الإنفاق في التصور القرآني مصادرةً للملكية، بل تحريرًا لها من الوهم. أنت مالك في حدود الاستخلاف، لا في مقام الاستقلال؛ ولذلك لا ينظر المنفق إلى المحتاج كأنه يصنع له وجودًا من العدم، ولا يرى يده العليا دليلًا على علو ذاته. إنه يرد بعض ما اؤتمن عليه إلى موضع أمر الله أن يصل إليه.

وقوله: ﴿**مِمَّا**﴾ يحمل رحمةً ظاهرة؛ لم يطلب منهم كل ما رزقهم، بل بعضه. فالشريعة لا تحارب فطرة التملك، وإنما تهذبها؛ لا تقتلع يد الإنسان من الدنيا، بل تمنع الدنيا من أن تنغلق عليها يده.

إن اليد حين تبقى مقبوضة على الدوام لا تحبس المال وحده؛ إنها تحبس صاحبها داخله. والإنفاق هو اللحظة التي يفتح فيها الإنسان كفَّه، فيكتشف أن ما خرج منها قد حرر شيئًا كان محبوسًا في قلبه.

وحدة الوحي: الإيمان الذي لا يجزِّئ كلام الله

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

لا يبدأ القرآن تاريخ الحق من لحظة نزوله، ولا يبني أمة الإسلام على إنكار ما سبقها من رسالات. فالمصدر واحد، والحقيقة في أصلها واحدة، والأنبياء حلقات في سلسلة النور، لا خصوم يتنازعون ملكية السماء.

المؤمن بالقرآن يؤمن بما أنزل إلى محمد ﷺ، ويؤمن بأصل ما أنزل على الأنبياء قبله؛ لأن إيمانه ليس عصبيةً لنبي على حساب نبي، بل ولاء لله الذي أرسلهم جميعًا.

وبهذا يخرج التصور الإسلامي من ضيق الهوية المتعصبة إلى رحابة الانتساب إلى موكب النبوة كله. آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، ليسوا جزرًا متباعدة؛ بل نهر واحد جرى في أرض التاريخ، وإن اختلفت مراحله وشرائعه.

لكن الإيمان بما سبق لا يعني التسوية بين النص المحفوظ وما لحق الرسالات السابقة من تحريف وكتمان؛ بل يعني الإيمان بالوحي في أصله الإلهي، وردَّ ما اختلف فيه الناس إلى الكتاب المهيمن الذي حفظه الله.

إن من أخطر أمراض التدين أن يتحول الوحي إلى أجزاء ينتقي الإنسان منها ما يوافقه. يؤمن بما يعزيه، ويتثاقل عما يكلفه؛ يحب آيات الرجاء، ويتهرب من آيات المسؤولية؛ يطلب من القرآن أن يحفظ حقوقه، ثم يصمت حين يطالبه بحقوق غيره.

أما المتقون فيؤمنون بالمنزَّل لأنه منزل من الله، لا لأنه وافق مزاجهم. إنهم لا يجعلون أهواءهم لجنةً تقبل من الوحي وترفض، بل يعرضون أهواءهم على الوحي ليصححها.

اليقين بالآخرة: المستقبل الذي يحاكم الحاضر

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

لم يقل: يؤمنون فحسب، بل قال: ﴿يُوقِنُونَ﴾. فالإيمان بالآخرة ليس فكرة ضبابية في آخر العقيدة، وإنما حضور يقيني يعيد ترتيب الحياة من أولها.

الآخرة في القرآن ليست خاتمة الحكاية فقط؛ إنها النور الذي ينبغي أن تُقرأ به الحكاية كلها. بها نفهم لماذا لا تكون القوة دليلًا على الكرامة، ولا الضعف دليلًا على الهوان، ولا تأخر العقوبة دليلًا على غياب العدل.

من دون الآخرة يبدو كثير من الوجود مبتورًا: مظلوم يموت قبل أن يسترد حقه، وظالم يرحل ولم تُمسَّ قلعته، ومحسن يزرع ثم يغادر قبل أن يرى الثمر. فإذا جاءت الآخرة اكتملت الجملة التي ظن الناس أنها انتهت عند الموت.

إن الدنيا تعرض الفصل الأول من العدالة، أما تمام الحكم ففي اليوم الآخر.

واليقين بالآخرة لا يجعل المؤمن مستخفًّا بالدنيا؛ بل يجعله أكثر مسؤولية فيها. فمن عرف أنه سيقف بين يدي الله لم يرَ كلمةً صغيرة، ولا مالًا مشبوهًا، ولا

دمعة مظلوم أمرًا يضيع في الزحام. إن ما ينساه الناس محفوظ، وما تستره الجدران مكشوف، وما تسقطه محاكم الأرض لا يسقط من سجل السماء.

وحين تستقر الآخرة في القلب، تتحرر الحياة من عبثيتها. لا يعود الألم بلا معنى، ولا الصبر زمنًا ضائعًا، ولا الخير الذي لم يصفق له أحد عملًا منسيًا. كل شيء يتجه إلى موعده.

الفلاح: ثمرة الطريق لا زينة الادعاء

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

تأمل قوله: **﴿عَلَىٰ هُدًى﴾**؛ فكأن الهدى أرض ثابتة تحت أقدامهم، أو مركب يحملهم فوق اضطراب الطريق. لم يقل: عندهم هدى فحسب؛ بل هم عليه، قائمون فوقه، متحركون به.

والهدى **﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾**؛ ففي لفظ الربوبية دفء التربية والرعاية. لم يصلوا لأنهم استغنوا بذكائهم، بل لأن ربهم هداهم وربّاهم وفتح لهم الطريق. وحتى استعداد القلب للهداية نعمة تحتاج إلى شكر.

ثم يجيء الحكم: **﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**.

الفلاح في اللغة يحمل معنى الشق والفتح؛ كالفلاح يشق الأرض ليخرج منها النبات. وكأن النجاح الحقيقي لا ينال بالمرور فوق سطح النفس، بل بشق تربتها الصلبة، واقتلاع جذور الهوى، وزراعة اليقين، ثم الصبر حتى يخرج الثمر.

وليس المفلح من امتلك أكثر، بل من وصل. وقد يربح الإنسان الدنيا كلها ويخسر نفسه، فيكون كثير المكاسب عديم الفلاح. وقد يخرج من الدنيا خفيف اليدين، لكنه يصل إلى الله بقلب سليم، فيكون قد ظفر بما أخطأته مقاييس الأرض.

بهذه الآيات الخمس يرسم القرآن صورة الإنسان المستعد لرحلة السورة: قلب مفتوح على الغيب، وجسد تقيمه الصلاة، ويد يطهرها الإنفاق، وعقل يؤمن بوحدة الوحي، وبصيرة ترى الآخرة كأنها الموعد القريب.

هذه ليست صفات متفرقة؛ إنها بناء واحد. فالإيمان بالغيب يمنح الرؤية، والصلاة تحفظ الصلة، والإنفاق يكسر الأنانية، والإيمان بالوحي يحدد الطريق، واليقين بالآخرة يمنح الغاية.

هكذا يعرِّف الكتاب قارئه قبل أن يبدأ معه الرحلة.

إنه لا يسأله: كم صفحة ستقرأ؟ بل: بأي قلب ستدخل؟

فقد يُفتح المصحف بيدين، ويبقى القلب مغلقًا. وقد يقرأ اللسان آيات الهداية، بينما يظل الهوى ممسكًا بالمقود. والقرآن لا يعجز عن كشف الطريق، لكن الإنسان قد يفضِّل عماه؛ لأن النور لا يريه الطريق وحده، بل يريه أيضًا ما صار إليه.

وعند هذه العتبة ينقسم الناس.

فمنهم من يرى النور فيمشي.

ومنهم من يغلق منافذ قلبه حتى يستوي عنده الإنذار والصمت.

ومنهم من يقف بين المعسكرين بوجهين، يريد أمان المؤمنين ومكاسب الكافرين؛ فلا هو سلَّم نفسه للحق، ولا هو امتلك شجاعة الرفض الصريح.

ومن هنا ستنتقل السورة إلى كشف النموذجين الآخرين: **الكافر الذي أغلق قلبه، والمنافق الذي قسَّم قلبه**.

فالكتاب لا يعرِّفنا بطريق النجاة فقط؛ بل يكشف لنا أيضًا كيف يُنتج الإنسان ضلاله، وكيف تتحول الحواجز الصغيرة، إذا أصرَّ عليها، إلى ختمٍ يطبق على القلب.

الفصل الثاني

على عتبة اليقين: حين يعرِّف الكتاب قارئه

الكافر: حين يتحول الإعراض إلى ختم

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

بعد أن رسمت السورة صورة القلب المفتوح للهداية، تنتقل إلى القلب الذي أغلق أبوابه حتى لم يعد الضوء يجد منفذًا إليه.

ولم تقل الآية: إن الذين جهلوا؛ لأن الجهل قد يكون غيابًا للمعلومة، وصاحبه أقرب إلى التعليم. وإنما قالت: **﴿كَفَرُوا﴾**؛ والكفر في أصله سترٌ وتغطية. فالكافر لا يعيش دائمًا في فراغ من الدليل، بل قد يرى منه ما يكفي، ثم يضع فوقه ستارًا؛ لأن الاعتراف بالحقيقة سيهدم بناءً أقامه الهوى طويلًا.

إن مشكلة الإنسان مع الحق ليست عقلية دائمًا. فقد يقتنع العقل، لكن المصلحة تخاف. وقد يتبين الطريق، لكن الكِبر يرفض أن يسلكه. وقد يسقط الاعتراض، إلا أن القلب يبحث عن اعتراض جديد؛ لأنه لم يكن يطلب جوابًا بقدر ما كان يطلب ذريعة.

ولهذا قال سبحانه: **﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**.

ليس المعنى أن الإنذار لا قيمة له؛ فالرسول ﷺ أُرسل منذرًا، والقرآن خطاب هداية. ولكن الآية تصف قومًا بلغ بهم الإصرار حدًّا صار معه الإنذار وعدم الإنذار سواءً في أثره عليهم. لم يعجز الضوء عن الإضاءة، ولكنهم اقتلعوا من نفوسهم قابلية الاستجابة له.

إنها صورة مرعبة؛ ليس لأن الطريق خفي، بل لأن الطريق ظاهر والقلب لا يريد أن يراه.

والإنسان لا يصل إلى هذا الحال دفعة واحدة. لا يستيقظ صباحًا فيجد قلبه مختومًا من غير تاريخ سابق. إنما تبدأ الرحلة بإعراض صغير، ثم يتكرر الإعراض حتى يصير عادة، وتصير العادة طبعًا، ويصير الطبع قيدًا، ثم يبلغ الإنسان حالًا لا يعود فيها عاجزًا عن رؤية الحق فحسب، بل يصبح متألمًا من وجوده.

كل «لا» يقولها القلب للحق تترك فيه أثرًا. وكل مرة يعرف فيها الإنسان الصواب ثم يؤثر عليه هواه، يضع حجرًا جديدًا في الجدار الذي يفصله عن النور. حتى إذا اكتمل الجدار، ظن أن العالم كله مظلم، وما الظلمة إلا فيما بناه بيديه.

وهنا يأتي قوله تعالى: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾.

والختم حكم عدل جاء بعد إصرارهم، لا ظلم ابتدأهم الله به؛ تعالى الله عن الظلم. لقد اختاروا الإعراض مرة بعد مرة، فلما استحبوا العمى على الهدى،

وصدوا عن الحق بعد ظهوره، جازاهم الله بأن تركهم لما أحبوا، وطبع على القلوب التي أبت أن تنفتح.

إن الله لا يحول بين طالب الهداية وبين الهداية، لكنه قد يحول بين المعرض وبين ما أعرض عنه جزاءً وفاقًا. فمن أهان النعمة مرارًا قد يُحرم القدرة على تذوقها، ومن عاش يطرد النور من قلبه قد يأتي عليه وقت لا يعود يعرف فيه أنه في ظلمة.

وهذا من أشد العقوبات خفاءً: أن يُعاقب الإنسان دون أن يشعر بالعقوبة؛ أن يمرض قلبه، ثم يفقد الإحساس بالمرض؛ أن يبتعد عن الله، ثم يظن أن البعد تحرر؛ أن تسقط من نفسه هيبة الحق، فيحسب سقوطها شجاعة فكرية.

إن الألم مع المرض قد يكون بشارة حياة، أما أن يموت موضع الألم نفسه فذلك الخطر.

القلب أولًا

قال سبحانه: ﴿**عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ**﴾، فبدأ بالقلب؛ لأن القلب في التصور القرآني ليس مخزن المشاعر وحدها، بل موضع الفقه والإرادة والتوجه. قد تصل المعلومة إلى العقل، ولكنها لا تصير هداية حتى ينفتح لها القلب.

القلب هو الذي يمنح الحقيقة وزنها في حياة الإنسان. كم من إنسان يعرف أن الموت حق، لكنه يعيش كأن الموت استثناء لا يشمله! وكم من إنسان يعلم أن الظلم حرام، ثم يجد لظلمه اسمًا آخر حين تتصل المسألة بمصلحته!

المعلومة موجودة، ولكن القلب لم يسمح لها أن تبلغ مركز القيادة.

فليست المشكلة دائمًا في نقصان العلم، بل في انقطاع الطريق بين العلم والإرادة. قد يمتلئ الرأس بالبراهين، ويبقى القلب منحازًا إلى ما يحب. وحينئذ يتحول الذكاء من دليل إلى الحق إلى محامٍ بارع عن الهوى.

والقرآن لا يريد عقلًا يرى وحده؛ بل قلبًا يخضع لما رأى.

ثم قال: ﴿**وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ**﴾؛ لأن السمع باب التلقي. والإنسان يسمع قبل أن يقرأ، ويتلقى خطاب الهداية من خارج نفسه قبل أن يعيد النظر فيما داخلها.

لكن السمع ليس مجرد وصول الصوت إلى الأذن. قد تمر الكلمات كاملة، ولا يصل منها إلى الروح شيء. وربما سمع المرء الآية التي لو نزلت على جبل لخشع، ثم لم تتحرك فيه إلا الرغبة في الحكم على صوت القارئ.

ما أكثر ما تسمع الآذان، وما أقل ما تصغي القلوب!

أما الأبصار فقال فيها: ﴿**وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾. فالقلب مختوم، والسمع مختوم، وعلى البصر غطاء. انسدت منافذ التلقي من الداخل والخارج؛ فلا الخبر المسموع يوقظهم، ولا الآية المشهودة في الكون تحركهم.

يرون الليل والنهار، والموت والحياة، وتقلب القوة والضعف، وخروج النبات من الأرض الميتة، لكنهم يقفون عند سطح المشهد. يرون الصنعة ولا يعبرون منها إلى الصانع، ويرون النعمة ولا يصعدون منها إلى المنعم، ويرون النهاية تقع بغيرهم ثم يعيشون كأنهم خارج قانونها.

البصر يلتقط الصورة، لكن البصيرة هي التي تقرأ معناها.

وحين تنطفئ البصيرة يتحول الكون كله إلى أشياء صامتة؛ لا السماء رسالة، ولا الموت تذكير، ولا النعمة عهد، ولا المحنة سؤال. يغدو العالم مادةً بلا محراب، والحياة طريقًا بلا غاية.

العذاب العظيم

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

جاء وصف العذاب بالعظمة؛ لأن الجريمة لم تكن خطأً عابرًا، بل إغلاقًا متعمدًا لمنافذ الهداية. لقد مُنح الإنسان قلبًا يفقه، وسمعًا يتلقى، وبصرًا يعتبر، ثم عطّلها كلها عن وظيفتها العليا.

وليست عظمة العذاب في شدته وحدها، بل في أنه يأتي بعد ضياع أعظم فرصة: أن يمر الإنسان بالدنيا، وتنزل عليه آيات الله، وتحيط به دلائل الربوبية، ثم يصل إلى نهاية الطريق دون أن يعرف لماذا كان هنا.

أي خسارة أعظم من أن يُمنح الإنسان عمرًا يصل به إلى الله، فيستعمله في الفرار منه؟

المنافق: الإنسان الذي انقسم على نفسه

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

اختصرت السورة الحديث عن الكافرين في آيتين، ثم أطالت الحديث عن المنافقين؛ لأن الكفر الصريح عدو ظاهر، أما النفاق فهو صدع مستتر في جدار الأمة. العدو الظاهر تستعد له، لكن الخطر الذي يرتدي ثياب الصديق يدخل من الأبواب المفتوحة.

الكافر يقول ما هو عليه، أما المنافق فيقيم مسافةً بين لسانه وقلبه، ثم يعيش داخل تلك المسافة.

يقول: ﴿**آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، فيستعير أقدس الكلمات ليستر بها أخطر المواقف. وهذا هو قبح النفاق: أنه لا يحارب الحقيقة بسلاح واضح، بل يسرق لغتها، ويتخذ من ألفاظ الإيمان ستارًا يختبئ خلفه.

لم يقل: آمنا بالله وبملائكته وكتبه ورسله، بل خص الله واليوم الآخر؛ كأنه يعلن أنه جمع أصل الإيمان ومصيره. ولكن الحكم الإلهي يأتي حاسمًا:

﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾.

فالحقائق لا تتغير بالأسماء. يمكن للإنسان أن يختار لنفسه أجمل الأوصاف، وأن يكررها حتى يصدقه الناس، لكن الأسماء لا تنشئ الحقائق. قد يسمى الجبن حكمة، والطمع مصلحة، والرياء دعوة، والظلم حزمًا؛ غير أن تغيير اللافتة لا يغيّر حقيقة الطريق.

إن الله لا ينظر إلى العنوان الذي يكتبه الإنسان فوق نفسه، بل إلى الحقيقة التي يسكنها.

الخديعة التي ترتد إلى صاحبها

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وهل يُخدع الله وهو الذي يعلم السر وأخفى؟

إنهم يفعلون فعل من يظن أنه يخادع الله؛ يظهرون الإيمان طمعًا في أحكامه الدنيوية، ويخفون الكفر، ويتوهمون أن نجاتهم من انكشاف أمرهم نجاة من علم الله وحكمه.

إن الخداع لا يقوم إلا على جهل المخدوع بما يُدبر له، والله سبحانه لا تخفى عليه خافية. يعلم الكلمة قبل أن تبلغ اللسان، ويعلم الباعث الذي دفع إليها، ويعلم المعنى الذي أخفاه القلب وراءها.

ولذلك قال: **﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾**.

المنافق يظن أنه صنع صورتين: صورةً يعرضها للناس، وحقيقةً يحتفظ بها لنفسه. لكنه مع الأيام يفقد الحقيقة والصورة معًا. يظل يمثل حتى لا يعود يعرف الوجه الذي خُلق به، ويكرر الكذبة حتى تسكن في وعيه، ويبرر موقفه حتى يصبح عاجزًا عن رؤية فساده.

الخداع الأول فعل، أما الخداع الأخير فهُوية.

يبدأ المنافق بخداع الآخرين، وينتهي مخدوعًا بنفسه. يتصور أن ذكاءه أنقذه، بينما الذكاء الذي ينفصل عن الصدق يتحول إلى آلة دقيقة لهدم صاحبه.

إن أبعد الناس عن اكتشاف الخديعة قد يكون هو الذي صنعها؛ لأنه يحتاج إلى تصديقها كي يحتمل نفسه.

المرض الذي يتغذى من نفسه

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

لم يقل: في أقوالهم مرض، مع أن المرض ظهر في أقوالهم؛ لأن اللسان لم يكن إلا موضع العَرَض، أما أصل الداء ففي القلب.

مرضهم شكٌّ وكذب وحسد وجبن وانقسام. ليست نفوسهم مطمئنة إلى الإيمان فتستقيم عليه، ولا هي شجاعة في الكفر فتعلنه؛ إنهم يعيشون في منطقة رخوة، تحكمها المصلحة ويغيب عنها المبدأ.

والمرض بطبيعته قابل للزيادة إذا لم يعالج. فالكذبة تحتاج إلى كذبة تحرسها، والموقف المزدوج يحتاج إلى مواقف أخرى تحميه، والتنازل الأول يجعل الثاني أسهل. وهكذا لا يبقى النفاق في موضعه؛ إنه يتمدد داخل النفس حتى يصير الصدق عبئًا لا يطيقه صاحبه.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾؛ جزاءً على اختيارهم المرض وإصرارهم عليه. كلما جاءتهم آية فكفروا بها، ازدادت المسافة بينهم وبين الشفاء. وما كان يمكن أن يكون دواءً صار — بسبب سوء استقبالهم — كاشفًا لمزيد من فسادهم.

الشمس نفسها تُنضج الثمرة وتزيد المستنقع نتنًا؛ ليس الاختلاف في الشمس، بل فيما استقبلها.

والقرآن نفسه يزيد المؤمن إيمانًا، ويزيد صاحب القلب المريض اضطرابًا؛ لأنه يضعه أمام حقيقة يريد الفرار منها. فكل آية تكليف تكشف ضعفه، وكل موقف تضحية يفضح جبنه، وكل معيار للحق يسقط قناعًا من أقنعته.

ثم قال: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾؛ فجعل عذاب الكافرين عظيمًا، وعذاب المنافقين أليمًا. وكأن الألم يناسب تلك النفس التي عاشت تمزقًا وخداعًا، ثم انتهت إلى انكشاف كامل لا يبقى معه ستار.

﴿**بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾؛ فالجزاء موصول بالفعل، والعذاب لم يقع اعتباطًا. إن كلمة الكذب تبدو خفيفة حين تخرج من اللسان، لكنها قد تكون أول حجر في سجن كامل يبنيه الإنسان حول روحه.

حين يسمّي الفساد إصلاحًا

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾

لا يكتفي النفاق بارتكاب الفساد؛ بل يحتاج إلى إعادة تسمية الفساد كي يستطيع صاحبه أن يعيش معه.

فقليل من الناس يقدرون على النظر في المرآة والقول: نحن مفسدون. الإنسان يحتاج إلى صورة أخلاقية عن نفسه، فإذا لم يشأ إصلاح عمله، أصلح اسمه! يضع للظلم عنوان الحزم، وللخيانة عنوان المرونة، وللجبن عنوان الواقعية، ولتفريق الصف عنوان الغيرة، ثم يطمئن إلى الألفاظ كأنها غيَّرت الحقائق.

وهنا تبلغ الخديعة ذروتها: لا يعود المفسد يشعر أنه في حاجة إلى التوبة؛ لأنه منح فساده اسم الإصلاح.

إن المذنب الذي يعلم أنه مذنب أقرب إلى النجاة من مفسد يرى نفسه منقذًا. الأول يؤلمه جرحه وقد يبحث عن دواء، أما الثاني فقد سمّى الجرح عافية، وصار يدافع عنه.

ولهذا جاء الحكم محاطًا بأدوات التوكيد:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

قد ينجحون في السيطرة على اللغة داخل مجالس الناس، لكنهم لا يملكون تغيير أسماء الأشياء في ميزان الله. هناك تسقط الدعاية، وتنحل الزينة اللفظية، ويعود الفعل إلى اسمه الحقيقي.

والفساد الذي يصنعه المنافق أوسع من معصية فردية؛ لأنه يخلط معايير الجماعة. إنه يجعل الناس يشكون في معنى الصدق، ويستخدم شعارات الخير لإمرار الشر، حتى تفقد الكلمات طهارتها في الوعي العام.

وحين يُسرق اسم الإصلاح لمصلحة الفساد، لا تتضرر حياة الناس وحدها، بل تتضرر قدرتهم على تسمية ما يحدث لهم.

الاستعلاء الخفي على المؤمنين

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

في داخل النفاق كِبرٌ مستتر. فالمنافق لا يرى امتناعه عن الإيمان نقصًا في صدقه، بل يراه زيادةً في ذكائه. ينظر إلى المؤمن الذي ضحّى وثبت وصدق، فيحسبه ساذجًا؛ لأنه قاسه بميزان المصلحة العاجلة.

في منطقه، العاقل هو الذي يترك لنفسه بابًا في كل جهة، ولا ينتمي إلى الحق انتماءً يكلّفه، ولا يقطع مع الباطل قطيعةً تحرمه من مكاسبه. أما الذي يختار موقفًا واضحًا ويدفع ثمنه فهو «سفيه»؛ لأنه لم يتقن فن النجاة بالنفس.

لكن القرآن يقلب الميزان: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾**.

فأي سفه أعظم من أن يبيع الإنسان مصيره الأبدي بسلامة مؤقتة؟ وأي ضعف في العقل أشد من أن يرى المرء رضا الناس أقرب إليه من حساب الله؟ وأي صفقة أكثر خسرانًا من أن يحفظ صورته في أعين الخلق، ثم يفقد نفسه في علم الخالق؟

السفه ليس قلة المعلومات، بل سوء التصرف في أثمن ما يملك الإنسان. وقد يكون المرء واسع الحيلة، دقيق الحساب، لكنه سفيه؛ لأنه حسب كل شيء إلا النهاية.

قال في الآية السابقة: ﴿**لَا يَشْعُرُونَ**﴾؛ لأن الفساد قد يدرك بالحس وآثاره المشهودة. وقال هنا: ﴿**لَا يَعْلَمُونَ**﴾؛ لأن معرفة السفه والرشد تحتاج إلى علم بالحقائق والمآلات. لقد تعطلت فيهم حاسة الشعور، ثم اختل ميزان العلم.

وجه للمؤمنين ووجه للشياطين

﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾

تأمل كلمة ﴿**لَقُوا**﴾ وكلمة ﴿**خَلَوْا**﴾.

الإيمان عندهم لقاء عابر، أما الحقيقة التي يطمئنون إليها فتظهر عند الخلوة. أمام المؤمنين يؤدون الدور، وحين يعودون إلى شياطينهم يخلعون القناع.

وسمَّى القرآن رؤوس الضلال ﴿**شَيَاطِينِهِمْ**﴾؛ لأن الشيطنة ليست حكرًا على الجن، بل قد يبلغ الإنسان من التمرد والإغواء مقامًا يصير فيه بابًا يدخل منه الشر إلى غيره.

قالوا: ﴿**إِنَّا مَعَكُمْ**﴾. وهذه هي عقيدتهم الحقيقية: المعية مع أصحاب القوة التي يرجون نفعها. ليس لهم مركز أخلاقي ثابت؛ إنما يستمدون شكلهم من المجلس الذي يجلسون فيه.

ثم يعتذرون عن مظهرهم أمام المؤمنين: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾.

كأن الإيمان في نظرهم مسرحية يؤدونها، والمؤمنين جمهور يسهل خداعه. لكنهم لم يفهموا أن الشيء الذي اتخذوه لعبة هو مصيرهم، وأن الضحك القصير قد يكون مقدمة بكاء لا ينتهي.

إن المستهزئ يضع نفسه فوق ما يستهزئ به؛ يوهم نفسه أنه أكبر من الحقيقة وأذكى من أهلها. وما درى أن سخريته ليست برهانًا على تفوقه، بل قد تكون حيلة نفسية يهرب بها من جلال الأمر الذي لا يستطيع مواجهته.

الاستهزاء الذي ينقلب على صاحبه

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

جاء الجزاء من جنس العمل، على وجه يليق بجلال الله سبحانه، من غير مماثلة لأفعال المخلوقين؛ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**. فالله يجازيهم على استهزائهم، ويكشف هوانهم، ويجعل مآل مكرهم عليهم.

ظنوا أنهم إذا أظهروا الإيمان حُسبوا من المؤمنين، وإذا خلوا إلى شياطينهم ظلوا أوفياء للكافرين، فربحوا الفريقين. لكنهم في الحقيقة خسروا الثقة في الجهتين، وقبل ذلك خسروا أنفسهم.

ثم قال: **﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**.

قد يتوهم الإنسان أن استمرار النعمة مع المعصية دليل رضا، وأن تأخر العقوبة علامة نجاة. لكن الإمهال ليس دائمًا إكرامًا؛ فقد يكون امتداد الحبل جزءًا من العقوبة.

إن أخطر ما قد يصيب الإنسان ألا يُوقظ بعد خطئه؛ أن ينجح فساده، فتغريه النتيجة بتكراره؛ أن يخدع مرة فلا ينكشف، فيظن أن الخداع صار قانونًا مضمونًا؛ أن يعلو بالباطل، فيحسب العلو شهادةً بصحته.

هنا يتحول النجاح الظاهر إلى استدراج خفي.

و**العَمَه** هو التردد في الضلال والتحير فيه؛ فهم يتحركون، ولكن بلا وجهة. وليس كل تحرك تقدمًا، كما أن كثرة الطرق لا تعني معرفة الطريق. قد يملأ الإنسان حياته نشاطًا وضجيجًا، وهو في الحقيقة يدور داخل التيه نفسه.

الصفقة التي أكلت رأس مالها

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

ينقل القرآن صورتهم إلى السوق؛ لأنهم ظنوا أنفسهم أهل حساب وربح. عاملوا المواقف كما يعامل التجار السلع: ماذا نكسب من هؤلاء؟ وماذا نضمن عند أولئك؟ وكيف نحفظ مصالحنا إذا غلب هذا الفريق أو ذاك؟

فجاءهم الحكم باللغة التي يفهمونها:

﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾.

إنهم لم يخسروا بعض الأرباح فقط؛ بل دفعوا الهدى ثمنًا للضلالة. باعوا رأس المال واشتروا الخسارة. وكانت الهداية معروضةً أمامهم، وعرفوا شيئًا من نورها، ثم استبدلوها عمدًا بموقف يضمن لهم منفعة قريبة.

والصفقة الفاسدة لا تصير رابحة لأن صاحبها احتفل بها طويلًا.

كم من نجاح في أعين الناس ليس سوى خسارة مؤجلة! وكم من موقع كسبه الإنسان حين خسر موقفه! وكم من مال دخل اليد بعد أن خرجت الكرامة من القلب!

إن الربح في الميزان القرآني ليس مقدار ما تضيفه إلى خزانتك، بل مقدار ما يبقى لك حين تسقط عنك الملكيات كلها.

المثل الأول: نار أضاءت ثم انطفأت

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

هنا لا يشرح القرآن النفاق بمفهوم مجرد، بل يحوله إلى مشهد تراه العين.

ليل واسع. ورجل يستوقد نارًا. وبعد جهد اشتعلت، فأضاءت ما حوله، وظهرت له معالم الطريق. لكنه ما كاد يرى حتى ذهب النور، وبقي محاطًا بظلمات لا يبصر فيها شيئًا.

لقد اقترب المنافقون من بيئة الإيمان، وسمعوا القرآن، ورأوا أثره، وانتفعوا بشيء من نوره الظاهر، لكنهم لم يجعلوه نورًا في قلوبهم. عرفوا الكلمات ولم يسلموا لها، وعاشوا بين المؤمنين دون أن يولد الإيمان في داخلهم.

قال: **﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾**، ولم يقل: بنارهم. ذهب عنصر الإضاءة والهداية، وبقي لهم ما في النار من حرارة واضطراب. كأنهم أرادوا من الإيمان منافعه

العاجلة دون حقيقته، فحُرموا نوره وبقيت عليهم أعباء التمثيل والخوف والانقسام.

ثم جمع الظلمات فقال: ﴿**فِي ظُلُمَاتٍ**﴾؛ لأن الحق واحد، أما الباطل فظلمات متعددة: ظلمة الشك، وظلمة الكذب، وظلمة الخوف، وظلمة الهوى، وظلمة انقسام الإنسان على نفسه.

النور يجمع القلب، والظلمة تفتته.

﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾؛ ليست حواسهم العضوية معطلة، وإنما عطلوا وظائفها في تلقي الحق. لا يسمعون سماع قبول، ولا ينطقون بكلمة الصدق، ولا يبصرون طريق الهدى.

ثم قال: ﴿**فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**﴾.

وهذه هي المأساة: لم يفقدوا الطريق فحسب، بل فقدوا إرادة العودة. فالرجوع يحتاج اعترافًا، والمنافق بنى حياته على الفرار من الاعتراف. لكي يعود لا بد أن يهدم الصورة التي صنعها لنفسه أمام الناس، وهو مستعد أن يخسر الحقيقة كلها كي يحفظ تلك الصورة.

المثل الثاني: في قلب العاصفة

﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾

يتحول المشهد من نار ساكنة في ليل إلى عاصفة تهبط من السماء. مطر غزير، وظلمات، ورعد يهز الفضاء، وبرق يشق السماء، وصواعق توهمهم أن الموت قد اقترب.

والصيِّب في أصله ماء الحياة، كما أن الوحي حياة للقلوب. لكنهم لا يرون من المطر إلا ما يصاحبه من رهبة؛ لأن نفوسهم تعلقت بالراحة، ولم تفهم أن الهداية قد تنزل بتكاليف تهز ما استقر من عادات الإنسان.

في الوحي بشارات تشبه البرق، وفيه نُذر تشبه الرعد، وفيه أوامر تقتلع النفس من مألوفاتها. والمؤمن يستقبلها كلها من رب واحد، أما المنافق فيريد مطرًا بلا رعد، وهدايةً بلا تكليف، وإيمانًا بلا امتحان.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾.

قال أصابعهم، مع أن الذي يدخل في الأذن أطراف الأصابع؛ لتصوير شدة محاولتهم إغلاق السمع. كأنهم يريدون حشو منافذ الإدراك كلها حتى لا تصل إليهم الحقيقة.

لكن إغلاق الأذن لا يوقف الصاعقة، كما أن تجاهل الحقيقة لا يبطلها. يمكنك ألا تسمع التحذير، لكنك لا تستطيع بذلك إلغاء ما يحذرك منه.

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

يضعون أصابعهم في آذانهم ليتوهموا الأمان، ولا يعلمون أنهم داخل إحاطة لا يخرجون منها. الإنسان قد يهرب من صوت الحقيقة، لكنه لا يخرج من

ملك الله. قد يغلق المصحف، ويغادر المجلس، ويطرد الموعظة من ذهنه؛ لكن إلى أين يمضي بنفسه؟

خطوات على ضوء خاطف

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

هذه أدق صورة للنفس التي تتعامل مع الدين بمنطق المنفعة:

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾.

إذا جاء الإيمان بما يوافق مصلحتهم تحركوا، وإذا حمل لهم نصرًا أو أمنًا أو مكانةً أعلنوا الانتساب إليه. فإذا أظلم عليهم الطريق، وجاءت التضحيات، أو تأخر النصر، أو تعارض الحكم مع رغبةٍ في نفوسهم، وقفوا.

إنهم لا يسيرون إلى الله، بل يسيرون مع الضوء الذي يخدمهم. ليست غايتهم الحق؛ بل سهولة الطريق.

أما المؤمن، فلا يعبد وضوح الطريق، بل يعبد رب الطريق. يمشي حين يرى، ويثبت حين لا يرى؛ لأن يده معلقة بالعهد، لا بتقلب الظروف.

وفي قوله: **﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾** صورة بليغة للشلل الروحي. لم يقل: رجعوا، بل قاموا في أماكنهم؛ فلا هم تقدموا مع المؤمنين، ولا وجدوا في الباطل طمأنينة. وقوف دائم بين جهتين، يستهلك العمر دون وصول.

ثم تختم الآيات بالقدرة الإلهية: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

فالسمع والبصر اللذان لم يؤديا وظيفة الهداية ليسا ملكًا مستقلًا لصاحبهما. إنهما نعمتان قائمتان بمشيئة الله، وكان مقتضى الشكر أن يُستعملا في معرفة الحق.

والآية لا تهدد المنافقين وحدهم؛ بل توقظ كل قارئ. فلا يغتر أحد بسلامة حواسه، ولا يظن أن بقاء أدوات الإدراك يضمن بقاء نورها. قد تكون العين مفتوحةً ويكون القلب أعمى، وقد تسمع الأذن كل الأصوات إلا الصوت الذي ينقذها.

ثلاثة قرّاء أمام كتاب واحد

هكذا تضع السورة في افتتاحها ثلاثة نماذج بشرية أمام الوحي:

المتقون فتحوا قلوبهم، فتحول القرآن فيهم إلى صلاة وإنفاق ويقين وسير.

والكافرون أغلقوا منافذهم، فتحول الإعراض المتكرر إلى ختم.

والمنافقون فتحوا نافذةً وأغلقوا أخرى؛ أرادوا النور دون أن يغادروا الظلمة، فانتهوا لا إلى منتصف الطريق، بل إلى ظلمات مضاعفة.

وليس المقصود أن نقرأ هذه النماذج لنوزع الناس عليها من مكان آمن، بل لنبحث عن آثارها في داخلنا. فقد يكون في القلب استعداد المتقي حين يصدق،

وشيء من قسوة المعرض حين يصر، وأثر من النفاق حين يخالف السر العلن.

إن القرآن لا يمنح قارئه مقعد القاضي قبل أن يضعه في موضع المتهم. وما لم نقرأ صفات المنافقين بخوف على أنفسنا، فقد نحول أخطر المرايا إلى نوافذ لا نرى فيها إلا الآخرين.

السؤال إذن ليس: من المنافق الذي تتحدث عنه الآيات؟

بل: أين تتباعد في حياتي الكلمة والحقيقة؟ أين أطلب من الدين أن يضيء لي، فإذا كلَّفني وقفت؟ أين أسمّي ضعفي حكمة، وفسادي إصلاحًا، وحرصي على نفسي مصلحةً عامة؟

إن بداية الهداية صدقٌ لا يجامل صاحبه.

وقد عرَّفتنا السورة في مطلعها بأنواع القلوب، ثم ستوجه خطابها إلى الناس جميعًا. بعد أن وصفت المؤمن والكافر والمنافق، ستفتح الباب العام:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

فالقرآن لا يكشف المرض ليترك المريض أمام تشخيصه، بل ليدله على أصل الشفاء: أن يعود الإنسان من عبادة ما تفرق في حياته إلى عبادة ربه الذي خلقه.

وهنا ينتقل الخطاب من وصف المواقف إلى إقامة الحجة، ومن تحليل الإنسان إلى تعريفه بربه، ومن سؤال: كيف استقبل الناس الكتاب؟ إلى السؤال الأول الذي يقف عليه الوجود كله: **من الذي يستحق أن يُعبد؟**

الفصل الثالث

الإنسان الأول: سرُّ الاستخلاف وجرح المعصية

النداء الذي يعيد الإنسان إلى أصله

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

بعد أن عرضت السورة نماذج الناس أمام الوحي: مؤمنًا فتح قلبه، وكافرًا أغلقه، ومنافقًا شطره بين وجهين؛ جاء النداء ليجمعهم جميعًا تحت اسم واحد: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾**.

لم يقل: يا أيها المؤمنون؛ لأن الخطاب هنا يسبق الإيمان، ويخاطب الحقيقة الأولى المشتركة بين البشر جميعًا. قبل أن يكون المرء عربيًا أو أعجميًا، غنيًا أو فقيرًا، حاكمًا أو محكومًا، فهو إنسان خلقه الله، ويعيش في ملكه، ويتنفس من رزقه، ويسير إلى لقائه.

قد تختلف الأسماء التي يمنحها التاريخ للناس، لكن النداء القرآني يعيدهم إلى الاسم الذي وُلدوا به: **الناس**.

إنه نداء يجرّد الإنسان من الثياب التي خاطها له المجتمع، ثم يوقفه عاريًا من الألقاب أمام حقيقة وجوده. فلستَ في هذه اللحظة ممثلًا لقبيلة أو طبقة أو حضارة؛ أنت مخلوق يسمع نداء خالقه.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾.

هذه أول صيغة أمر في المصحف بعد الفاتحة، وكأن القرآن بعد أن عرَّف الطريق وأصناف السائرين يضع أمام الإنسان أول واجبات الطريق: العبادة.

ولم يقل: اعبدوا الله فحسب، بل قال: ﴿**رَبَّكُمُ**﴾؛ ليستدعي في القلب معنى التربية والرعاية والإنعام. فالذي يأمرك بالعبادة ليس غريبًا عن وجودك؛ هو الذي أنشأك طورًا بعد طور، وحفظك حين لم تكن تملك لنفسك شيئًا، وأجرى عليك من لطفه ما علمتَ وما لم تعلم.

إن العبادة ليست ضريبة يدفعها الإنسان لإله يحتاج إليها؛ تعالى الله عن ذلك. إنها عودة المخلوق إلى النظام الذي يصلح به. فالله غني عن سجودنا، لكن قلوبنا فقيرة إلى أن تسجد له، وإلا سجدت لشيء دونه.

والإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا معبود. إن لم يعبد الله عبد هواه، أو صورته في أعين الناس، أو المال، أو القوة، أو الخوف. قد يرفض لفظ العبودية، لكنه يقضي عمره مطيعًا لما يملك عليه قلبه.

الحرية ليست أن تتحرر من كل عبودية؛ فهذا مستحيل في تركيب الإنسان. الحرية الحقيقية أن تختار العبودية التي تحررك من سائر العبوديات.

فمن عبد الله وحده لم يعد المال قادرًا على شراء ضميره، ولا الجمهور قادرًا على صياغة موقفه، ولا الخوف قادرًا على إسكاته عن الحق. وكلما صحَّ سجوده لله، انكسر في داخله صنم جديد.

الخلق حجة لا ذكرى

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أقام الأمر بالعبادة على حقيقة الخلق. فالذي أخرجك من العدم هو وحده المستحق أن تكون له وجهتك القصوى.

والخلق ليس حادثةً وقعت ثم انفصل الخالق عن المخلوق؛ وجود الإنسان في كل لحظة شاهد فقر متجدد. القلب لا ينبض بقرار صاحبه، والروح لا تقيم في الجسد بعقد يملكه، والعمر يتناقص دون أن يستأذن.

نحن لا نحمل وجودنا؛ وجودنا هو الذي يحملنا بإذن الله.

وقوله: **﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾** يفتح وراء الإنسان امتداد الأجيال. لم يخلق الله الفرد وحده، بل خلق السلسلة التي جاء منها، والآباء الذين حملوا إمكان وجوده، والأزمنة التي مهدت لمجيئه.

ما من إنسان صنع نقطة البداية لنفسه. لقد دخل كل واحد منا إلى مسرح قد أُعدَّ قبل وصوله: لغة يتكلم بها، وأرض يقف عليها، وجسد لم يختر تفاصيله، وعالم يعمل بقوانين لم يضعها.

فمن أين جاءه وهم الاستقلال؟

إن الكِبر نسيانٌ للبدء. ولو تذكر الإنسان لحظة ضعفه الأولى، لما رأى ما بين يديه حقًا ذاتيًا، بل عاريةً كريمة ينبغي أن يؤدي شكرها.

ثم بيَّنت الآية غاية العبادة:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالعبادة ليست حركات منفصلة عن أثرها، بل طريق إلى بناء التقوى. صلاة لا تحجز صاحبها عن الظلم لم تبلغ بعد تمام وظيفتها، وصيام لا يهذب شهوة اللسان أبقى من العبادة جسدها وفوَّت روحها.

والتقوى أن يتشكل في أعماق الإنسان حارس يقظ؛ يذكِّره بالله حين تغيب أعين الناس، ويمنعه حين تفتح له القدرة باب العدوان، ويقوده إلى الخير ولو لم يجد عليه شاهدًا من الخلق.

إن أعظم ما تصنعه العبادة أنها تنقل الرقابة من خارج الإنسان إلى داخله. فالقانون يستطيع أن يمسك اليد إذا ظهرت الجريمة، أما التقوى فتمسك النية قبل أن تتحرك اليد.

الأرض الممهَّدة والسماء المبنية

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

تخرج الآية بالإنسان من التأمل في نفسه إلى التأمل فيما حوله. تحت قدميه أرض، وفوق رأسه سماء، وبينهما ماء ينزل وثمر يخرج؛ مشهد يتكرر حتى كاد الاعتياد يحجب معجزته.

﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾.

لم يخلق الأرض موجودةً فحسب، بل جعلها مهيأةً لحياة الإنسان؛ مستقرة في شعوره، قابلة للسكن والسير والزرع. والفراش ليس مجرد سطح، بل موضع راحة واحتواء.

نحن نمشي فوق هذه النعمة كل يوم، حتى لا نكاد نشعر بها. وهذه إحدى حجب النعمة: أن دوامها يجعلها غير مرئية. لا يعرف الإنسان عافية الأرض تحت قدميه إلا حين تضطرب، ولا يشعر بنعمة الهواء إلا حين يضيق نَفَسه، ولا يعرف قيمة الماء إلا حين يعز قطرة.

إن الاعتياد يسرق الدهشة، والقرآن يعيد الأشياء المألوفة إلى وهجها الأول.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

فوق الفراش بناء محفوظ، تتنزل منه أسباب الحياة. وتلتقي في الصورة رعاية الأسفل وحماية الأعلى، كأن الإنسان يعيش في بيت كوني أُعدَّ له قبل مجيئه.

ثم ينزل الماء: **﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾**.

قطرات شفافة لا تحمل في ظاهرها لون الثمر ولا طعمه ولا رائحته، ثم تدخل الأرض فيخرج بها الأحمر والأخضر والحلو والحامض. ماء واحد، وأرض متجاورة، وثمر مختلف؛ فمن الذي أودع في البذرة خريطتها، وعلَّم الجذر طريقه في الظلام، ودفع الغصن إلى جهة الضوء؟

إن الثمرة ليست شيئًا تخرجه الأرض استقلالًا؛ إنها رسالة ملفوفة في لون وطعم، تقول للإنسان إن الرزق لم يبدأ من السوق، وإن اليد التي أعطته أجره ليست أول سلسلة العطاء.

وقبل أن يصل الخبز إلى المائدة، كانت هناك شمس لا يملكها المزارع، وماء لم يصنعه، وتربة لم ينشئها، وبذرة لم يخلق سرها، وقوانين تعمل في صمت.

كم من أيدٍ تحمل الرزق، لكن المعطي واحد.

ولهذا جاء النهي:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الندُّ هو النظير والمثيل الذي يُجعل له من المحبة والخضوع والعبادة ما لا يكون إلا لله. وليس الشرك محصورًا في تمثال يُنصب؛ فقد يستقر الند في القلب، حين يخاف الإنسان مخلوقًا خوفًا يفسد طاعته لخالقه، أو يحب شيئًا حبًا يقدمه على أمر الله، أو يرى رزقه معلقًا بيد بشرية حتى يبيع لها ضميره.

لا يخلق الندُّ شيئًا من ذلك، لكنه يحتل في الشعور مكان الخالق.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: تعلمون أن هذه الآلهة لم تخلقكم، ولم تفرش الأرض، ولم تبن السماء، ولم تنزل الماء. وحين يكون الخالق واحدًا، كيف تتفرق العبادة؟

إن التوحيد ليس رقمًا في باب العقيدة، بل جمعٌ لشتات القلب. فالقلب المشرك موزع بين مخاوف كثيرة وأسياد متنافسين، أما القلب الموحد فتعود كثرة الأشياء فيه إلى مركز واحد.

التحدي: إن كان من صنع بشر فأتوا بمثله

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

بعد إقامة الدليل في الخلق، تقيم السورة الدليل في الوحي. وكأن للإنسان كتابين مفتوحين: كونًا منظورًا، وقرآنًا مقروءًا. وفي كليهما آيات تدله على مصدر واحد.

قال: **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾**، فجعلهم كأنهم غارقون داخل الشك، يحيط بهم من كل جانب. ثم لم يطلب منهم أن يكبتوا أسئلتهم، بل نقل الدعوى إلى ميدان الاختبار: **﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾**.

هذا الكتاب مكوَّن من الحروف التي يتكلمون بها، ونزل بلغتهم، وهم أهل البلاغة والبيان. فإن كان محمد ﷺ قد افتراه، فباب المعارضة مفتوح. لا يطالبهم بمثل القرآن كله، بل بسورة من مثله.

ولم يكن التحدي جمالًا لفظيًا معزولًا؛ فالقرآن ليس زخرفةً لغوية يمكن محاكاتها بتكثيف السجع. إنه وحدة عجيبة بين اللفظ والمعنى، وبين الخبر والهداية، وبين التشريع والتربية، وبين مخاطبة العقل وتحريك الوجدان.

الكلمة فيه لا تتزين فوق المعنى؛ إنها تنشأ معه كما ينشأ اللون في الوردة، فلا تستطيع نزعه دون أن تفسد الصورة كلها.

ثم أذن لهم أن يستجمعوا قوتهم: **﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾**.

استعينوا بكل من تثقون بقدرته، واجمعوا أهل البلاغة والحكمة والنقد؛ فالمسألة لا تخشى الفحص. والحق لا يحتاج إلى منطقة مظلمة كي يبقى مهيبًا، بل يقف في الضوء ويدعو خصومه إلى أن يأتوا بكل ما يملكون.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهنا ينتقل السؤال من القرآن إلى نفوسهم: هل الاعتراض نابع من بحث صادق، أم من رغبة في ألا تكون النتيجة صحيحة؟ فالصدق ليس شرطًا في الجواب وحده؛ بل هو شرط في السؤال أيضًا.

نار وقودها الإنسان وما عبد

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾: إعلان عجزهم في الحاضر.

﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾: حكم يمتد في المستقبل.

ليس القرآن رهينة عصر تفوق فيه على قوم محدودين، بل معجزته قائمة ما بقي التحدي. تمضي القرون، وتتطور أدوات اللغة والتحليل، ويبقى الكتاب محتفظًا بتفرده؛ لا يشيخ مع كثرة القراءة، بل يكشف لكل جيل عن طبقة جديدة من هدايته.

وبعد قيام الحجة يأتي التحذير: **﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾**.

لم يقل: إذا عجزتم فاعترفوا بالتفوق الأدبي؛ لأن القضية ليست مسابقة بيان، بل مصير إنسان. الغرض من المعجزة أن تقود إلى الإيمان، لا أن تكون موضوع إعجاب بارد.

ومن أعجب الصور أن وقود النار ﴿**النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾. الإنسان الذي رفض أن يكون قلبه موضعًا لنور الوحي يصير جسده وقودًا للنار. والحجارة التي اتخذ منها قوم أصنامًا مع الله لا تنقذ عابديها؛ بل تجتمع معهم في مشهد السقوط.

ما عُبد من دون الله لا يملك أن يحمي نفسه، فكيف يحمي عابده؟

ولم يقل: ستُعد، بل قال: ﴿**أُعِدَّتْ**﴾؛ لتشعر النفس أن الأمر ليس احتمالًا بعيدًا، بل حقيقة مهيأة تنتظر أهلها. إن الآخرة ليست فكرة يؤجلها الإنسان إلى نهاية وعيه؛ إنها واقع مقبل، وكل يوم يمضي يقرّبه منها.

الجنة: حين تستعيد الأشياء كمالها

﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾

لم يترك القرآن القلب أمام النار وحدها، بل فتح له في الآية التالية نافذة على الجنة. فالإنسان يسير إلى الله بجناحي الخوف والرجاء؛ خوف يمنعه من السقوط، ورجاء يمنعه من اليأس.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

لم يفصل الإيمان عن العمل؛ لأن الإيمان الذي لا ينبت عملًا يظل دعوى لم تدخل بعد تربة الحياة. والعمل الصالح هو الصورة التي يظهر بها الإيمان حين يغادر خفاء القلب.

وليست قيمة العمل في ضخامته أمام أعين الناس، بل في صلاحه: أن يكون خالص الوجهة، مستقيم الطريقة. فقد يصغر العمل في الأرض ويعظم في السماء؛ لأن قلبًا كاملًا كان وراءه.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾، وجمع الجنات إيحاء بسعة النعيم وتنوعه. وتحتها الأنهار تجري؛ فلا جفاف ولا انقطاع ولا انتظار. في الدنيا يهدد الزوال كل جمال، حتى تكون فرحة الإنسان مشوبةً بخوف النهاية. أما هناك، فالجمال آمن من الفقد.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾.

تشابه يوقظ الألفة، وتجدد يمنع الملل. يرون الثمرة فيعرفون صورتها، فإذا ذاقوها وجدوا من كمالها ما لم يعهدوه. فهي متشابهة في المظهر أو الجنس، متجددة في اللذة والخصائص.

وكأن الجنة تجمع لذة المعرفة ومفاجأة الاكتشاف: لا وحشة الغريب الذي لا يُعرف، ولا ملل المألوف الذي لا يتجدد.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

طُهرت من أذى الأجساد، ومن كدر الطباع، ومن كل ما يشوب العلاقات في الدنيا من نقص وغيرة وقلق وسوء فهم. فالجنة لا تمنح الإنسان أشياء أكثر فحسب؛ بل تعيد الأشياء إلى كمالها الذي لم تستطع الدنيا أن تحمله.

ثم تأتي أعظم كلمة تحفظ النعيم من الانكسار: ﴿**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

فالخلود ليس نعمةً تضاف إلى نعم الجنة، بل هو الأمان الذي يجعل كل نعمة كاملة. في الدنيا يختبئ الفناء وراء كل لقاء، وتمر ذكرى الرحيل في قلب كل فرح. أما في الجنة فلا موت يتربص، ولا زمن ينهش الأشياء، ولا يد للفراق تمتد إلى الأحبة.

إنها الحياة بعدما تُنزَع منها شوكة النهاية.

البعوضة التي كشفت موازين القلوب

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾

قد يستكبر الإنسان على الحقيقة بسبب صغر المثال الذي حملها. يتوقع أن تأتيه الحكمة دائمًا في مشهد ضخم، فإذا ضرب القرآن مثلًا ببعوضة رأى في صغرها ما لا يليق — في وهمه — بجلال الخطاب.

لكن قيمة المثال ليست في حجم الشيء المذكور، بل في دقة المعنى الذي يكشفه. قد تحمل قطرة صغيرة قانون البحر، وتكشف خلية دقيقة سرًّا من أسرار الحياة، وتدل بعوضة على من الإحكام ما تقف أمامه العقول.

والله سبحانه موصوف بالحياء على الوجه اللائق بجلاله، من غير مشابهة لحياء المخلوق؛ لكنه لا يمتنع أن يضرب بالبعوضة مثلًا إذا كان الحق يقتضي ذلك. فالحكمة لا تستنكف من الأشياء لصغر أحجامها؛ لأن الخالق العظيم تظهر قدرته في أدق المخلوقات كما تظهر في أوسع المجرات.

والبعوضة التي يراها الإنسان شيئًا تافهًا تحمل من دقة التكوين وأجهزة الحياة ما يكشف ضعف غروره. وقد يستطيع الإنسان أن يهدم مدينة، ثم يعجز عن دفع مخلوق صغير يحمل إليه مرضًا لا تراه العين.

إن صغر المخلوق لا يعني صغر الدلالة.

لكن المثل الواحد يقسم السامعين: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾.

لاحظ عودة اسم الرب: يعلمون أن المثل جاءهم في سياق التربية؛ يفتح لهم نافذةً جديدة على المعنى، فلا يحتقرون الوعاء ما دام يحمل حقًا.

﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا**﴾.

السؤال في ظاهره طلب فهم، لكنه في سياقه اعتراض واستهزاء. وبين سؤال المؤمن وسؤال الكافر مسافة أخلاقية؛ قد ينطقان بالألفاظ نفسها، لكن أحدهما يسأل ليفتح الباب، والآخر يسأل ليغلقه.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

المثل واحد، لكن القلوب مختلفة. والوحي لا يمر على الإنسان دون أثر؛ إما أن يتواضع له فيقترب، وإما أن يستكبر عليه فيبتعد. وحتى الابتعاد الذي يقع عند سماع الحق يكشف مرضًا كان مستترًا.

ثم يرفع القرآن كل توهم للظلم: **﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾**.

لم يضلوا لأن المثال غامض، بل لأنهم فسقوا؛ والفسق خروج عن الطاعة والحد. خرجوا أولًا بإرادتهم، فجاء الضلال جزاءً لمسار اختاروه.

حين تنقطع الروابط التي أمر الله بها أن توصل

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

هنا تحدد السورة ملامح الفاسقين بثلاث حركات تهدم العالم الأخلاقي:

ينقضون العهد، ويقطعون الصلة، ويفسدون في الأرض.

العهد هو الرابطة العمودية بين الإنسان وربه، والوصل هو شبكة العلاقات التي تحفظ حياة الناس، والفساد هو النتيجة التي تظهر في الأرض حين ينكسر الأصل وتتمزق الروابط.

فالفساد الاجتماعي لا يبدأ دائمًا في الشارع؛ قد يبدأ في الضمير حين يفقد الإنسان شعوره بالعهد. إذا لم يعد يرى نفسه مسؤولًا أمام الله، أصبحت العلاقات مصالح مؤقتة، وأصبحت المواثيق أوراقًا تنتهي قيمتها عند أول فرصة للغدر.

﴿**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ عبارة تتسع لكل رابطة شرعية: صلة الرحم، وأخوة الإيمان، وعلاقة الإنسان بالحق، وصلة العلم بالعمل، والقول بالفعل، والدين بالحياة.

إن الشيطان يعمل بالتقطيع: يقطع الإنسان عن ربه، ثم عن ضميره، ثم عن أسرته، ثم عن أمته، حتى يصير كائنًا منفردًا لا تحكمه إلا مصلحته.

أما الوحي فيعمل بالوصل؛ يصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، والعبادة بالأخلاق، والحق بالرحمة، والفرد بالجماعة.

ولهذا كان ﴿**أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾. خسروا العهد الذي يمنح الحياة معناها، وخسروا الروابط التي تمنحها دفأها، ثم ظنوا أن ما جمعوه وسط الخراب مكسب.

كيف تكفرون بالله؟

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

لا تسأل الآية عن سبب الكفر فقط، بل عن كيفيته: كيف يقع مع هذا التاريخ الواضح للإنسان؟

كنتم عدمًا لا تملكون اسمًا ولا صورةً ولا ذكرًا، فأحياكم. ثم تموتون رغم كل محاولات التشبث، ثم يحييكم للبعث، ثم تنتهي الرحلة إليه.

أربع محطات تختصر قصة الوجود: موت سابق، وحياة حاضرة، وموت مقبل، وحياة باقية.

والإنسان بين إحياءين لا يملكهما، وموتين لا يستطيع دفعهما. فأين يستند غروره؟

إننا نتعامل مع الحياة كأنها ملك أصيل؛ مع أننا تسلمناها دون طلب، وستُسترد منا دون إذن. وما بين التسليم والاسترداد مدة امتحان، لا وثيقة تملك.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لم يقل: ثم تنتهون؛ فالرجوع ليس فناءً، بل عودة إلى المبدأ الذي صدر عنه الوجود. الإنسان لا يسافر إلى مجهول، بل إلى الله؛ ولا يخرج بالموت من سلطان ربه، بل ينتقل من دار عمله إلى دار حكمه.

وحين يعرف المرء أنه راجع، تتغير طريقة ذهابه.

الكون قبل الإنسان

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قبل أن تروي السورة خلق آدم، تعرض الأرض التي أُعدت لمهمته. فالمسرح جُهز قبل حضور الخليفة؛ وكأن الكون كله كان يستقبل هذا الكائن القادم المكرم بالتكليف.

﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

اللام هنا تفتح معنى التسخير والانتفاع، لا التبديد والاستعلاء الفاسد. خُلقت الأشياء لينتفع بها الإنسان وفق أمر الله، لا ليعامل العالم كغنيمة بلا أمانة.

فالتسخير لا يمنح الإنسان حق الفساد، بل يزيد مسؤوليته. كلما اتسعت قدرته اتسع مجال محاسبته. وقد مُنح الإنسان قدرةً على استخراج خيرات الأرض، لكنه يستطيع بالقوة نفسها أن يحول النعمة إلى خراب.

إن الاستخلاف ليس تفويضًا مفتوحًا للشهوة، بل أمانة مقيدة بمنهج المالك الحق.

ثم قال سبحانه: **﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾**، والاستواء صفة ثابتة لله على ما يليق بجلاله، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل؛ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**.

﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾.

من أرض مهيأة تحت القدم إلى سبع سماوات فوق الإدراك؛ يمتد الملك، ويظل العلم محيطًا: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

وليس ختم الآية بالعلم تفصيلًا منفصلًا؛ فالذي خلق هذا النظام يعلم موضع كل شيء فيه، ويعلم الإنسان الذي سيستخلفه، ويعلم ضعفه واستعداده، وزلته وتوبته، والدم الذي سيسفكه، والعدل الذي سيقيمه، والشر الذي سيصنعه، والخير الذي سيرتقي إليه.

وبعد أن عرَّفتنا السورة بالخالق، وبالكون المهيأ، وبالعهد الذي ينقضه الفاسقون، تفتح الآن أقدم مشهد في تاريخ الإنسان: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾.

إنها اللحظة التي لم يكن الإنسان فيها قد خُلق بعد، لكن خبره كان قد بلغ الملأ الأعلى.

لم يبدأ تاريخنا على الأرض، بل بدأ بإعلان في السماء.

ولم يُقدَّم الإنسان بوصفه مخلوقًا يأكل ويمشي، بل بوصفه حامل مهمة: **خليفةً في الأرض**.

ومن هنا يبدأ السؤال الأعظم: ما الذي جعل هذا الكائن، الضعيف في جسده، المتردد في إرادته، القابل للخطأ وسفك الدم، أهلًا لهذه المهمة؟

سيأتي الجواب في موهبةٍ لم تكن سيفًا ولا جناحًا ولا قوة جسد: **إنها المعرفة.**

الفصل الرابع

الإنسان الأول: سرُّ الاستخلاف وجرح المعصية

إعلان الإنسان في الملأ الأعلى

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

يبدأ المشهد بقوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾**.

مرة أخرى يحضر اسم الرب؛ لأن القصة كلها قصة تربية: خلق، وتعليم، وابتلاء، وزلة، وتلقٍّ للكلمات، ثم هبوط يحمل في داخله وعد الهداية. لم يكن الإنسان في أية لحظة متروكًا خارج ربوبية الله، حتى حين أخطأ.

قال الله للملائكة: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**.

فالإنسان في التصور القرآني لم يوجد عبثًا، ولم يُلقَ في العالم كحادث بلا غاية. سبقت مهمتُه وجودَه، وسبق التكليفُ تكوينَه، وكان للأرض قبل أن تطأها قدماه انتظارٌ له.

والخلافة هنا ليست خلافةً عن الله؛ فالله سبحانه لا يغيب عن ملكه ولا يحتاج إلى من ينوب عنه، وإنما هي خلافة أجيال بعضها بعضًا، وقيام الإنسان في الأرض بما حمَّله الله من أمانة عمارتها وفق هداه.

إنه مخلوق مستخلف لا مالك مطلق؛ يتصرف فيما لم يخلق، ويقيم مدة لم يحددها، ثم يخرج تاركًا ما جمعه لمن يأتي بعده. وكل ما يقع في يده يحمل ختم الأمانة، وإن توهم أنه يحمل وثيقة التملك الأبدي.

لقد خُلق الإنسان للأرض؛ ولذلك لم تكن الأرض عقوبةً طرأت بعد الخطيئة، بل كانت موضع المهمة قبل خلق آدم. قال الله: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ قبل أن يسكن آدم الجنة، وقبل أن يقترب من الشجرة.

كانت الجنة موضع إعداد وامتحان أول، أما الأرض فكانت ميدان الرسالة منذ الإعلان الأول.

وهذا يصحح تصورًا عميقًا: الإنسان لم يهبط إلى الأرض لأن خطة الخلق فشلت، تعالى الله عن ذلك؛ بل هبط إليها ليبدأ ما أُعد له. غير أن الخطيئة كشفت له طبيعة الطريق، وأرته عدوه، وعرَّفته بضعفه، وعلّمته باب العودة قبل أن يبدأ مهمته الطويلة.

كأن التربية الإلهية لم ترسله إلى ساحة الاستخلاف حتى عرف ثلاثة أشياء:

أن الشيطان عدو.

وأن النفس قابلة للزلل.

وأن باب الله لا يُغلق في وجه التائب.

سؤال الملائكة: طلب الحكمة لا اعتراض الحكم

قالت الملائكة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾.

لم يكن سؤالهم اعتراضًا على أمر الله، فهم ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ**﴾، وإنما كان طلبًا لفهم الحكمة. علموا بطريقٍ علَّمهم الله إياه أن هذا المخلوق ستكون له إرادة يختار بها، وأن تلك الإرادة يمكن أن تنحرف فتنتج الفساد والدم.

ولم يذكروا خطأً صغيرًا، بل ذكروا أقسى ما يمكن أن يقع في الأرض: إفساد نظام الحياة، وسفك الدم الذي لا يستطيع صاحبه أن يسترده بعد إراقته.

لقد رأت الملائكة الجانب المخيف من الحرية الإنسانية. فالمخلوق الذي يستطيع أن يختار الخير يستطيع أن يختار الشر، والذي يملك قدرة البناء يملك قدرة الهدم. وكلما اتسعت دائرة اختياره، تعاظم أثر انحرافه.

إن الحيوان المفترس يقتل بدافع غريزته، لكنه لا يبني فلسفةً تبرر القتل، ولا يصنع آلةً تبيد آلاف الناس، ولا يرفع فوق المذبحة شعار الفضيلة. أما الإنسان فقد يضيف إلى الجريمة جريمةً أخرى: أن يمنحها اسم العدالة.

ولهذا كان سؤال الملائكة ثقيلًا: ما الحكمة في خلق مَن يحمل هذا الاحتمال المرعب؟

ثم قالوا: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾.

لسنا إلا في طاعتك، ننزهك عما لا يليق بك، ونعبدك بلا فتور. فإذا كانت الغاية العبادة، فهي قائمة بنا من غير فساد ولا دماء.

فجاء الجواب الإلهي: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

لم ينفِ سبحانه ما ذكرته الملائكة؛ فالإنسان سيفسد ويسفك الدماء فعلًا. لكن علم الملائكة أحاط بجانب من الصورة، وعلم الله أحاط بها كلها.

نعم، سيخرج من ذرية آدم قاتل يرفع الحجر على أخيه، وطاغية يقول: أنا ربكم الأعلى، وجبابرة يبنون ملكهم من عظام الضعفاء. لكن سيخرج منهم أيضًا نبي يلقى في النار فلا يتزحزح توحيده، وآخر يقف أمام البحر وخلفه فرعون فيقول: ﴿**كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾، وثالث يؤذيه قومه فيقول: «اللهم اهد قومي».

سيكون في الأرض دم، لكن سيكون فيها أيضًا من يبذل دمه كي لا يُعبد غير الله. سيكون فيها ظلم، لكن سيكون فيها من يقف في وجه الظلم ولو وقف وحده. سيكون فيها هوى، لكن سيكون فيها من يخالف هواه في غرفة مغلقة لأن الله يراه.

الملائكة تطيع بلا شهوة تنازعها، أما الإنسان فيطيع وهو يحمل داخله قدرة العصيان. وحين ينتصر على شهوته، لا يكون قد تحرك في طريق خالٍ، بل يكون قد شق الطريق وسط مقاومة نفسه.

هناك جمال لا يظهر إلا مع إمكان القبح، وشجاعة لا تظهر إلا عند وجود الخوف، وأمانة لا يظهر معناها إلا حين تكون الخيانة ممكنة، وتوبة لا تولد إلا بعد زلة.

﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ ليست جوابًا في هذا المشهد وحده؛ إنها قاعدة يقف عندها العقل كلما رأى طرفًا من الحكمة وغاب عنه تمامها. فليس كل ما خفيت علينا حكمته خاليًا من الحكمة، وليس قصور الرؤية دليلًا على اضطراب التدبير.

إننا نقرأ سطرًا واحدًا من كتاب القدر، ثم نريد أن نحاكم به الكتاب كله. أما الله فيعلم البدء والمآل، والظاهر والباطن، وما كان وما سيكون.

قد ترى في نفسك ضعفًا فتظن أنك لا تصلح لخير، والله يعلم أن هذا الضعف نفسه قد يفتح فيك باب الافتقار الذي يقودك إليه. وقد ترى محنةً فلا ترى منها إلا ما هدمت، بينما يكون في غيبها شيء تبنيه في موضع أعمق.

لا يعني هذا أن الشر يصبح خيرًا، ولا أن الظلم يفقد قبحه؛ وإنما يعني أن حكمة الله أوسع من الشر، وأنه سبحانه لا يعجزه أن يستخرج من أرض الألم ثمرًا لم يكن الإنسان يرى بذوره.

المعرفة: أول مؤهلات الاستخلاف

﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾

بعد إعلان الخلافة، لم يمنح الله آدم سيفًا، ولم يعرض قوة جسده، بل علَّمه الأسماء.

إن أول مؤهلات الإنسان لمهمته كان **العلم**.

بالأسماء خرجت الأشياء من الغموض إلى التعيين، واستطاع الإنسان أن يميّز بينها، ويحفظ صورها في وعيه، ويتواصل بشأنها، ويبني من المفردات عوالم من المعاني.

الاسم ليس صوتًا يلتصق بالشيء؛ إنه مفتاح لفهمه، واستدعائه في الذهن، ووضعه داخل شبكة المعرفة. ما لا يستطيع الإنسان تسميته يظل في وعيه غامضًا، فإذا منحه اسمًا بدأ يقترب من إدراكه.

وباللغة استطاع أن يحمل تجربة الماضي إلى المستقبل، وأن يورث جيلٌ جيلًا ما عرفه. يموت الأفراد، لكن معارفهم لا تموت كلها؛ لأن الكلمات تحمل شيئًا من أرواحهم عبر الزمن.

إن الحيوان يبدأ حياته تقريبًا من النقطة التي بدأ منها سابقوه، أما الإنسان فيولد فيجد ذاكرة أجيال كاملة تنتظره في اللغة. يفتح كتابًا في ساعة، فيدخل عقل رجل عاش خمسين عامًا في طلب المعرفة.

وهكذا كانت الكلمات جزءًا من سر الاستخلاف.

لكن الآية تقول: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ**﴾؛ فالعلم في أصله منحة قبل أن يكون إنجازًا. للإنسان سعيه واكتسابه، لكنه لم يخلق عقله، ولا منح نفسه قابلية التعلم، ولا أنشأ الأشياء التي يدرسها، ولا القوانين التي يكتشفها.

كل عالم يقف على أرض من النعم لم يصنعها.

وإذا نسي العلم مصدره انقلب من طريق إلى الخشية إلى أداة للاستعلاء. فالإنسان قد يعرف أسماء الأشياء ثم ينسى اسم المنعم، ويفكك أسرار المادة ثم يعجز عن معرفة غاية وجوده، ويبلغ أعماق الفضاء بينما يضيع الطريق إلى قلبه.

ليست أزمة الإنسان في قلة المعلومات وحدها؛ فقد تتضخم المعرفة التقنية، ويظل الضمير صغيرًا. وقد يعرف المرء كيف يصنع القوة دون أن يعرف متى ينبغي ألا يستخدمها.

العلم يؤهل الإنسان للاستخلاف، لكن الوحي يهديه إلى أخلاق الاستخلاف.

امتحان يكشف حدود المعرفة

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

لم يكن السؤال لتعجيز الملائكة على وجه العبث، وإنما لإظهار الجانب الذي لم يحيطوا به من حكمة خلق آدم. لقد رأوا إمكانية الفساد، فأراهم الله قابلية المعرفة التي سيكون بها العمران والهداية والاختيار.

وهنا تتعلم الإنسانية أن بعض الإجابات لا تقدم في صورة تفسير مجرد، بل تُكشف في مشهد. قال سبحانه أولًا: **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**، ثم أظهر لهم طرفًا مما لم يعلموا.

إن العلم الإلهي ليس مجرد علم بوقوع الأشياء، بل علم بحقائقها ومقاديرها ومواضعها في الحكمة. وما يبدو زائدًا في نظر الإنسان قد يكون في موضعه جزءًا من نظام لا تراه عين اللحظة.

مقام الملائكة: العلم يبدأ من الاعتراف

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

كان يمكن لسؤال لا يعرفون جوابه أن يكون موضع حرج، لكنه صار موضع عبادة.

بدأوا بقولهم: **﴿سُبْحَانَكَ﴾**؛ فنزهوا الله عن أن يكون في فعله نقص، قبل أن يعرفوا وجه الحكمة تفصيلًا. إنهم يثقون بكمال الله حين تقصر معرفتهم، ولا يجعلون حدود علمهم حدودًا لحكمته.

ثم قالوا: **﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾**.

هذه ليست عبارة نقص، بل هي كمال العبودية في مقام العلم. فالجاهل الحقيقي ليس من يجهل، وإنما من يجهل أنه يجهل. أما الاعتراف بالحد فهو بداية كل معرفة ناضجة.

العلم الذي لا يزيد صاحبه تواضعًا قد كشف له الأشياء وحجبه عن نفسه. وكلما اتسعت معرفة الإنسان الصادقة اتسع معها إدراكه لما لا يعرف.

ولكن النفس تحب أن تبدو عالمة؛ فقد تفضّل جوابًا خاطئًا على اعتراف صادق، وتستحيي من كلمة «لا أدري»، مع أن «لا أدري» قد تكون في موضعها من أشرف ما يقوله العالم.

قالت الملائكة في الملأ الأعلى: ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا**﴾، ولم ينقص ذلك من مقامها؛ بل خلد القرآن صدقها إلى قيام الساعة.

ثم ردوا العلم والحكمة إلى صاحبهما: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.

عليمٌ لا يغيب عن علمه شيء، حكيمٌ لا يقع فعله إلا في موضعه اللائق. فقد يعلم الإنسان الشيء ولا يحسن وضعه، وقد يريد الحكمة لكنه يجهل العواقب. أما علم الله فمقترن بحكمته، وحكمته قائمة على علمه الكامل.

ولهذا يكون التسليم لله عقلًا في أعلى درجاته، لا إلغاءً للعقل؛ لأن العقل يدرك أن علمه جزئي، وأن علم ربه كامل.

آدم ينبئهم: تكريم المعلَّم لا استقلال العالم

﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾

نادى الله آدم باسمه، وأمره أن يُظهر ما تعلَّمه. وهنا يشهد الملأ الأعلى أول إعلان عن قدرة الإنسان المعرفية.

لكن آدم لم يأتِ بالمعرفة من ذاته؛ لقد أنبأهم بما علَّمه الله. وهذا الفارق هو الذي يحفظ العلم من التحول إلى صنم. للإنسان فضل التعلُّم والعمل، لكن أصل النعمة من الله.

كلما قال الإنسان: عرفتُ، ينبغي أن يسمع في أعماقه قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ**﴾.

ليس العالم خالق الحقيقة؛ هو كاشف لبعض ما أودع الله في الوجود. ونواميس الكون لا تبدأ لحظة يكتشفها الإنسان؛ كانت تعمل قبل أن يمنحها اسمه، وستظل تعمل بعد رحيله.

ثم قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾.

إن قصة آدم تبدأ بالعلم؛ علم الله المحيط، وتعليم آدم، واعتراف الملائكة بحدود علمها. كأن الاستخلاف كله يقوم على وضع المعرفة في مراتبها الصحيحة:

الله هو العليم علمًا مطلقًا.

والإنسان متعلم علمًا محدودًا.

والسلامة أن يعرف الإنسان دون أن ينسى المسافة بين علمه وعلم ربه.

﴿**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾.

علم الله لا يقف عند الأسماء الظاهرة؛ إنه يعلم الخفايا التي لم تغادر الصدور. وهنا يلوح في خلفية المشهد كائن آخر كان يكتم في نفسه بذرة الكِبر، وستظهر حين يأتي الأمر بالسجود.

فقد يختبئ المرض في القلب زمنًا، ثم يأتي التكليف فيكشفه. الأوامر لا تنشئ دائمًا ما في النفوس؛ إنها تُظهره. لم يصنع أمر السجود كِبر إبليس، بل أخرج الكِبر المستتر إلى العلن.

السجود الذي كشف حقيقة الجميع

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

جاء الأمر بالسجود، فاستجابت الملائكة. وكان سجودهم طاعةً لله وتكريمًا لآدم، لا عبادةً لآدم؛ فالعبادة لا تكون إلا لله.

ولكن إبليس أبى.

لم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن، إلا أنه كان معهم داخلًا في الخطاب، فكشف الأمر ما أخفاه طول العبادة من مرض.

وهنا تظهر حقيقة مزلزلة: قد يكثر العمل الظاهر، ويبقى في القلب أصل فاسد ينتظر لحظة الامتحان. لم تسقط عبادة إبليس لقلة عددها، بل لأن الكِبر كان يسكن تحتها. وحين تعارض الأمر مع تعظيمه لنفسه، اختار نفسه.

قال تعالى: **﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾**.

الإباء حركة الرفض، والاستكبار باطنها النفسي. رفض الجسد لأن القلب رأى نفسه أكبر من الطاعة. فالتمرد يبدأ من تصور فاسد للذات قبل أن يظهر في الفعل.

ولم يقل: كان من الجاهلين؛ فقد عرف الآمر وسمع الأمر وفهمه. أزمته لم تكن نقص الدليل، بل فساد الإرادة. لقد كان عصيانه عصيان عالم لم ينفعه علمه؛ لأن العلم لم يتحول في داخله إلى تواضع.

الكِبر لا يمنع الإنسان من رؤية الحقيقة دائمًا، لكنه يمنعه من الانحناء لها.

وإبليس لم يرفض وجود الله، بل رفض مقتضى العبودية. كان يعرف ربه، لكنه أراد علاقةً مع الله يحتفظ فيها بحق الاعتراض حين لا يوافق الأمر تصوره عن نفسه.

وهذا هو جوهر التمرد: أن يطيع الإنسان ما دام الأمر يمر عبر هواه، فإذا خالفه جعل هواه حاكمًا على الوحي.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

كشف الأمر ما استقر في باطنه، فسقط من مقام العبادة إلى هاوية الكفر. وبين الموضعين كلمة واحدة لم يستطع أن يقولها بالفعل: سمعنا وأطعنا.

كان الامتحان سجدةً واحدة، لكن السجدة كانت تحمل مصيرًا كاملًا؛ لأن قيمة العمل لا تقاس بحجمه الظاهر، بل بحقيقة الموقف الذي يكشفه.

قد يكون بين الإنسان والنجاة خطوة قصيرة يمنعه الكِبر من قطعها، وقد يكون بينه وبين السقوط كلمة يأنف أن يتراجع عنها.

الجنة: وفرة مباحة وحدٌّ واحد

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

بعد مشهد التكريم يأتي مشهد السكن. لم يُخلق آدم للوحدة؛ بل جعل الله معه زوجه، لتبدأ الإنسانية من علاقة وسكن، لا من فرد منقطع.

﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

في لفظ السكن راحة واستقرار وألفة. ليست الجنة مكانًا فحسب، بل حالة من الطمأنينة لم تكن قد دخلتها مخاوف الأرض.

ثم جاء الإذن واسعًا: **﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾**.

الجنة كلها مباحة، والرزق فيها رغد، والاختيار واسع. وفي مقابل هذا الفضاء الممتد كان هناك نهي واحد: **﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾**.

المباح كثير، والمحظور محدود؛ لكن النفس قد تنسى ألف باب مفتوح لأنها توقفت أمام باب واحد مغلق.

وهذه حيلة تتكرر في تاريخ الإنسان: يضخم الشيطان الشيء الممنوع حتى يغطي به مساحة النعم كلها. فلا يعود الإنسان يرى ما أذن الله له فيه، بل يحدق فيما نُهي عنه، كأن سعادته كلها اختبأت وراء ذلك الحد.

إن الشريعة في أصلها ليست سياجًا من المحرمات يضيق على الحياة؛ المباح فيها أوسع، والطيبات أكثر. غير أن العين المأسورة بالهوى لا تعدُّ ما تملك، بل تنشغل بما مُنعت منه.

قال: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا**﴾، ولم يقل: لا تأكلا فقط. فالوقاية القرآنية لا تنتظر وقوع الإنسان في قلب المعصية، بل تمنعه من الاقتراب من مقدماتها. لأن الخطايا الكبيرة قلما تبدأ كبيرة؛ تبدأ بخطوة يمكن الرجوع عنها، ثم تسحب وراءها خطوةً أخرى.

من اقترب طويلًا من الحافة لا يملك ضمان ألا تزل قدمه.

ثم قال: ﴿**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾.

المعصية ظلم قبل أن تكون مخالفة مجردة؛ ظلم للنفس حين يخرج بها صاحبها من موضع السلامة إلى موضع الألم. والله غني عن طاعتنا، فلا تضره معصيتنا، لكن سهام الذنب ترتد إلى صدورنا.

الزلة: حين استدرج العدو الإنسان من موضع النعمة

﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾

الزلة لا تبدأ دائمًا برغبة صريحة في العصيان. قد تبدأ بإعادة وصف المعصية، أو بتزيين نتيجتها، أو بإضعاف الشعور بالخطر. والشيطان لا يقول للإنسان في كل مرة: اعصِ ربك؛ فقد تنفر الفطرة من العبارة. لكنه يبدل اسم الفعل، ويقرب الوهم، ويخفي النهاية.

لم يخلق الشيطان في آدم إرادة المعصية، ولم يجبره عليها؛ إنما وسوس وزيّن، فوقع آدم باختياره في الزلة. ولذلك بقي التكليف مسؤولية، وبقي الذنب ذنبًا، وبقي باب التوبة مفتوحًا.

قال: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا**﴾؛ فالإنسان المؤمن قد يزل، والزلة غير الإصرار. لا تعني زلته أن طريقه كله كان كذبًا، لكنها تكشف أنه مهما ارتفع يظل محتاجًا إلى حفظ الله.

والعدو لم يكتف بأن يجعلهما يذوقان من الشجرة؛ غايته الأبعد كانت: ﴿**فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾.

هذه طبيعة المعصية: تعد الإنسان بلذة الفعل، وتخفي عنه ثمن الخروج. تعرض له اللحظة، ولا تعرض ما بعدها. يريه الشيطان الشجرة، ولا يريه الجنة التي قد يفقدها.

كل معصية لها ظاهر قريب وباطن بعيد. ظاهرها لحظة شهوة، وباطنها نقص في نور القلب، ووحشة بين العبد وربه، وتصدع لا يراه الناس.

إن الشيطان تاجر بارع في إخفاء الثمن. يضع اللذة في واجهة الصفقة، ويرسل الفاتورة بعد انقضائها.

آدم وإبليس: معصيتان ومصيران

في المشهد معصية إبليس وزلة آدم. كلاهما خالف الأمر، لكن الطريق افترق بعد المخالفة.

إبليس عصى فبرر.

وآدم زلَّ فاعترف.

إبليس نظر إلى نفسه بعين التعظيم، وآدم نظر إلى نفسه بعين التقصير.

إبليس جعل خطأه قضيةً يدافع عنها، وآدم جعل خطأه جرحًا يعود به إلى ربه.

ليست العصمة من الذنب هي الفارق الوحيد بين أهل الهدى وأهل الضلال؛ بل الفارق الأكبر ما يصنعه الإنسان بعد أن يذنب. فقد يكون الذنب بابًا إلى كِبر أشد، وقد يصير — إذا تبعه انكسار صادق وتوبة — بابًا إلى معرفة العبودية.

إبليس قال في موضع آخر: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ**﴾؛ فكانت «أنا» جدارًا حجبه عن التوبة.

أما آدم فقال مع زوجه: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**﴾؛ فكانت «ربنا» باب العودة.

حين يكون مركز الجملة «أنا» يصعب الاعتراف، وحين يكون مركزها «ربنا» تهون على النفس مكابرتها.

الهبوط: بدء المعركة على الأرض

﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾

هبط آدم وزوجه إلى الأرض، ومعهما الشيطان عدوًا. وهكذا بدأت الحياة الإنسانية لا في فضاء محايد، بل في ميدان صراع أخلاقي.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أصل العداوة بين الإنسان والشيطان، ثم تتسرب وساوس الشيطان إلى علاقات البشر، فيصير بعضهم عدوًا لبعض حين يطيعون دوافع الحسد والطمع والاستكبار.

لكن الأرض ليست ساحة شر محض؛ فيها المستقر والمتاع، وفيها النبوة والصلاة والعمران، وفي ترابها تنبت أعمال تصل ثمراتها إلى الجنة. إنها موضع اختبار، لا موضع لعن مطلق.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾.

استقرار، لكنه ليس خلودًا. نبني البيوت كأننا سنبقى، ثم يمر الموت من أبوابها فيذكرنا أن كل استقرار هنا مؤقت.

﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

المتاع ما يُنتفع به ثم يفارق صاحبه. ليست الدنيا باطلًا؛ فالقرآن سماها متاعًا، وفيها نعم حقيقية. لكن الخطأ أن نطلب من المتاع وظيفة الخلود، وأن نحمّله رجاءً لا يطيقه.

كل شيء فيها يحمل في داخله عبارة: **إلى حين**.

الصحة إلى حين، والقوة إلى حين، والمال إلى حين، واللقاء إلى حين. وليس المقصود أن نزهد في النعمة حتى لا نشعر بها، بل أن نستعملها دون أن نخدع أنفسنا بطبيعتها.

الحكيم لا يرفض الظل لأنه زائل، لكنه لا يبني مصيره على ظل يتحرك.

الكلمات التي أنقذت الإنسان

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

ما أجمل فعل **﴿فَتَلَقَّىٰ﴾**!

لم تمر الكلمات على آدم مرورًا، بل استقبلها بقلبه، وأخذها كما يتلقى الغريق حبل النجاة. وحين عرف جرحه عرف قيمة الدواء.

والأعجب أن الكلمات جاءت **﴿مِنْ رَبِّهِ﴾**. الذي عصاه آدم هو الذي علّمه كيف يعود إليه. لم يتركه يتخبط في اختراع طريق التوبة، بل فتح له الباب، ودلَّه على المفتاح، ثم وفّقه للدخول.

يا لها من ربوبية رحيمة: يعلّم العبد الاعتذار الذي يقبله منه!

إن الله لم يجعل الذنب نهاية قصة الإنسان. لم يقل له: لما زللتَ سقطتَ إلى الأبد؛ بل علّمه أن الطريق إلى الله قد يمر بعد الذنب عبر دمعة صادقة وقلب منكسر.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

توبة العبد رجوعه إلى الله، وتوبة الله عليه قبوله وإكرامه بالرجوع. وقبل أن ينهض العبد إلى التوبة تكون رحمة الله قد فتحت له إمكانها.

ثم جاء الاسمان: ﴿**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾.

لم يقل: قابل التوبة فقط، بل **التواب**؛ كثير التوبة على عباده، يفتح الباب كلما صدقوا في العودة. فالعبد يتكرر منه الضعف، وتفيض من ربه المغفرة.

والرحمة هنا لا تلغي المسؤولية؛ آدم نزل إلى الأرض وتحمل تبعة الزلة، لكنه لم ينزل مطرودًا من رحمة الله. قد يبقى للخطأ أثر في الحياة، مع أن الله قبل التوبة. فالتوبة تمحو الذنب، لكنها لا تعني دائمًا إلغاء كل نتيجة دنيوية ترتبت عليه.

وهذا من نضج الإيمان: أن يقبل الإنسان مغفرة الله، ثم يتحمل بإيمان ما بقي من آثار خطئه، دون أن يحول الندم إلى يأس.

التوبة: ميلاد ثانٍ للإنسان

لم يكن آدم بعد التوبة هو آدم قبل الزلة. لقد عرف الآن عداوة الشيطان، وضعف إرادته، وحاجته إلى ربه. وهذه المعرفة لم يتلقها بوصفها أسماءً فقط؛ بل عاشها تجربةً في كيانه.

هناك علوم نعرفها بالعقل، وعلوم لا نعرف حقيقتها حتى تمر في جراحنا.

كان آدم يعلم أن الله نهاه، لكنه بعد الزلة عرف مرارة البعد وحلاوة الرجوع. عرف أن الجنة لا تحفظها النعمة وحدها، بل يحفظها الامتثال. وعرف أن العدو لا يأتيه دائمًا بوجه مخيف، بل قد يقترب منه في صورة ناصح.

وهكذا نزل إلى الأرض مكسورًا، لكن انكساره لم يكن هزيمةً خالصة؛ كان يحمل كلمات التوبة. نزل وفي ذاكرته الشجرة، لكن في قلبه معرفة الطريق إلى الله.

إن الإنسان لم يبدأ رحلته معصومًا من الضعف، لكنه بدأها مزودًا بالتوبة. وهذه من أعظم حقائق التصور القرآني: نحن أبناء آدم الذي زل، نعم؛ لكننا أيضًا أبناء آدم الذي تاب.

فمن ورث الخطيئة ولم يرث طريق التوبة لم يقرأ القصة كاملة.

الهداية التي تصاحب الهبوط

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

تكرر أمر الهبوط، لكن التكرار جاء هنا ليكشف ما يصاحب الإنسان في الأرض. لم ينزل وحده إلى ظلمة التجربة؛ نزل ومعه وعد من السماء:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾.

الهداية ليست إنتاجًا أرضيًا خالصًا. العقل يبحث ويدرك، لكنه يحتاج إلى خبر من الله يعرّفه بما وراء قدرته: من أين جاء؟ ولماذا يعيش؟ وإلى أين يصير؟ وما الذي يرضي خالقه؟

يمكن للإنسان بعقله أن يكتشف وسائل كثيرة للحياة، لكن الوسيلة لا تمنحه الغاية. قد يعرف كيف يطيل العمر دون أن يعرف لماذا يعيش، ويعرف كيف يشطر الذرة دون أن يعرف كيف يمنع الكراهية من شطر المجتمع.

الوحي لا يأتي ليعطل العقل، بل ليمنحه قبلته.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾.

لم يقل: فمن عرف هداي، أو حفظ هداي، أو تحدث عنها؛ بل قال: **﴿تَبِعَ﴾**. فالهداية متقدمة، وعلى الإنسان أن يسير وراءها. لا يضعها خلفه لتبرر خطاه، بل يضعها أمامه لتحددها.

إن الفرق بين من يتبع الوحي ومن يستخدم الوحي فرق عظيم. الأول يغير موقفه إذا خالف النص، والثاني يغير دلالة النص إذا خالفت موقفه.

ثم جاءت الثمرة: **﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

الخوف ألم المستقبل، والحزن ألم الماضي. ومن تبع هدى الله أمّنه الله من الجهتين في المآل؛ فلا المستقبل يفزعه، ولا الماضي يسجنه.

وليس المعنى أن المؤمن لا يشعر بخوف أو حزن في الدنيا؛ فالأنبياء خافوا وحزنوا، وهذه مشاعر بشرية. لكنها لا تتحول إلى سلطة نهائية تكسر صلته بالله. يخاف وقلبه يعلم أن الأمر بيد الله، ويحزن دون أن ييأس من رحمته.

الهداية لا تلغي العاصفة، لكنها تمنح السفينة اتجاهًا.

الطريق الآخر: تكذيب يعقبه خلود

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

في مقابل الاتباع كفرٌ وتكذيب. لم يكتفوا بعدم السير، بل ردوا الآيات وأنكروا دلالتها.

وقوله: **﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾** يصور ملازمةً انتهت إليها اختيارات طويلة. فالصحبة تنشأ من طول القرب، وكأنهم ظلوا في الدنيا يصاحبون أسباب النار حتى صارت النار صاحبتهم في الآخرة.

لم يكن المصير مفصولًا عن الطريق؛ الآخرة تكشف الاسم الكامل لما اختاره الإنسان في الدنيا.

وهكذا تنتهي قصة آدم في سورة البقرة بطريقين مفتوحين أمام ذريته:

هدى يأتي من الله، فمن تبعه أمِن في المصير.

وآيات يكذب بها الإنسان، فيصير إلى النار.

بين الشجرة والنار تمتد قصة الاختيار كلها. وكما كان أمام آدم حدٌّ إلهي وعدو يزين له تجاوزه، سيكون أمام كل إنسان حدود وأعداء وشهوات. وكما كانت الكلمات باب عودة آدم، سيبقى الوحي باب عودة ذريته.

جرحٌ لم يتحول إلى لعنة

إن سورة البقرة لا تقدم قصة آدم لتزرع في الإنسان احتقار ذاته، بل لتعرّفه بحقيقته كاملة.

هو مخلوق مكرم بالعلم، مؤهل للاستخلاف، لكنه قابل للزلة.

فيه استعداد للصعود حتى تتلقى الملائكة منه العلم الذي علّمه الله، وفيه ضعف قد يجعله يترك الجنة من أجل شجرة.

هذه الازدواجية ليست دعوة إلى اليأس، بل إلى اليقظة. فلا يحق للإنسان أن يحتقر نفسه؛ لأن الله كرمه وعلّمه واستخلفه. ولا يحق له أن يأمنها؛ لأنها ضعفت في موضع النعيم الكامل.

بين التكريم والتحذير يولد التوازن.

وحين يخطئ الإنسان، لا ينبغي أن يقلد إبليس فيضيف إلى الذنب استكبار التبرير. باب آدم هو الاعتراف:

لقد ظلمت نفسي.

لم أكن ضحيةً كاملة للظروف.

لم يجبرني الشيطان، وإن وسوس لي.

لم يكن الأمر غامضًا، وإن زيَّن الهوى مخالفته.

أنا محتاج إلى رحمة ربي.

هذه الكلمات لا تسحق الإنسان، بل تحرره من أثقل سجن: سجن الدفاع الدائم عن الخطأ. فالاعتراف الصادق ليس هزيمة أمام النفس، بل أول انتصار عليها.

إن التوبة لا تغير سجل الماضي فحسب؛ إنها تعيد بناء الإنسان الذي صنع الماضي. ومن هنا كانت رحمة الله أوسع من أن تكتفي بمحو الذنب؛ إنها تفتح للعبد بعد سقوطه طريقًا قد يصعد فيه أكثر مما كان قبل أن يسقط، إذا أورثه الذنب تواضعًا وخشيةً وافتقارًا.

لكن القصة لا تنتهي عند آدم.

فبعد أن عرّفتنا السورة بالإنسان الأول الذي زلَّ ثم تاب، ستعرض علينا أمةً تلقت من الله كلمات كثيرة، ونعمًا متتابعة، ومواثيق مؤكدة. أمةً لم تُبتلَ بشجرة واحدة، بل بسلسلة طويلة من الأوامر والآيات.

وسيظهر الفارق بين من يتلقى الكلمات ليعود، ومن يتلقها ثم يقسو قلبه.

سيبدأ النداء: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾.

وهنا ينتقل الكتاب من قصة الفرد الأول إلى ذاكرة الأمة؛ من زلة وقعت عند شجرة إلى تاريخ طويل من نقض العهود.

وسنرى أن النعمة، إذا لم يحرسها الشكر، قد تتحول في قلب صاحبها من جسر إلى الله إلى حجاب عنه. وأن الإنسان قد يتذكر تفاصيل ما أُعطي، ثم ينسى لماذا أُعطي.

من هنا يبدأ فصل بني إسرائيل:

حين تصبح النعمة شاهدًا على صاحبها.

الفصل الخامس

بنو إسرائيل: حين تتحول النعمة إلى وثيقة اتهام

النجاة ليست اسمًا تحتكره جماعة

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

بعد عرض تاريخ طويل من النعم والنقض، تأتي هذه الآية لتفصل بين **الاسم والحقيقة**، وبين الانتماء الموروث والعمل الذي يصدقه.

فليست النجاة ملكًا عرقيًا، ولا ميراثًا تنتقل وثيقته من الآباء إلى الأبناء، ولا لقبًا يُعلق على الإنسان فيغنيه عن الوفاء بالعهد. إن ميزان الله لا يحابي الأسماء، وإنما ينظر إلى حقيقة الإيمان وصدق العمل.

كانت كل طائفة تستطيع أن تبني حول نفسها سورًا من الدعوى، وأن تتخيل أن مجرد انتسابها إلى نبي أو كتاب يجعلها أقرب إلى الله من سائر الناس. فجاء القرآن ليكسر هذا الوهم: إن الشرف ليس في اللافتة التي تقف تحتها، بل في الطريق الذي تسلكه.

والمقصود بمن آمن من تلك الأمم: مَن صدق بالله وباليوم الآخر واتبع رسول زمانه قبل بعثة محمد ﷺ؛ أما بعد بعثته، فالإيمان الصادق بالرسل يقتضي

الإيمان بخاتمهم واتباع ما جاء به، إذ لا يستقيم أن يؤمن المرء بالله ثم يرد رسولًا ثبت أنه أرسله الله.

فالرسل لا يتنافسون على أتباع متفرقين، بل يدعون إلى رب واحد. ومَن صدق موسى حقًا لم يجد في رسالة عيسى عليه السلام ما يناقض أصل التوحيد، ومن صدق عيسى حقًا كان أولى الناس بتصديق محمد ﷺ حين جاء مصدقًا لأصل الوحي ومهيمنًا عليه.

إن الإيمان ليس انتقاءً بين رسل الله؛ لأن رفض رسول واحد بعد قيام الحجة رفض للمرسِل الذي بعثه.

ثم تضع الآية الأعمدة الثلاثة للنجاة:

﴿**آمَنَ بِاللَّهِ**﴾: فاستقام مركز الوجود في قلبه.

﴿**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾: فصار للحياة حساب وغاية.

﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾: فتحول الإيمان من دعوى باطنة إلى أثر ظاهر.

وهكذا لا يبقى الإيمان فكرةً معلقة، ولا يتحول العمل إلى حركة بلا وجهة. إيمان يصحح القصد، وآخرة تصحح الميزان، وعمل يصدق ما استقر في القلب.

ثم جاء الوعد: ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾.

لم يقل: عند التاريخ، فقد ينسى التاريخ الصالحين. ولم يقل: عند الناس، فقد يسيئون فهمهم. إنما أجرهم عند ربهم؛ حيث لا تضيع نية، ولا تُمحى حسنة لأنها لم تجد من يصفق لها.

وفي قوله: ﴿**عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ طمأنينة خاصة؛ فالأجر محفوظ عند من رباهم بنعمته، وعلم ضعفهم، ورأى جهادهم الذي خفي عن الخلق.

﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

وهي النتيجة التي وعد الله بها أتباع الهدى في قصة آدم. كأن الآية تعيدنا إلى الأصل الأول: الأسماء تتغير، والأمم تتعاقب، لكن قانون النجاة واحد؛ هدى من الله، واتباع صادق، ثم أمان من الخوف والحزن.

الجبل الذي ارتفع فوق الرؤوس

﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾

لم يكن عهدهم كلمةً عابرة. أخذ الله عليهم ميثاقًا مؤكدًا، ورفع فوقهم جبل الطور حين امتنعوا من قبول ما جاءهم به موسى؛ حتى صار العهد ماثلًا فوق الرؤوس في مشهد لا يُنسى.

كان الكتاب في أيديهم، والجبل فوقهم، والتكليف أمامهم: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ**﴾.

لا يُحمل الوحي بأصابع رخوة، ولا تؤخذ الرسالة بعقل متردد ينتظر أن يرى مقدار ما يوافق هواه. الأخذ بالقوة هو أخذ الجد والعزم والالتزام، لا قوة البطش والإكراه.

فالوحي ثقيل بمعنى الأمانة، ومن حمله بلا عزيمة أسقطه عند أول ضغط. إن الحقيقة قد تكون واضحة، لكن الثبات عليها يحتاج قوةً نفسية تقاوم رغبة الراحة وخوف الخسارة.

هناك فرق بين أن تمسك الكتاب، وأن يمسك الكتاب بقرارك.

قد يكون المصحف في بيت الإنسان، لكن المال هو الذي يأمره وينهاه. وقد يحفظ النصوص، لكن ضغط الجماعة أقوى في نفسه من سلطانها. حينئذ يكون قد أخذ حروف الكتاب ولم يأخذه بقوة.

ثم قال سبحانه: ﴿**وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ**﴾.

الأخذ بالقوة يحفظ الموقف عند التلقي، والذكر يحفظه من التآكل مع الزمن. فالمعاني الكبيرة لا تُهزم دائمًا بمواجهة واحدة؛ قد تُهزم ببطء حين تتراجع من مركز الوعي إلى أطراف الذاكرة.

يبدأ العهد نارًا في القلب، ثم يتحول إلى قصة قديمة، ثم إلى مناسبة احتفالية، ثم يبقى منه الاسم ويغيب أثره.

لذلك يحتاج الإيمان إلى ذكر متجدد، لا لأن الحقيقة تتغير، بل لأن القلب يتغير.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

مرة أخرى تظهر التقوى غايةً للأخذ بالكتاب. فالكتاب لم ينزل ليكون أثرًا مقدسًا تُزين به الرفوف، بل ليصنع داخل الإنسان حارسًا من نور.

إذا لم يمنعك الكتاب من الخيانة حين تقدر، ومن الظلم حين تغضب، ومن الكذب حين يحقق مصلحتك، فما الذي أخذته منه حقًا؟

حين جاء الإعراض بعد الميثاق

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

إن عبارة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ تحمل ثقل الاتهام كله.

توليتم لا قبل البيان، بل بعده.

ولا قبل الميثاق، بل بعد توكيده.

ولا قبل رؤية الآية، بل بعد أن ارتفع الطور فوقكم.

فالذنب يقبح بمقدار ما سبقه من نور. وقد يقع الفعل نفسه من رجلين، لكن مسؤولية العالم أشد؛ لأن الطريق كان في عينه أوضح.

والتولي ليس جهلًا ساكنًا، بل حركة ابتعاد بعد مواجهة الحق. عرف الإنسان الجهة ثم أعطاها ظهره.

ومع ذلك قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾.

كلما بدا أن السجل قد أُغلق، ظهرت الرحمة من بين السطور. لم ينجوا بذكائهم، ولم تمنعهم أعمالهم من السقوط، وإنما تداركهم فضل الله.

الفضل عطاء فوق الاستحقاق، والرحمة نجاة من آثار التقصير. والإنسان يعيش بينهما أكثر مما يشعر. فكم من ذنب كان جديرًا أن يغير حياته، فستره الله! وكم من انحراف كان يمكن أن يبعده إلى نهاية الطريق، فرده لطف خفي!

إننا لا نقف لأن أقدامنا قوية وحدها؛ بل لأن رحمة الله لم تتركنا لما صنعت أيدينا.

﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذا الاعتراف ينبغي أن يطرد من القلب كِبر الطاعة. حتى الصالح لا يدخل على الله مستندًا إلى عمله كأنه ثمن مستقل للنجاة؛ يعمل، ويرجو، ويعلم أن تمام النجاة فضل ورحمة.

أصحاب السبت: حين بقي شكل الطاعة ومات معناها

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾

كان السبت يومًا حُرِّم عليهم الصيد فيه امتحانًا لطاعتهم. وكانت الحيتان تظهر لهم يوم السبت ظاهرةً قريبة، وتغيب في غيره؛ حتى صار الحد الإلهي قائمًا عند موضع الشهوة.

فالامتحان لا يكون فيما لا تريده النفس، بل فيما تحبه حين يقف بينها وبينه أمر الله.

لم ينكروا الحكم صراحةً، ولم يقولوا: لن نطيع. لجؤوا إلى الحيلة؛ نصبوا الشباك أو هيؤوا أسباب الصيد قبل السبت، ثم أخذوا الحيتان بعده، ليوهموا أنفسهم أنهم لم يصطادوا في اليوم المحرم.

وهنا يظهر لون شديد الخفاء من العصيان: **طاعة اللفظ وخيانة المقصد**.

لقد أبقوا ظاهر اليوم، وأفرغوا النهي من غايته. وكأنهم ظنوا أن الله الذي يعلم خائنة الأعين يمكن أن تمر عليه حيلة تمر على محكمة بشرية.

الحيلة الشرعية المذمومة لا تنقض الأمر بصوت مرتفع، بل تنحني أمام حروفه كي تطعنه من الداخل. تجعل الإنسان يبدو مطيعًا، بينما إرادته مشغولة بكيفية الإفلات من الطاعة.

وما أبعد الفرق بين من يسأل العالم: ماذا يريد الله مني؟ ومن يسأله: كيف أصل إلى ما أريد من غير أن أبدو مخالفًا؟

الأول يبحث عن مرضاة الله، والثاني يبحث عن مخرج من حكمه.

إن أصحاب السبت لم يكونوا بلا تدين؛ مشكلتهم أنهم استعملوا معرفتهم بالحكم للهروب من روحه. وهذه أخطر مراحل الانحراف الديني: أن تتحول المعرفة من قائد للضمير إلى خادم للرغبة.

فجاء الحكم المزلزل: ﴿**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾.

مسخهم الله قردةً على الحقيقة عقوبةً لهم، خاسئين أذلاء مطرودين. وكأن الصورة الخارجية كشفت سقوطًا وقع قبلها في الداخل؛ فقد تنازلوا عن كرامة الطاعة حين جعلوا العقل، الذي شُرفوا به، أداةً للتحايل على خالق العقل.

العقل لا يكرّم صاحبه بمجرد قدرته على اختراع الحيلة؛ إنما يكرمه إذا قاده إلى الحق. أما الذكاء حين ينفصل عن الأمانة فقد يجعل سقوط الإنسان أكثر تعقيدًا، لا أقل سقوطًا.

قال تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا**﴾.

عقوبة تردع من شهدها ومن جاء بعدهم. لم تكن القصة سجنًا لأصحابها في الماضي، بل تحذيرًا لكل جيل يحاول أن يحتفظ بصورة التدين ويتخلص من تكاليفه.

﴿**وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

الموعظة ينتفع بها المتقي؛ لأنه لا يقرأ القصة بشعور التفوق على أصحابها، بل بخوف أن يتسلل إلى نفسه شيء من منطقهم. يسأل نفسه:

أين أحافظ على شكل الأمر وأفرغ معناه؟

أين ألتزم بالحرف كي أهزم المقصد؟

أين أبحث عن مخرج من حكم الله بدل أن أبحث عن طريق إليه؟

إن الحيلة لا تغير علم الله بحقيقة الفعل. وقد ينجح الإنسان في صياغة مبرر يقنع به الناس، لكنه لا يستطيع أن يحول المخالفة في علم الله إلى طاعة.

وهنا ينتهي هذا المقطع من تاريخ بني إسرائيل ليبدأ مشهد منح السورة اسمها.

لقد رأينا قومًا حُمّلوا العهد فلم يأخذوه بقوة، وأُمروا في السبت فالتفوا حول الأمر. والآن سيُطلب منهم عمل واضح يسير في أصله:

أن يذبحوا بقرة.

لكن الأمر الذي كان يمكن إنجازه بطاعة مباشرة سيتحول إلى سلسلة طويلة من الأسئلة؛ لأن القلب المتردد يستطيع أن يجعل أبسط التكاليف متاهة.

الفصل السادس

البقرة: الجدل الذي ذبح روح الطاعة

أمر بسيط أثقلته المراوغة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

تحمل السورة اسم **البقرة**، مع أن قصة البقرة لا تتجاوز آيات معدودة. لكن كثافة المعنى لا تقاس بطول المساحة. ففي هذه القصة الصغيرة تنكشف أزمة كاملة في علاقة الإنسان بالتكليف.

بدأ الأمر واضحًا: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾**.

أي بقرة كانت تجزئهم في بداية الأمر، فلم يحدد لها عمرًا ولا لونًا ولا عملًا. كان باب الامتثال واسعًا، وكانت الطاعة قريبة.

لكنهم لم يستقبلوا الأمر بقول: سمعنا وأطعنا. تلقوه بالشك في جديته: **﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾**.

اتهموا النبي الذي عرفوا صدقه بأنه ربما يسخر منهم. وهذه علامة على اختلال الثقة بالوحي: حين يبدو أمر الله للإنسان غير منسجم مع تصوره المحدود، يضع المشكلة في الأمر بدل أن يضعها في حدود فهمه.

إنهم كانوا أمام جريمة قتل غامضة يبحثون عن قاتلها، ثم أُمروا بذبح بقرة. لم يروا الصلة بين الأمر والغاية، فظنوا أن التكليف عبث.

لكن العبودية تظهر حين تطيع قبل أن تحيط بالحكمة كلها. ليست طاعةً عمياء، فالأمر صادر عن الله الحكيم وثابت بواسطة نبيه، وإنما هي طاعة مبصرة بمصدر الأمر، وإن غاب عنها بعض تفاصيل المقصد.

يكفي المؤمن أن يعرف مَن أمره، حتى يثق بأن ما لم يدرك حكمته لا يخلو من الحكمة.

قال موسى: ﴿**أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾.

جعل الاستهزاء بالناس جهلًا، ولا سيما حين يتصل بأمر الله. فالنبي لا يستخدم مقام البلاغ مسرحًا للسخرية، ولا يعبث بعقول من أُرسل لهدايتهم.

وفي استعاذته أدب عظيم؛ لم يكتف بأن يقول: لست مستهزئًا، بل لجأ إلى الله من أن يقع في ذلك. فالإنسان لا يزكي نفسه مستقلًا، وإنما يستعيذ بربه من أسباب السقوط.

كما أن جواب موسى يكشف أن السخرية ليست دليل ذكاء، بل قد تكون غطاءً للجهل. حين يعجز المرء عن فهم معنى ما، ربما يضحك منه كي يخفي عجزه عن نفسه.

السخرية أحيانًا آخر حجج العقل حين تنفد حججه.

السؤال الذي لم يطلب هدايةً بل أخّر استجابة

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

مرة أخرى قالوا: **﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾**. ما زالت المسافة قائمة في التعبير؛ ربك أنت يا موسى، فاسأله لنا.

سألوا: **﴿مَا هِيَ﴾**، مع أن كلمة بقرة كانت معلومة. لم يكن السؤال لإزالة إبهام يمنع التنفيذ، بل فتحًا لباب التفاصيل التي لم يطالبهم الله بها.

وليس السؤال مذمومًا في ذاته؛ فالسؤال الصادق مفتاح العلم. وإنما المذموم سؤال التعنت الذي يتخذ المعرفة سلّمًا لتأجيل العمل.

هناك سؤال يولد من الحرص على الطاعة، وسؤال يولد من الرغبة في ألا تبدأ الطاعة بعد.

الأول إذا جاءه الجواب تحرك.

والثاني يحوّل كل جواب إلى سؤال جديد.

فجاء التحديد: **﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾**.

ليست كبيرةً هرمة، ولا صغيرةً فتية، بل متوسطة السن. كان الأمر في البداية أوسع، فضاق بالسؤال الأول. وهكذا قد يشدد الإنسان على نفسه حين يطلب من القيود ما لم يُطلب منه.

ثم جاءهم موسى بالعبارة التي ينبغي أن تقطع الجدل: ﴿**فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ**﴾.

ليس المقصود من البيان أن تتكاثر المعلومات، بل أن يقع الفعل. فالمعرفة الدينية التي لا تقود إلى امتثال قد تتحول إلى لون من المماطلة الراقية.

كم من إنسان يقرأ عشرات الكتب عن الصلاة ليؤجل الخشوع في صلاة واحدة! ويدرس معنى الإخلاص طويلًا بينما يترك العمل حتى يضمن شعورًا كاملًا لن يأتي! ويبحث عن الحكمة من التكليف حتى ينقضي وقت التكليف!

ليست كل كثرة في البحث دليل جدية؛ قد تكون ستارًا أنيقًا للعجز عن القرار.

اللون: حين ضاق الواسع مرةً أخرى

﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾

كان التحديد الأول كافيًا، لكنهم سألوا عن اللون. فضاق مجال الاختيار من جديد: ﴿**صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا**﴾؛ صفراء شديدة الصفرة، صافية اللون.

﴿**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾.

حتى في سياق التكليف يأتي وصف الجمال. فالوحي لا يمر على الحسن غافلًا؛ يراه ويسمي أثره في النفس. الجمال نعمة، والعين التي تسر بالحسن ليست خارجةً عن معنى العبودية.

لكن جمال البقرة لم يكن الغاية؛ كانت مأمورةً أن تُذبح. وهنا يلوح معنى دقيق: ليس كل جميل خُلق ليُقتنى، ولا كل ما يسر العين ينبغي أن تتعلق به اليد. قد تكون الطاعة في أن تبذل شيئًا تحبه النفس.

والأمر الإلهي يختبر موضع التعلق لا موضع القبح. فذبح بقرة لا قيمة لها سهل، أما أن تكون مسرة للناظرين فهنا يثقل الامتثال.

تشابه البقر أم تشابه القلوب؟

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

بعد تحديد السن واللون، عادوا إلى السؤال نفسه: **﴿مَا هِيَ﴾**.

قالوا: **﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾**. لكن البقر لم يكن متشابهًا في أول الأمر على نحو يمنع التنفيذ؛ أي بقرة كانت تكفي. إنما صنعوا التشابه بأسئلتهم، ثم شكوا من ضيق صنعوه بأيديهم.

وهذا يتكرر في حياة الإنسان: يكون الطريق واضحًا، فيحاصره باحتمالات لا تنتهي، ثم يقول إن الطريق غامض. لا لأنه يفتقد البيان، بل لأنه يخشى مسؤولية الاختيار.

إن الحيرة ليست دائمًا نقصًا في الإشارات؛ قد تكون كثرة الالتفات بعيدًا عن الجهة.

ثم قالوا: **﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾**.

جاءت المشيئة هنا بعد طول تردد، فكان في تعليق الأمر بها سبب لتيسير ما بقي ووصولهم إلى البقرة. لكن العبارة تعلمنا أيضًا أن الاستعانة بالمشيئة ينبغي أن تصحب العزم، لا أن تكون وسيلة لتعليق العمل.

«إن شاء الله» ليست بابًا أنيقًا للهروب من الوعد، بل اعتراف بأن إرادة العبد لا تنفذ إلا بإرادة الله، مع صدق النية وبذل السبب.

وقد يقول الإنسان: سأفعل إن شاء الله، بينما يعلم في قلبه أنه لا يريد أن يفعل. اللفظ مقدس، لكن النية قد تستعمله ستارًا. أما صدقه فيظهر حين يتحرك بعد قوله.

البقرة التي لم تُذلَّل للعمل

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

جاء التحديد الأخير: بقرة غير مذللة للعمل، لم تُستخدم في حراثة الأرض ولا سقي الزرع، سليمة من العيوب، خالصة اللون لا علامة تخالفه.

وكان كل سؤال يجعل العثور عليها أصعب وثمنها أعلى. لقد صنعت مراوغتهم تكلفةً لم تكن في أصل الأمر.

هذه سنة نفسية: ما ترفض حسمه في وقته قد يعود إليك أكثر تعقيدًا. والواجب الذي تؤجله لا يبقى دائمًا بالحجم نفسه؛ قد يضيف التأخير إليه أعباءً جديدة.

ثم قالوا: **﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾**.

وكأن ما جاءهم به من قبل لم يكن حقًا! الأمر الأول كان من الله، والبيان الثاني والثالث كانا من الله، لكنهم لم يسموا الكلام حقًا إلا حين استنفدوا أبواب السؤال.

في هذه العبارة أثر من سوء الأدب مع النبي والوحي؛ إذ جعلوا الحق تابعًا لشعورهم بالاقتناع، لا ثابتًا بمصدره.

وقد يقع الإنسان في هذا دون أن يشعر؛ لا يطمئن إلى الحكم حتى يوافق البناء الذي كوَّنه في ذهنه، فإذا وافقه قال: الآن ظهر الحق. كأن الحقيقة لم تكن حقًا قبل أن تمنحها نفسه الإذن!

﴿**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾.

نفذوا أخيرًا، لكن التنفيذ جاء بعد أن أوشك التردد أن يمنعهم. والآية لا تكتفي بتسجيل الفعل؛ تكشف الحالة التي وقع بها. فقد تتشابه الطاعات في ظاهرها، وتختلف قيمتها بقدر ما وراءها من تسليم أو تثاقل.

ذبحوا البقرة، لكن القصة قبل أن تكون قصة ذبح حيوان كانت قصة قلب قاوم الأمر حتى آخر لحظة.

وكأنهم حين ذبحوها كانوا قد ذبحوا شيئًا من ترددهم، ولكن بعد أن كشف التردد عن نفسه طويلًا.

الجريمة التي أخفاها الناس وأظهرها الله

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

الآن ينكشف سبب الأمر كله. كانت هناك نفس مقتولة، واختلفوا في قاتلها، وتدافعوا التهمة؛ كل فريق يدفع الجريمة عن نفسه ويلقيها على غيره.

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾.

بدل أن يتعاونوا على إظهار الحق، تعاون كل طرف على دفع المسؤولية عن نفسه. وحين تنشغل الجماعة بتبادل الاتهامات أكثر من انشغالها بكشف الحقيقة، يصبح الدم مادةً للصراع لا أمانةً للعدالة.

لكن البشر مهما أتقنوا الكتمان لا يملكون إغلاق الملف في علم الله: **﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾**.

ما أعظم هذه الجملة وما أشدها على كل من بنى أمانه على الخفاء!

قد ينجح الجاني في محو الأثر، وقد يعجز القضاء، وقد تموت الشهود، وقد تتواطأ الجماعة على الصمت؛ لكن الحقيقة لم تختف، إنما انتقلت من علم الناس المحدود إلى علم لم تغب عنه لحظة.

كل مستور في الأرض مكشوف في السماء.

والآية لا تتحدث عن جريمة القتل وحدها؛ إنها قاعدة في عالم السرائر. يمكن للإنسان أن يحسن هندسة صورته أمام الناس، لكنه لا يستطيع دفن الحقيقة خارج علم الله.

وربما أخرج الله بعض الخفايا في الدنيا، وقد يؤخرها إلى يوم تتكلم فيه الجوارح. وفي الحالتين لا يضيع الحق لأن الناس عجزوا عن الوصول إليه.

ميتٌ يكشف قاتله

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

أمرهم الله أن يضربوا القتيل ببعض البقرة، فأحياه الله، فدلَّ على قاتله، ثم عاد إلى موته.

ليس في جزء البقرة قدرة ذاتية على الإحياء، ولكن الله جعل الضربة سببًا تظهر عنده قدرته. وكما أخرج الماء من الحجر بضربة عصا، أخرج الكلام من جسد ميت بضربة من بقرة مذبوحة.

إن الأسباب لا تعمل مستقلة عن الله؛ قد يجعل الحياة تخرج عند ملامسة شيء ميت، ليكسر في العقل وهم أن ما نراه من الروابط المألوفة قيود على القدرة الإلهية.

بقرة مذبوحة يُضرب ببعضها ميت فيحيا. وما بين الموت والحياة ليس مسافةً تعجز القدرة، بل أمر الله.

ثم نقلت الآية المشهد من حل جريمة محددة إلى البرهان الأكبر: **﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾**.

الذي أحيا رجلًا أمام أعينهم قادر على أن يحيي الناس جميعًا. والبعث ليس إعادةً أصعب من الخلق الأول؛ فالصعوبة من خصائص قدرة المخلوق، أما قدرة الله فلا يعجزها ابتداء ولا إعادة.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

لم يقل: لعلكم تنظرون؛ فقد نظروا بالفعل. لكن المطلوب أن تعبر الرؤية إلى العقل. فالعين قد تشاهد المعجزة، ويبقى العقل بعيدًا عن دلالتها.

إن الآية لا تؤدي وظيفتها لمجرد وقوعها أمامك؛ لا بد أن تقرأ الرسالة التي تحملها.

فماذا كان ينبغي أن يتعلموا؟

أن الله يحيي الموتى.

وأن الجريمة لا تُدفن إلى الأبد.

وأن الأمر الذي ظنوه غير مفهوم كان طريقًا إلى كشف الحقيقة.

وأن الطاعة لو جاءت أولًا لأراحتهم من كل هذا الجدل.

لكن المدهش أن الميت عاد إلى الحياة، ولم تحيَ القلوب بما يكفي.

القلوب التي صارت أشد من الحجارة

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

﴿ثُمَّ﴾: كلمة تحمل الاستبعاد والتعجب. بعد كل ذلك قست القلوب!

بعد البحر، والكتاب، والعفو، والبعث بعد الصاعقة، والماء الخارج من الحجر، والميت الذي تكلم؛ كان المنتظر أن تلين القلوب حتى تصبح شفافة للحق. لكن المعجزة إذا لم تجد قلبًا صادقًا قد تتحول إلى حادثة تُضاف إلى الذاكرة ثم يبتلعها الاعتياد.

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ليس كل ما ينبض حيًا في ميزان القرآن. قد يتحرك الجسد، ويعمل العقل، ويضحك الوجه، بينما القلب قطعة مغلقة لا تتأثر بوعد ولا وعيد، ولا تهتز لدمعة مظلوم، ولا تنكسر عند ذكر الله.

ثم ينصف القرآن الحجارة من التشبيه: **﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾**.

الحجر الذي يبدو صلبًا قد يحمل في جوفه نهرًا. يحتاج إلى فتح، فإذا بالماء يفيض منه بما يحيي الأرض.

وهناك قلب تطرق بابه المواعظ أعوامًا، فلا تخرج منه قطرة رحمة.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾.

قد لا يتفجر نهرًا، لكنه يتصدع فتخرج منه عين أو قطرة. في الحجر استجابة على قدره، أما القلب القاسي فلا شق فيه يمر منه ندم.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

للجماد عبوديته التي يعلمها الله، وله انقياد يليق بطبيعته. والحجر يهبط من خشية الله، بينما الإنسان الذي مُنح العلم والإرادة قد يسمع كلام الله ثم يزداد ارتفاعًا بكبره.

يا لها من مقارنة تهز القلب: أن يكون الحجر أقرب إلى الخشية من قلب الإنسان!

ولم تقل الآية إن القلب أشد صلابة من الحجر فقط، بل أشد **قسوة**؛ لأن القسوة ليست صلابة مادية، بل انعدام الاستجابة للحق والرحمة. قد يكون الإنسان قويًا في موقف الحق ورقيق القلب، وقد يكون ضعيف الشخصية شديد القسوة على من دونه.

القسوة ليست قوة، بل عجز عن التأثر بما ينبغي أن يؤثر.

كيف تقسو القلوب؟

لا تقسو القلوب عادةً في لحظة واحدة. إنها تفقد لينها على مهل:

ذنب لا يعقبه استغفار.

ومظلمة يبررها صاحبها.

وآية يسمعها بلا إصغاء.

وحق يعرفه ثم يؤجله.

ودمعة يوشك أن يذرفها فيحبسها خوفًا على صورته.

ثم تتراكم الطبقات، حتى يصير ما كان يهز القلب خبرًا عاديًا. يرى الإنسان الألم ولا يتألم، ويسمع الموعظة ولا يشعر أنها تعنيه، ويذكر الموت كأنه يتحدث عن قانون يطبق على جنس آخر.

وأخطر القسوة أن يعتادها صاحبها، فيظن أن رقة القلب ضعف، وأن عدم اكتراثه نضج، وأن قدرته على تجاوز آلام الآخرين صلابة.

لكن المؤمن لا يخاف من دمعة تلين قلبه؛ يخاف من عين لم تعد قادرةً على البكاء حين ينبغي أن تبكي.

القلب الحي ليس القلب الذي لا يذنب

القلب الحي قد يضعف، لكنه يشعر بضعفه. وقد يزل، لكنه لا يصنع من زلته فلسفة. إذا قرأ آيةً رأى نفسه فيها، وإذا ذُكّر رجع، وإذا ظلم أقلقه ظلمه حتى يرده.

أما القلب القاسي فقد يفعل الذنب نفسه، ثم يستدعي عقله ليبني حوله جدارًا من الأعذار. إنه لا يكتفي بالمرض؛ يطرد الطبيب أيضًا.

ولهذا كانت قصة البقرة في جوهرها قصة قلب. بدأ الأمر واضحًا، لكن التردد أثقله. ظهرت الآية، لكن القسوة عطلت أثرها. تحرك جسد الميت، بينما ظلت قلوب الأحياء أقرب إلى الجماد.

إن خرق العادة ليس أعظم معجزات الوحي في حياة الفرد؛ المعجزة الأشد أثرًا أن يخرق القرآن عادة القلب، وأن يخرج من قسوته نبعًا، ومن كبره سجدة، ومن شهوته عفة، ومن خوفه شجاعة.

فإذا لم يقع شيء من ذلك، فقد يرى الإنسان الميت يقوم ثم يعود إلى بيته بالقلب نفسه.

وتختم الآية بقوله تعالى: ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾.

قد تخفى قسوة القلب وراء مظهر من الوقار، وقد تُكسى المراوغة ثوب السؤال العلمي، وقد يبدو التلاعب التزامًا دقيقًا بالحروف؛ لكن الله لا ينظر إلى الصورة وحدها. يعلم لماذا سألت، ولماذا أخرت، وما الذي كنت تخفيه وأنت تطلب مزيدًا من البيان.

وهنا تضع قصة البقرة أمامنا مرآتها الأخيرة:

ليس السؤال: لماذا أكثر أولئك القوم الجدل؟

بل: كم مرة أثقلتُ أمرًا واضحًا لأن نفسي لم ترد تنفيذه؟

كم مرة طلبت مزيدًا من البيان، بينما الذي ينقصني لم يكن العلم، بل العزم؟

كم مرة قلت: «الآن جئت بالحق»، كأن الحق لا يصير حقًا حتى يوافق تصوري؟

لقد ذبحوا البقرة أخيرًا، لكن القصة تسأل كل قارئ:

هل ذبحتَ في نفسك شهوة المراوغة، أم ما زلتَ تؤجل الامتثال بسؤال جديد؟

ومن هذا الموضع ستنتقل السورة إلى لون آخر من ألوان القسوة: تحريف الكلام، وصناعة الأماني الدينية، وادعاء النجاة بلا برهان. فحين لا يستطيع القلب أن يغيّر الوحي علنًا، قد يحاول أن يغيّر معناه، أو يحجبه عن الناس، أو يكتب بأيدي البشر كلامًا ثم يقول:

هذا من عند الله.

الفصل السابع

البقرة: الجدل الذي ذبح روح الطاعة

حين يُسمع كلام الله ثم يُحرَّف

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن كشفت السورة قسوة القلوب، انتقلت إلى الثمرة الأشد خطرًا لهذه القسوة: أن لا يكتفي القلب برفض الوحي، بل يمد يده إلى معناه فيحرّفه.

خوطب المؤمنون بقوله: **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾**.

ليس في الآية دعوة إلى اليأس من هداية الناس، ولا حكمًا على كل فرد من أهل الكتاب؛ فقد آمن منهم من آمن وصدق. وإنما هي تنبيه إلى ألا يتحول الأمل في استجابة المعاندين إلى غفلة عن تاريخهم مع الوحي.

فليس كل من سمع الحق مهيأً لقبوله، ولا كل من امتلك النص أمينًا على دلالته. قد يقترب الإنسان من الوحي اقتراب التلاوة، ويبتعد عنه ابتعاد الإرادة.

﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾.

كان الكلام يبلغ أسماعهم واضحًا. ولم تكن المشكلة أنهم لم يفهموه، فقد قال: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾.

عقلوه أولًا، ثم حرّفوه. وهذه العبارة تهدم العذر من أساسه. فالتحريف لم يصدر عن جهل بالدلالة، بل عن معرفة لم توافق الهوى.

إن الإنسان قد يخطئ في الفهم، وهذا باب من أبواب الضعف البشري. لكنه قد يفهم صحيحًا ثم يتعمد أن يصوغ للناس فهمًا آخر؛ لأن الحقيقة بصورتها الأصلية تهدد مصلحةً أو سلطةً أو بناءً مذهبيًا استقر طويلًا.

هناك فرق بين عقل يبحث فيضل، وعقل يعرف ثم يضلل.

الأول يحتاج إلى بيان.

والثاني يحتاج إلى توبة وأمانة.

﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.

إنها الكلمة التي تجعل الجريمة أثقل. لم يغيروا النص أو تأويله لأن الطريق اشتبه عليهم، بل كانوا يعرفون ماذا يفعلون، ويعرفون الفرق بين ما سمعوه وما أسمعوه للناس.

والتحريف لا يقع دائمًا بإزالة كلمات وإضافة أخرى؛ قد يقع بنقل اللفظ عن سياقه، أو كتمان ما يفسره، أو تضخيم فرع حتى يحجب الأصل، أو تحميل النص ما لم يحتمل، أو تجريده من المعنى الذي نزل ليقيمه.

وقد يبقى النص محفوظًا في السطور بينما يجري تحريف وظيفته في الحياة. تُتلى آيات العدل في مجالس الظالمين، لكن يُقال للناس إن العدل يعني الصمت. وتُذكر الطاعة حتى تصبح في الوعي طاعة الأشخاص، لا طاعة الله. وتُرفع راية الجماعة حتى تُنسى الغاية التي أنشئت الجماعة لخدمتها.

أخطر التحريف ما لا يمس الحروف؛ لأنه يتخفى تحت سلامتها.

وجهٌ عند اللقاء وسرٌّ عند الخلوة

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

يعيد المشهد إلى الذاكرة صورة المنافقين في أول السورة: **﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾**.

الوجه نفسه يتبدل بتبدل المجلس. عند المؤمنين لغة تقارب وإيمان، وعند الخلوة تظهر الحسابات التي كانت مختبئة خلف الكلمات.

وقد كان بعضهم يحدث المؤمنين بما في كتبهم من صفات النبي ﷺ أو من الحقائق التي تشهد للرسالة، فيلومهم الآخرون: **﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾**.

سمّى الله ما عرفوه **فتحًا**؛ فالمعرفة المغلقة تنفتح بالوحي، والحق يفتح أمام العقل أبوابًا لم يكن يبلغها وحده.

لكنهم لم يتعاملوا مع الفتح بوصفه أمانةً ينبغي تبليغها، بل معلومةً ينبغي احتكارها حتى لا تصبح حجةً عليهم.

وهنا ينقلب العلم من طريق إلى الإيمان إلى وسيلة للدفاع عن الامتياز. يخشون أن يقدموا الحقيقة لمن يستدل بها، لا لأنها باطلة، بل لأنها حق يفضح تناقضهم.

﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

كأنهم توهموا أن كتمان الدليل عن المؤمنين يزيله من علم الله! أو أن الحجة لا تقوم إلا إذا عرف خصمهم موضعها. لقد اختلط في وعيهم جدل الدنيا بحساب الآخرة؛ ظنوا أن النجاة تكون بإخفاء الوثيقة، لا بتصحيح الموقف.

إن الحقيقة لا تسقط لأنك منعت الآخرين من الوصول إليها. وما علمه الله عليك لا يتحول إلى سرٍّ بمجرد أنك أخفيته عن الناس.

ثم قالوا: **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**.

استخدموا كلمة العقل لحماية الكتمان! وهذه من محن اللغة حين يختطفها الهوى. قد يسمى الإنسان الخيانة ذكاءً، والكتمان احتياطًا، والتراجع حكمة. لكن الاستعمال لا يطهر الفعل.

كم من دعوة إلى «التعقل» لا يراد بها إلا أن يتوقف الضمير عن إزعاج المصلحة!

السر الذي لا يخرج من علم الله

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

جاء الرد مختصرًا، لكنه يهدم منطق الخداع كله.

يتحدثون في العلن بلغة، وفي السر بلغة أخرى. يقسمون العالم إلى مجالين: مساحة مرئية يحسنون فيها الأداء، ومساحة خفية يظنون أنهم يعودون فيها إلى حقيقتهم بعيدًا عن الرقابة.

لكن لا خلوة خارج علم الله.

﴿مَا يُسِرُّونَ﴾: ما يخفونه في مجالسهم وصدورهم.

﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: ما يظهرونه للناس ويقيمون عليه صورتهم.

والله يعلم المسافتين، ويعلم المسافة بينهما.

إن المراقبة الإلهية لا تعني فقط أن الله يعلم الفعل السري؛ بل يعلم لماذا أخفيته، وما الصورة التي أردت أن تصنعها بإظهار غيره، وما الحسابات التي دارت في قلبك قبل أن تتكلم.

وهذا العلم قد يكون مخيفًا للمخادع، لكنه راحة للمظلوم والمخلص. فكم من إنسان أسيء فهمه، ولم يستطع شرح نياته، وبقيت حقيقته أسيرة ظنون الناس! يكفيه أن الله يعلم.

وعلى الجانب الآخر، كم من إنسان كسب ثناء الناس بعمل أفرغه الرياء من روحه! لا ينفعه أن يُحسن الجميع به الظن إذا كان الله يعلم ما أسرَّ.

الأمية التي تسكن العقل لا اللسان وحده

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

بعد الحديث عن العلماء الذين عرفوا ثم حرّفوا، تنتقل الآية إلى العامة الذين تركوا معرفة الكتاب لغيرهم، واكتفوا منه بالأماني.

﴿أُمِّيُّونَ﴾: لا يحسنون قراءة الكتاب وفهمه، أو لا يعلمون حقائقه. لكن الخطر ليس في نقص المهارة وحده، بل في البديل الذي ملأ الفراغ: **﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾**.

وقد تأتي الأماني بمعنى التلاوة المجردة، وتأتي بمعنى التمنيات الكاذبة؛ والمعنيان يلتقيان حين تصبح العلاقة بالكتاب ألفاظًا تمر على اللسان دون علم، وأحلام نجاة لا يسندها عمل.

يعرفون من الدين ما يطمئنهم، لا ما يغيّرهم. قيل لهم إنهم شعب مختار، فاحتفظوا بعبارة الاختيار وأسقطوا تكاليفه. وقيل لهم إنهم أبناء الأنبياء، فجعلوا قرابتهم من الصالحين بديلًا عن صلاحهم.

الأماني الدينية أخطر من الجهل المجرد؛ لأنها تمنح الإنسان شعورًا زائفًا بالأمان، فيفقد الدافع إلى البحث والتوبة. الجاهل قد يسأل، أما صاحب الأمنية فيظن أنه وصل.

قد يعيش الإنسان عمره يردد: الله غفور رحيم، لا ليزداد حياءً وطاعة، بل ليبني من الرحمة مخبأً يحمي فيه معصيته. وقد يتحدث عن حسن الظن بالله، وهو في الحقيقة يحسن الظن بهواه.

حسن الظن بالله أن يحسن الإنسان العمل وهو يرجو فضل ربه؛ أما الإصرار على المعصية مع مطالبة النفس بالنجاة فليس رجاءً، بل أمنية.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

ليست لديهم معرفة مؤسسة على وحي وفهم، وإنما تصورات موروثة يرددونها لأن الجماعة اعتادتها. وحين ينفصل الناس عن مصادر دينهم، يصير وعيهم سهل القيادة؛ يكفي أن يخبرهم المتصدر بما يريد، فلا يملكون ميزانًا يراجعونه به.

ولهذا فإن الأمية الدينية ليست عدم القدرة على قراءة الحروف فحسب؛ قد يقرأ المرء بطلاقة ويظل أميًا عن مقصد الكتاب. يحمل النص ولا يملك معيارًا يفرق به بين الوحي وما أُلصق به، وبين العالم الأمين وتاجر المقدس.

الكتاب الذي كتبته الأيدي ثم نسبته إلى السماء

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾

هذه من أرهَب آيات الأمانة العلمية.

ليس الجرم أنهم كتبوا؛ فالكتابة أداة من أشرف أدوات الإنسان. الجرم أنهم كتبوا بأيديهم ثم رفعوا عن كلامهم صفة البشرية وقالوا: ﴿**هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾.

هناك فرق لا يجوز أن يُمحى بين كلام الله وفهم الإنسان لكلام الله. الوحي معصوم، أما الفهم البشري فيصيب ويخطئ. فإذا رفع الإنسان تأويله إلى مقام الوحي، أغلق باب المراجعة، وحوّل مخالفته إلى مخالفة لله.

ما أكثر ما يبدأ الاستبداد الديني حين يختفي البشر خلف المقدس! لا يقول المتصدر: هذا اجتهادي؛ بل يوحي أن رأيه هو حكم الله النهائي، وأن الاعتراض عليه اعتراض على الدين.

وهكذا لا يعود النص نورًا يحرر الناس، بل ستارًا تستتر خلفه سلطة بشرية.

﴿**يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾.

ذكر الأيدي لتأكيد الصنعة البشرية؛ هذه الكلمات خرجت من أقلامهم، وصاغتها مصالحهم، وهم يعلمون أصلها، ثم نسبوها إلى الله.

وما أشد بشاعة أن يستعمل الإنسان اسم الله لترويج كلامه! فالكذب على الناس جريمة، أما أن تجعل الله شاهدًا على كذبتك فالجريمة مركبة.

ثم كشفت الآية الدافع: ﴿**لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾.

ليس الثمن مالًا وحده. قد يكون تصفيق الجمهور، أو توسيع النفوذ، أو حماية المؤسسة، أو تثبيت الحاكم، أو إسكات الخصم، أو حفظ الصورة التي تشكلت حول العالم.

وسماه قليلًا؛ لأن الدنيا كلها قليلة حين تكون ثمنًا للحقيقة.

ثم كرر الوعيد ثلاث مرات: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ**﴾.

﴿**فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾.

﴿**وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**﴾.

ويل للفعل، وويل للنص المصنوع، وويل للمكسب الناتج عنه. فالفساد المعرفي لا ينتهي لحظة الكتابة؛ يبقى الكلام يتحرك بين الناس، ويصنع مواقف، ويضل أجيالًا، وقد يموت الكاتب وتظل كلمته تعمل في غيره.

لهذا كانت الكتابة أمانة ممتدة. الكلمات لا تبقى تحت سيطرة صاحبها بعد أن يطلقها؛ قد تصبح جسرًا إلى هداية، وقد تصبح حفرةً يقع فيها من لم يره قط.

ومن هنا يحتاج الكاتب إلى خشية مضاعفة. فهو لا يضع حبرًا على ورق فحسب؛ ربما يضع اتجاهًا في عقل، أو يزرع شبهةً في قلب، أو يمنح ظالمًا جملةً يحتمي بها.

الكلمة قد تنتهي من يد الكاتب، لكنها لا تنتهي من ميزانه.

أيام معدودة: حين يتحول الرجاء إلى عقد مزور

﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾

بعد صناعة النصوص تأتي صناعة الطمأنينة الزائفة. قالوا: حتى لو دخلنا النار، فلن تمسنا إلا أيامًا قليلة.

لم ينكروا الحساب تمامًا، لكنهم فرغوه من هيبته. جعلوا العذاب إقامةً عابرة لا تهدد البناء الذي صنعوه عن أنفسهم.

وهذه إحدى حيل النفس: إذا لم تستطع إنكار الحقيقة، قللت من خطورتها. تعترف بالذنب، ثم تقول إنه صغير. وتؤمن بالحساب، ثم تتخيله شكليًا. وتقر بالنار، ثم تجعلها بعيدة أو قصيرة أو مخصصة للآخرين.

وهكذا تحتفظ بمفردات العقيدة وتتخلص من أثرها.

جاء الرد: ﴿**أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا**﴾؟

هل لديكم وعد صريح من الله؟ فالخبر عن الغيب لا يبنى على الأمنيات. الجنة والنار ليستا موضوعًا للخيال الجماعي، بل من خبر الله، ولا يملك أحد أن يحدد المصير إلا بدليل منه.

﴿**فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ**﴾.

لو كان عندكم عهد ثابت لكان حقًا؛ فالله لا يخلف وعده. لكن أين العهد؟

إن السؤال لا يناقش النتيجة فقط، بل يطالبهم بمصدرها. وهذا منهج قرآني عظيم: قبل أن تطمئن إلى فكرة دينية، اسأل عن أساسها. أهي من الوحي، أم من رغبة النفس في الأمان؟

ثم وضع الاحتمال الآخر: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

ليس هناك طريق ثالث: إما عهد من الله، وإما قول عليه بلا علم.

وما أخطر أن يحول الإنسان أمنيته إلى عقيدة، ثم ينسبها إلى الله! إنه لا يكتفي بخداع نفسه، بل يجعل اسم الله غطاءً للخداع.

الرجاء الصحيح يستند إلى معرفة رحمة الله مع خوف عدله، وإلى إيمان صادق وعمل وتوبة. أما الأمن من مكر الله مع الإصرار فليس ثقةً بالله، بل جرأة عليه.

الخطيئة التي أحاطت بصاحبها

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

﴿بَلَىٰ﴾: جواب حاسم يهدم أمنيتهم. ليست النار أيامًا يحددونها بأهوائهم.

ثم جاءت صورة مرعبة: **﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾**.

الخطيئة في أولها فعل يصدر من الإنسان، لكنها إذا أصر عليها قد تنمو حتى تحيط به. كان هو الذي يملك قرارها في البداية، ثم صارت هي التي تملك منافذ قلبه.

يبدأ الذنب نقطةً في طرف الحياة، ثم يتسع بالتكرار والتبرير، حتى يصبح عدسةً يرى بها الإنسان كل شيء. تتغير أفكاره لحماية سلوكه، وتتغير صداقاته لتناسب انحرافه، وتتغير لغته كي تمنح الخطأ أسماء مقبولة.

في البداية يرتكب الإنسان الخطيئة.

ثم يرتب حياته كي لا يضطر إلى تركها.

ثم يعادي كل من يذكره بأنها خطيئة.

عندها تكون قد أحاطت به.

والمراد هنا بالكفر والشرك الذي أحاط بصاحبه حتى مات عليه؛ لذلك كان جزاؤه الخلود. أما المؤمن العاصي فلا يُحكم له بالخلود في النار، بل هو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه بقدر ذنبه ثم أخرجه بتوحيده.

وهذا التفصيل يحفظ التوازن: لا نهوّن المعصية حتى يأمن الإنسان، ولا نغلق باب الرحمة حتى ييأس.

الإيمان الذي تثمره الجوارح

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

في مقابل الإحاطة بالخطيئة يأتي الإيمان والعمل الصالح. لا نسب ولا أمنية ولا وثيقة بشرية؛ بل قلب آمن، وجوارح صدقت.

تكرر اقتران الإيمان بالعمل، حتى لا يتحول الدين إلى شعور داخلي يدعي صاحبه أنه بينه وبين الله، بينما يفسد في الأرض ويأكل حقوق الناس.

لو كان الإيمان حقيقةً كاملة في القلب، فلا بد أن يرسل أثرًا إلى السلوك. قد يضعف الأثر، وقد تقع الزلة، لكن الاتجاه العام يبقى نحو الصلاح والتوبة.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

قابل أصحاب النار بأصحاب الجنة. كل فريق انتهى إلى صحبة ما كان يبني أسبابه في الدنيا. ومن عاش يصاحب الطاعة، وإن تعثر، كان يسير إلى دار الطاعة الكبرى؛ ومن جعل الخطيئة محيطةً به كان يبني حول نفسه صورةً من مصيره.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

خلود يثبت النعمة ويخرج منها خوف النهاية. والجنة ليست أجر حركة عابرة فحسب، بل فضل الله على إيمان استقر واتجاه امتد حتى الموت.

الميثاق الذي يبدأ بالتوحيد وينزل إلى تفاصيل الرحمة

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

تجمع هذه الآية الدين من قمته إلى أدق آثاره الاجتماعية.

بدأ الميثاق بالتوحيد: **﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.**

فهذا هو الأصل الذي تنتظم حوله القيم كلها. إذا لم يكن لله المقام الأعلى في القلب، صارت الأخلاق قابلةً للمساومة؛ يفعلها الإنسان ما دامت تخدمه، ويتخلى عنها حين تكلفه.

ثم انتقل الميثاق مباشرةً إلى الوالدين: **﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.**

كأن صدق التوحيد يُمتحن عند أقرب علاقة. فقد يتحدث المرء عن القيم الكبرى، ثم يفشل أمام أبوين ضعفا وكبرا وصارا بحاجة إلى صبره.

الإحسان أكثر من أداء الحق؛ إنه أن تمنح من اللطف فوق ما يوجبه الحساب، وأن تتذكر بداياتك حين لم تكن قادرًا على شيء، وكانا يحملان ضعفك دون أن يعدّاه منّةً ثقيلة.

ثم ﴿**ذِي الْقُرْبَىٰ**﴾؛ لأن الأسرة أول نسيج اجتماعي، وإذا قطّعت المصالح هذه الروابط صار المجتمع أفرادًا متجاورين لا قلوبًا متواصلة.

ثم ﴿**الْيَتَامَىٰ**﴾؛ وهم الذين فقدوا الحماية قبل أن تكتمل قوتهم. يضعهم الوحي في صلب الميثاق حتى لا يصبح ضعفهم سببًا لنسيانهم.

ثم ﴿**الْمَسَاكِينِ**﴾؛ الذين أسكنتهم الحاجة أو أذلهم الفقر. ولا يكتمل تدين مجتمع تبقى موائده عامرةً بينما ينام بعض أبنائه والجوع يشتعل في بطونهم.

إن عبادة الله التي لا ترى اليتيم والمسكين قد انفصلت عن أحد براهينها الاجتماعية.

ثم جاء أمر واسع: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾.

قال: للناس، لا لطائفة بعينها. فحسن القول حق إنساني لا تمنحه إلا لمن يوافقك. والكلمة الحسنة ليست مجاملةً فارغة؛ قد تكون صدقًا رفيقًا، أو نصحًا بلا إذلال، أو خلافًا بلا فحش.

يستطيع الإنسان أن يقول حقًا بطريقة تهدم نفسًا، وأن يقول الحق نفسه بطريقة تفتح لها باب العودة. وليس كل عنف في العبارة قوةً في المبدأ؛ ربما كان ضعفًا في القدرة على حمل الحق بأخلاقه.

ثم الصلاة والزكاة: علاقة بالله، وعطاء للناس.

هكذا يظهر الدين شبكةً واحدة: توحيد، وأسرة، ورحمة بالضعيف، وأخلاق في الخطاب، وصلاة، وزكاة. فلا يحق للإنسان أن يختار من الميثاق العبادة التي ترفع صورته، ويترك الخلق الذي يختبر حقيقته.

لكن الآية تنتهي بالمشهد المؤلم: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**﴾.

لم يكن التولي حالة فردية طارئة، بل صار اتجاهًا عامًا لم ينج منه إلا قليل. وفي قوله: ﴿**وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ معنى الإصرار؛ أعطوا العهد ظهورهم ومضوا.

حرمة الدم وحرمة الديار

﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾

قال: ﴿**دِمَاءَكُمْ**﴾، مع أن الإنسان يسفك دم غيره، وقال: ﴿**أَنْفُسَكُمْ**﴾، مع أنهم يخرجون إخوانهم. لأن الجماعة في التصور الأخلاقي جسد متصل؛ من قتل أخاه فقد جرح نفسه، ومن أخرج إنسانًا من بيته فقد اقتلع جزءًا من أمن المجتمع كله.

إن القرآن يهدم الوهم الذي يجعل العدوان يقع على «الآخر» وحده. حين ينتشر الدم، لا يبقى القاتل آمنًا طويلًا؛ إنه يطلق في المجتمع قانونًا قد يعود إليه. وحين يصبح إخراج الناس من ديارهم أداةً للصراع، يتحول الوطن إلى ساحة مؤقتة لا يشعر فيها أحد أن له جدارًا مضمونًا.

البيت ليس حجارة فقط؛ إنه ذاكرة الإنسان وسترُه وموضع أمان أطفاله. وإخراجه منه اقتلاع لجذوره، ولذلك جاء تحريمه في قلب الميثاق إلى جوار الدم.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

لم يكن العهد خفيًا ولا مختلفًا فيه؛ أقروا به وشهد بعضهم على بعض. وحين يثبت المبدأ في الوثائق والألسنة ثم يُنقض في الواقع، تكون الأزمة أزمة إرادة لا أزمة معرفة.

إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعض

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾

المشهد بالغ التناقض: يتحالف بعضهم مع أعداء بعض، ويشتركون في القتل وإخراج إخوانهم من ديارهم. فإذا انتهت الحرب ووقع بعض أولئك أسرى، دفعوا المال لفكهم امتثالًا لحكم الكتاب في فداء الأسير.

طبّقوا حكم الفداء، وتركوا الحكم الذي كان سيمنع الأسر من أساسه.

وهذه طاعة مجزأة لا يحكمها تعظيم الوحي، بل اختيار ما يلائم المرحلة والمصلحة. يستبيحون الدم والإخراج حين تخدمهم الحرب، ثم يلبسون ثوب التدين عند الفداء.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

الكتاب وحدة، لأنه صادر عن رب واحد ويصنع تصورًا متكاملًا. ومن جعل هواه حاكمًا يختار ما يشاء لم يعد متبعًا للكتاب، حتى لو أكثر الاستشهاد ببعضه.

قد يتمسك الإنسان بنص يقرر حقه، وينسى النص الذي يقرر حق غيره. يطالب بالطاعة حين يكون آمرًا، وينسى العدل حين يكون قادرًا. يرفع آيات الصبر أمام المظلوم، ولا يرفع آيات رد الظلم أمام الظالم.

ليس هذا إيمانًا كاملًا بالكتاب؛ إنه استعمال انتقائي له.

والانتقائية أخطر من الرفض الصريح؛ لأنها تمنح الهوى شرعيةً دينية. فالإنسان لا يقول: أنا أتبع مصلحتي، بل يأتي إلى الكتاب، يأخذ منه سطرًا، ثم يجعل السطر جنديًا في جيش هواه.

إن الإيمان بالكتاب يعني أن تسمح له أن يحكمك في الموضع الذي يعارض رغبتك، لا أن تستدعيه فقط حين يؤيدك.

خزي الدنيا وعذاب الآخرة

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

التدين المجزأ لا يحفظ كرامة الأمة؛ بل ينتهي إلى الخزي. لأن الأمة التي تجعل مبادئها رهينة مصالحها تفقد ثقة الناس بها، ثم تفقد ثقتها بنفسها. يصبح كلامها الأخلاقي مكشوفًا؛ ترفعه حين يفيدها وتسقطه حين يكلّفها.

والخزي ليس دائمًا هزيمةً عسكرية؛ قد يكون انكشاف التناقض، وسقوط الهيبة الأخلاقية، وعجز الأمة عن إقناع أبنائها بما ترفع من شعارات.

فالأمة لا تعيش بالقوة وحدها؛ تعيش أيضًا بمعنى يبرر وجودها. فإذا كذّبت أفعالها أقوالها، بدأ الانهيار من الداخل ولو بدت مؤسساتها قائمة.

ثم الآخرة: **﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾**.

هناك تنكشف عملية الانتقاء كلها. لا يستطيع الإنسان أن يقدم الآيات التي عمل بها وحدها ويخفي ما تركه. الكتاب الذي جزأه في الدنيا سيقف كاملًا في ميزان الحساب.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قد تبدو المواقف السياسية والاجتماعية معقدةً بحيث ينجح المرء في إخفاء الخيانة داخل التفاصيل، لكن تعقيد المشهد لا يحجب حقيقته عن الله. يعلم أين كان الاجتهاد، وأين كانت المصلحة، وأين ارتدى الهوى ثوب التأويل.

الصفقة الكبرى: الحياة الدنيا مقابل الآخرة

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

مرة أخرى تعود لغة التجارة. لقد باعوا الآخرة وأخذوا الدنيا، لكن الآية لا تقول إنهم اشتروا نعمةً من نعمها؛ بل اشتروا **الحياة الدنيا** كلها بالآخرة. اختاروا النظام العاجل بقيمه ومصالحه وحساباته، وجعلوه المرجع الأعلى.

إن أخطر بيع للآخرة لا يقع حين يقول الإنسان بلسانه إنها غير موجودة، بل حين يعيش وكأنها لا تملك حق التدخل في قراراته. يقر بها في العقيدة، ثم يعزلها عن المال والسياسة والخصومة والعلاقة بالضعيف.

تصبح الآخرة مادةً للمواعظ، وتبقى الدنيا صاحبة القرار.

ومَن اختار الدنيا مرجعًا أعلى لن يترك الآخرة كلها من أجل شهوة ظاهرة دائمًا؛ قد يتركها من أجل أن يظل مقبولًا، أو يبقى في موقعه، أو يحمي نظامًا يعرف فساده.

المكاسب قد تبدو كبيرةً في لحظتها، لكن الصفقة تُقوَّم بما دُفع فيها، لا بما أخذه البائع وحده. ومن دفع الأبد ثمنًا لساعة لم يربح، وإن امتلك الساعة كلها.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

لأنهم عاشوا يستنصرون بالقوة والمصلحة والجماعة، فإذا جاء اليوم الآخر سقطت جميع الشبكات التي علقوا عليها أمانهم.

وهنا يكتمل وجه آخر من معنى قصة البقرة: لم يكن جدلهم في أمر الذبح حادثةً منعزلة، بل نمطًا يتكرر في علاقتهم بالوحي.

يسألون حين ينبغي أن يطيعوا.

ويحرِّفون حين يهددهم المعنى.

ويكتمون حين تصبح المعرفة حجةً عليهم.

ويتمنون حين يطالبهم الإيمان بالعمل.

ويأخذون من الكتاب ما يخدمهم، ويتركون ما يحاكمهم.

وهذه ليست أمراض أمة مضت وحدها؛ إنها احتمالات تقف على أبواب كل نفس وكل جماعة تحمل كتابًا.

فالكتاب قد يتحول في أيدي قوم من قوةٍ تغيرهم إلى نصوص يوظفونها كيلا يتغيروا. وهنا تقع الكارثة: أن يظن الإنسان أنه يخدم الوحي، بينما هو يجرّد الوحي من سلطانه عليه.

وسيواصل القرآن كشف هذا التاريخ: رسلٌ يتتابعون، وكلما جاء رسول بما لا تهوى النفوس استكبروا؛ فريقًا كذبوا وفريقًا قتلوا. ثم يدّعون أن قلوبهم محفوظة، وأن اللعنة لا تمسهم، وأن الإيمان الذي يحملونه يغنيهم عن الاستجابة للوحي الجديد.

لكن الحقيقة ستبقى أشد وضوحًا: **ليس المؤمن من يملك كتابًا فقط، بل من يسمح للكتاب أن يملك عليه قراره.**

الفصل الثامن

البقرة: الجدل الذي ذبح روح الطاعة

رسلٌ يتتابعون والهوى ثابت في موضعه

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

لم يتركهم الله بعد موسى عليه السلام بلا تذكير، بل أرسل الرسل يتبع بعضهم بعضًا، كأن أبواب الرحمة ظلت تُفتح أمامهم كلما أغلقوا بابًا.

﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾؛ جعلنا رسولًا يأتي على قَفَا رسول، تتوالى خطاهم في طريق واحد، ويتجدد بهم النداء كلما تراكم على القلوب غبار النسيان.

إن تتابع الرسل ليس دليل فشل الرسالة، بل دليل رحمة الله بالإنسان؛ فهو ينسى، ويحرف، ويبتعد، فيأتيه التذكير من جديد. ولو عومل الناس بأول إعراض لانقطع عنهم النداء، ولكن الرحمة كانت ترسل بعد الرسول رسولًا.

ثم خُصَّ عيسى عليه السلام بالذكر: **﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾**.

نسبه إلى أمه مريم الطاهرة؛ تأكيدًا لميلاده المعجز من غير أب، وردًّا على من افترى عليها، وفي الوقت نفسه بيانًا لبشريته وعبوديته لله. فهو ابن مريم، ورسول كريم، لا ابنٌ لله؛ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وآتاه الله الآيات الواضحة: يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون، وجاءهم مصدقًا لأصل التوراة ومجددًا لدعوة التوحيد.

﴿**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾، أي جبريل عليه السلام؛ أيده الله به وقوّاه. فالنبي في مواجهة التكذيب لا يقف وحده، وإن بدا في أعين الناس فردًا مستضعفًا؛ وراءه تأييد من السماء لا تراه حسابات الأرض.

ثم تأتي الآية بالسؤال الذي يكشف أصل الأزمة: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ**﴾.

لم تكن المشكلة في قلة الرسل، ولا في غموض البينات، بل في أن الوحي جاء بما لا تهوى الأنفس.

هنا يوجد موضع الصراع الحقيقي بين النبوة والهوى. فالإنسان قد يقبل من الوحي ما يوافقه، ثم يتصور أنه مؤمن بالوحي كله. لكن لحظة الامتحان تأتي حين يحمل الرسول حكمًا يصادم مصلحةً راسخة أو عصبيةً موروثة أو صورةً عظيمةً رسمتها النفس عن ذاتها.

في تلك اللحظة يتبين: هل الوحي هو الحاكم، أم الهوى؟

إن الهوى لا يرفض الدين دائمًا، بل قد ينتقي منه ما يزينه. يحب من الدين ما يمنحه الطمأنينة والتميز، ويكره ما يطالبه بالتواضع ورد الحقوق. يقبل الحديث عن فضائل جماعته، ويضيق بالنصوص التي تكشف عيوبها. يرضى بالرسول ما دام يوافق توقعاته، فإذا جاء بما لا يريد بحث عن طريقة لتكذيبه.

﴿**اسْتَكْبَرْتُمْ**﴾.

لم يقل: استشكلتم أو جهلتم؛ فالمشكلة في إرادة ترى نفسها أكبر من أن تنقاد. الاستكبار هو أن يعرف الإنسان موضع الحق، لكنه يرى النزول إليه نقصانًا في مقامه.

ومن الاستكبار أن يرفض العالم الاعتراف بصواب من هو دونه، أو يرفض الرئيس نصيحة تابع، أو تأنف الجماعة من مراجعة موقف لأن المراجع ليس من رجالها. لا يُرد الحق حينئذ لضعفه، بل لأن قائله لم يدخل من الباب الذي ترضاه النفس.

ثم ذكر المآل: ﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾.

يبدأ الطريق بالتكذيب، وقد ينتهي بالقتل. فحين تعجز النفس عن إسكات الحجة، قد تحاول إسكات حاملها. والباطل لا يكره الفكرة وحدها؛ يكره الصوت الذي يذكر الناس بها.

جاء الفعل ﴿**تَقْتُلُونَ**﴾ بصيغة المضارع، كأن الجريمة حاضرة بما بقي من آثارها وبما استمر من استعدادهم لها. فالتاريخ لا يمضي أخلاقيًا ما دام منطقه يتكرر.

القلوب المغلَّفة: حين يُجعل العجز فضيلة

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾

قالوا: **﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾**؛ وقد تعني أنها مغطاة لا يصل إليها ما تقوله، أو أوعية ممتلئة بالعلم فلا تحتاج إلى مزيد.

وفي المعنيين يظهر لون من الاستعلاء: إما أنهم يحتجون بأن قلوبهم مغلقة وكأن انغلاقها قدر يعفيهم من المسؤولية، وإما يدّعون أنها ممتلئة من العلم بحيث لا تحتاج إلى الرسالة الجديدة.

والإنسان قد يحوّل مرضه إلى حجة لصالحه. بدل أن يخاف من انغلاق قلبه يقول: هكذا أنا. وبدل أن يعالج تعصبه يسميه ثباتًا. وبدل أن يعترف بأن المعرفة توقفت عنده، يدّعي أنه بلغ حد الاكتفاء.

لكن القلب الذي يزعم أنه امتلأ بالعلم حتى لم يعد يقبل حقًا جديدًا لم يمتلئ بالعلم؛ امتلأ بنفسه.

جاء الرد: **﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾**.

ليست القلوب مغلقةً بغير سبب، بل أبعدهم الله عن رحمته بسبب كفرهم. اختاروا الرد والصد، فكان الانغلاق ثمرةً لما اختاروا.

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

يؤمنون ببعض، أو يكون إيمانهم قليلًا لا يبلغ حقيقة التسليم؛ يحتفظون من الوحي بما يوافق بناءهم القديم، ويرفضون ما يفتح عليهم باب مراجعة جديدة.

إن الإيمان المجزأ لا يعالج القلب؛ قد يزيده قدرةً على الدفاع عن انغلاقه.

الكتاب الذي كانوا يستفتحون به ثم أنكروه

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يستنصرون على المشركين بذكر النبي المنتظر، ويقولون إن زمانه قد اقترب، وإنهم سيتبعونه وينتصرون به.

كانوا يشتاقون إلى الرسالة ما دامت فكرةً في المستقبل، فلما جاءت في الواقع من خارج توقعاتهم كفروا بها.

وهذه من أعمق مفارقات النفس: قد تحب الحقيقة في صورتها المتخيلة، ثم ترفضها حين تأتيك في صورة لا تمنحك المركز الذي أردته.

كانوا ينتظرون النبي، لكنهم أرادوه من جماعتهم، تابعًا لميراثهم، مؤكدًا لامتيازهم. فلما جاء عربيًا من ذرية إسماعيل، يدعوهم إلى الدخول في أمة لا تحتكرها أعراقهم، تحولت البشارة القديمة إلى غيرة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

ما أقسى هذا التركيب: **عرفوا، ثم كفروا**.

لم يقل: لما جاءهم ما جهلوا. المعرفة كانت حاضرة، لكن القلب لم يحتمل نتائجها. فالحق الذي كانوا يستخدمونه لمواجهة خصومهم صار حين نزل يواجههم هم، وهنا تغير موقفهم منه.

من السهل أن تؤمن بالمبدأ حين يحاكم عدوك؛ أما صدق الإيمان فيظهر حين يأتي المبدأ نفسه ليحاكمك.

كم من إنسان يرفع راية العدل حين يكون مظلومًا، فإذا صار قادرًا ضاق بالعدل لأنه يمنعه من الانتقام! ويطالب بالشورى حين يكون خارج القرار، فإذا وصل إليه رأى النقد فتنة! ويمدح حرية الكلمة حين تخدم موقفه، ثم يسميها فوضى حين تكشف خطأه!

المبدأ الذي يتغير موقعه في قلبك بتغير مصلحتك لم يكن مبدأً كاملًا؛ كان سلاحًا مؤقتًا.

بئس ما باعوا به أنفسهم

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

لم تكتف الآية بقولها إنهم اشتروا الدنيا بالآخرة، بل قالت إنهم باعوا **أنفسهم**.

فالإنسان في كل اختيار أخلاقي لا يكسب شيئًا خارجيًا أو يخسره فقط؛ إنه يصنع نفسه. والقرارات المتكررة تنحت داخل الروح هيئةً ستلقى الله بها.

قد يكسب المرء منصبًا ويبيع نفسه، ويحفظ نفوذًا ويخسر حريته الداخلية، وينتصر في جدل ويهزم صدقه.

﴿بَغْيًا﴾.

لم يكن كفرهم ناتجًا عن غموض البرهان، بل عن الحسد والتجاوز: كرهوا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

وهنا بلغوا حد الاعتراض على توزيع الفضل الإلهي. كأن النبوة ملك موروث لهم، وكأن لهم أن يحددوا من يختاره الله لرسالته.

لكن الفضل فضل الله، لا استحقاق لجماعة. يعطيه سبحانه من يشاء بحكمته، ولا يملك أحد أن يحاسب الواهب على موضع هبته.

الحسد ليس ضيقًا بنعمة الإنسان الآخر وحدها؛ في باطنه اعتراض على المنعم الذي أعطاه. ولذلك يأكل الحاسد نفسه قبل أن يصل أذاه إلى المحسود. يعيش متألمًا من كل خير لم يمر عبره، وكأن العالم لا يحق له أن يزهر إلا في حديقته.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾.

غضب بسبب كفرهم السابق وتحريفهم، وغضب بسبب كفرهم بالرسول الذي عرفوه، فتراكمت المواقف كما تراكمت طبقات القسوة.

ثم قال: **﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**؛ لأن جريمتهم خرجت من الاستكبار، فناسبها الهوان. من استعلى على الحق أذله الله بالباطل الذي اختاره.

نؤمن بما أُنزل علينا

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

قالوا: **﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾**.

تبدو العبارة وفاءً للكتاب، لكنها تخفي عصبيةً للوحي. صار معيار القبول عندهم «علينا»، لا «أنزل الله». يؤمنون بما نزل داخل حدود جماعتهم، ويكفرون بما جاء من خارجها، وإن كان مصدره الله نفسه.

وهذا تحويل للدين من عبودية لله إلى هوية مغلقة. لا يعود المرء يسأل: هل هذا حق؟ بل: هل صدر عن جماعتنا؟ من قاله؟ إلى أي فريق ينتمي؟

وحين تتقدم هوية الجماعة على حقيقة الوحي، يستطيع الإنسان أن يرفض حقًا كاملًا لأن حامله من خارج أسواره، وأن يقبل باطلًا ظاهرًا لأنه نطق بلسان رجاله.

لكن القرآن قال عن الوحي الجديد:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

فالإيمان بالتوراة على حقيقتها كان يقتضي الإيمان بالقرآن؛ لأنه جاء مصدقًا لأصلها، مؤكدًا توحيدها، محققًا بشاراتها. ومن رفض المصدِّق لم يكن وفيًا لما معه، بل وفيًا للصورة التي صنعها عنه.

ثم احتج عليهم بتاريخهم: ﴿**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾.

لو كان تمسككم بما أُنزل عليكم صادقًا، فلم قتل أسلافكم الأنبياء الذين جاؤوا داخل أمتكم نفسها؟

إذن لم تكن المشكلة أن الرسول الجديد من غير بني إسرائيل فقط؛ المشكلة أعمق: كل نبي جاء بما لا يهوى المتسلطون واجهوه، سواء كان منهم أو من غيرهم.

فدعوى الوفاء للتراث قد تكون ستارًا لرفض سلطة الحق الحي. يمدح الناس الأنبياء بعد موتهم، ويبنون حول ذكراهم أمجادًا، لكنهم لو عاشوا بينهم ربما ضاقوا بصوتهم؛ لأن النبي الميت لا يطالبهم الآن بتغيير مصالحهم، أما حامل الحق الحي فيقف في طريق الانحراف.

كم يسهل تكريم المصلحين بعد أن يصيروا تاريخًا، ويصعب الإنصات إليهم حين يكونون شهودًا على الحاضر!

موسى والبينات ثم العجل

﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**﴾

يتكرر ذكر العجل؛ لأن بعض الأحداث لا تُستعاد لمجرد التذكير بالتاريخ، بل لأنها تكشف النمط الذي يفسر الحاضر.

يقولون: نؤمن بما أُنزل علينا. لكن موسى جاءهم بالبينات، ثم ما إن غاب حتى عبدوا العجل. فأين هذا الإيمان الذي يزعمون؟

﴿**مِنْ بَعْدِهِ**﴾ تحمل مرة أخرى معنى الجريمة بعد الحجة: من بعد موسى، ومن بعد الآيات، ومن بعد البحر، ومن بعد إعلان التوحيد.

القلب الذي لم يطهره التوحيد قد يحمل الكتاب ويخفي داخله عجلًا. وحين تتغير الظروف يخرج العجل من مخبئه.

والأصنام لا تموت بتكسير التماثيل وحده. قد يُكسر الحجر ويبقى في القلب توق إلى شيء محسوس يمنحه الأمن. وقد يُحرق العجل، ثم يصنع الإنسان عجلًا جديدًا من المال أو الزعامة أو الانتماء.

كل ما لا يستطيع الإنسان أن يقول أمامه «لا» حين يخالف أمر الله قد أخذ في قلبه موضعًا من سلطان العجل.

سمعنا وعصينا

﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾

عاد مشهد الميثاق والطور، لكن الآية تكشف هذه المرة استجابتهم الداخلية:

﴿**وَاسْمَعُوا**﴾؛ أي اسمعوا سماع قبول وطاعة.

فكان جواب الحال أو المقال: ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾.

ويا للمفارقة بين هذه الكلمة وخاتمة السورة التي سيقول فيها المؤمنون: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾!

بين العبارتين تقوم رحلة سورة البقرة كلها.

الجميع يسمع؛ لكن السماع ليس مقام التمييز النهائي. إنما الفارق فيما يأتي بعده: أيتبع السماعَ طاعة، أم تتبعه معصية؟

قد يسمع الإنسان الآية ويعجب بفصاحتها، ويحفظها، ويشرحها، ثم تقول حياته: سمعنا وعصينا. فالطاعة ليست تعليقًا على النص، بل برهانه في الواقع.

ثم جاءت الصورة العجيبة: ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**﴾.

لم يقل: أحبوا العجل فقط، بل صوّر حبه كشراب تخلل القلوب حتى امتزج بها. كما يشرب النسيج الماء، شربت القلوب تعلقها بالعجل.

إن الحب إذا دخل القلب لا يبقى فكرةً خارجية؛ يسري في النظر والحكم والاختيار. وما يشربه القلب يرى العقل العالم من خلاله.

وقد يُشرب القلب حب شخص أو جماعة أو مال حتى يصير عاجزًا عن رؤية عيوب ما أحب. لا يعود يزن المحبوب بالحق، بل يزن الحق بمقدار قربه من المحبوب.

ولذلك كان تطهير القلب أصعب من تحطيم الصنم؛ فالصنم الخارجي يمكن كسره في لحظة، أما صورته التي شربها القلب فتحتاج مجاهدةً طويلة.

﴿**قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ**﴾.

إن كان هذا هو الإيمان الذي تحتجون به، فما أسوأ ثماره! فالإيمان الحق لا يأمر بقتل الأنبياء ولا عبادة العجل ولا رد الوحي.

والآية تضع الدعوى أمام آثارها. لا يكفي أن تقول إنك مؤمن؛ انظر إلى ما يأمرك به إيمانك المزعوم. إذا كان يجعلك أكثر كِبرًا وظلمًا وتعصبًا وكذبًا، فثمة خلل في حقيقة ما تسميه إيمانًا.

الإيمان الصحيح لا يجعل صاحبه معصومًا من الخطأ، لكنه يجعله أسرع رجوعًا، أشد خوفًا من الظلم، وأقل قدرةً على الطمأنينة إلى الذنب.

فتمنوا الموت إن كنتم صادقين

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

ادعوا أن الآخرة خالصة لهم، وأن الجنة حق خاص لا يشاركهم فيه سواهم. فجاء الاختبار الذي يكشف الفرق بين ما يقوله اللسان وما يطمئن إليه القلب:

إذا كنتم على يقين بأن الجنة لكم وحدكم، فلماذا تتعلقون بالحياة إلى هذا الحد؟ تمنوا الانتقال إلى ما تزعمون أنه خير خالص لكم.

وليس المقصود أن تمني الموت مطلوب للمؤمن؛ فقد نهى النبي ﷺ عن تمني الموت لضر نزل بالإنسان. وإنما هي محاجة خاصة تكشف كذب دعواهم. من زعم ضمان الجنة الخالصة ثم ارتعب من مغادرة الدنيا، فقد فضح خوفه ما أخفاه كلامه.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

لا يخافون الموت لأنهم يحبون الحياة وحدها، بل لأن شيئًا في داخلهم يعرف ما أعدته الأيدي. قد يخدع الإنسان الناس، لكن في أعماقه شاهد لا ينام تمامًا. ولهذا يضطرب عند النهاية؛ لأن الأقنعة لا تعبر معه القبر.

قال: **﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾**. العمل يسبق صاحبه إلى الآخرة. نحن نظن أننا نترك أفعالنا خلفنا بعد انتهائها، لكنها في الحقيقة تذهب أمامنا وتنتظرنا.

كل كلمة قلتها، وكل حق منعته، وكل قلب كسرته، وكل خير صنعته خفيةً؛ شيء من ذلك يتقدمك إلى الموعد.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

يعلم الدعوى، ويعلم الخوف الذي ينقضها، ويعلم تاريخ الأيدي الذي جعل الموت ثقيلًا.

أحرص الناس على حياة

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

لم يقل: أحرص الناس على **الحياة** بالألف واللام، بل قال: **﴿عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾**؛ أي حياة، مهما كانت صورتها، ولو كانت ممتدةً بلا معنى. فحين تضطرب العلاقة بالآخرة يصبح البقاء قيمةً مستقلة، حتى لو تحول العمر إلى مجرد تأجيل.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

الألف هنا صورة لأقصى ما يتخيله الإنسان من طول العمر. لكنه لو مُنح الألف، ماذا بعد آخر يوم منها؟ سيظل الموت واقفًا عند النهاية.

الزمن لا يحل أزمة المصير؛ يؤجل المواجهة فقط. ومن لم يصالح نفسه مع الله لن تنقذه كثرة السنوات، بل قد تزيد ما يتراكم في صحيفته.

ليس السؤال: كم عشت؟ بل: ماذا صنعت بالحياة؟

وقد يكون العمر القصير ممتلئًا حتى يزن قرونًا، وقد تمتد السنوات فارغةً فلا تترك في الأرض إلا رقمًا بين تاريخين.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾.

العمر لا يزحزح الإنسان عن الحساب؛ الذي يزحزحه عن النار إيمان صادق وعمل صالح ورحمة من الله. أما السنين وحدها فليست مسافةً تبعده عن الآخرة؛ كل سنة تزيده قربًا منها.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

بصير لا بمظاهر الحياة وحدها، بل بما يصنعونه خلالها. ليست قيمة العمر في امتداده أمام البصر البشري، بل في العمل الذي يراه الله.

من كان عدوًا لجبريل

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

زعم بعضهم أن جبريل عدو لهم؛ لأنه ينزل بالحرب أو الشدة، وأنهم لو كان الذي جاء بالرسالة ملكًا آخر لآمنوا.

إنها محاولة أخرى لنقل المشكلة من الرسالة إلى حاملها. حين يعجز الإنسان عن رد الحق، قد يهاجم الواسطة التي حملته. لا يريد أن يقول: أرفض كلام الله، فيقول: لا أقبل من هذا الرسول أو هذا الملك.

لكن جبريل لا ينزل من عند نفسه: **﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**.

العداء لرسول الوحي بسبب ما حمله عداء للأمر الذي جاء به من عند الله. فالملَك أمين يؤدي رسالته، لا يصوغها بهواه.

وتأمل قوله: **﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾**.

القرآن نزل على قلب النبي ﷺ؛ موضع الوعي والتلقي والثبات. لم يكن معلومات أُلقيت في ذاكرته، بل وحيًا استقر في مركز كيانه، حتى صار خُلُقه وحياته.

وهذه إشارة لكل قارئ: القرآن لا يبلغ غايته حين يقف عند السمع أو اللسان، بل حين ينزل على القلب، فيعيد ترتيب الحب والخوف والإرادة.

ثم وصفت الآية القرآن بثلاث صفات:

﴿**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾: يتصل بموكب الوحي السابق ويشهد لأصوله.

﴿**وَهُدًى**﴾: يبين الطريق.

﴿**وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾: يمنح السائرين رجاء الوصول.

القرآن لا يدل على الطريق ببرودة الخريطة؛ يملأ الطريق بالبشرى أيضًا. فالتكليف مهما ثقل تحمله نفس تعلم أن وراءه لقاءً كريمًا.

عداوة سلسلة النور كلها

﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾

لا يمكن للإنسان أن يختار من منظومة الحق ما يحبه، ثم يعادي بقية حلقاتها. الله واحد، وملائكته عباده، ورسله حملة وحيه. والعداء لواحد منهم من أجل رسالته ليس موقفًا منفصلًا؛ إنه قطع للسلسلة كلها.

وخص جبريل وميكال بالذكر بعد دخول الملائكة في العموم، ردًا على من فرقوا بينهما وادعوا موالاة أحدهما ومعاداة الآخر.

إن العقيدة لا تقبل ولاءً انتقائيًا. لا يصح أن يحب الإنسان صورةً من الدين لأنها توافق مزاجه، ويعادي صورةً أخرى ثابتةً لأنها تكلفه.

ثم جاء الجزاء: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾.

وعداوة الله على الوجه اللائق بجلاله، ليست كعداوة المخلوق، تعالى سبحانه عن المماثلة؛ وإنما تقتضي غضبه وعقابه وخذلانه لمن عادى أولياءه ووحيه.

وأي خسارة أعظم من أن يختار الإنسان خصومةً يكون الله في الجانب الآخر منها؟

آيات بينات لا يرفضها إلا الفاسقون

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾

الآيات بينات في ذاتها، لكن وضوح الدليل لا يجبر القلب على الإذعان. يبقى للإنسان اختيار أخلاقي في طريقة استقباله.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

الفسق خروج؛ خرجوا عن العهد، ثم صار خروجهم السابق سببًا في رفض آيات جديدة. فالمواقف الأخلاقية لا تبقى معزولة؛ ذنب اليوم قد يغير طريقة رؤية الإنسان لحق الغد.

من اعتاد مخالفة ما يعرف، سيصبح من مصلحته النفسية أن يشكك في المعرفة نفسها؛ لأن بقاء الحقيقة واضحة يؤلمه. وهكذا يتحول الفسق من فعل في الجوارح إلى غشاوة على البصيرة.

ليست الطاعة أثرًا للإيمان وحده؛ إنها أيضًا حارسة له. وكل طاعة تحفظ في القلب حساسيته للنور، وكل إصرار على المعصية يضعف قدرته على رؤيته.

كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿أَوَكُلَّمَا﴾ تحمل معنى التكرار الموجع. ليست المشكلة عهدًا واحدًا نُقض في لحظة ضعف، بل نمطًا يتجدد كلما تجدد العهد.

والنبذ هو الطرح والإلقاء. لم ينسوا العهد مصادفةً؛ ألقوه كما يُلقى الشيء الذي لا قيمة له.

قد تبقى وثيقة العهد محفوظةً في الخزانة، بينما تكون قد نُبذت من القرار. وتبقى المبادئ مكتوبةً في النظام، لكنها لا تدخل غرفة المصالح. وحين يأتي الامتحان، يتذكر الناس ما يخدمهم وينسون ما يقيدهم.

والعهد الذي لا يملك سلطةً عند التعارض مع المصلحة ليس عهدًا حيًا؛ إنه زينة أخلاقية.

ومع ذلك قال: **﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾** إنصافًا لمن لم يفعل؛ فالقرآن دقيق في أحكامه، لا يحمل الفرد ذنب الجماعة بلا بينة، ولا يذيب الصالح في وصف الأكثرية.

ثم قال: **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**؛ لأن نقض العهد المتكرر ليس خللًا هامشيًا، بل علامة على أن الإيمان لم يستقر في موضع القيادة.

كتاب الله وراء الظهور

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

من قبل نبذوا العهد، وهنا نبذوا الكتاب نفسه وراء ظهورهم.

الصورة بالغة القوة: كتاب الله موجود، لكنهم وضعوه خلف الظهر، في الموضع الذي لا تراه العين ولا يقود الحركة.

لم يحرقوه بالضرورة، ولم يعلنوا إنكاره كله؛ ربما ظلوا يتلونه ويعتزون بالانتساب إليه، لكنه لم يعد أمامهم ليحدد الوجهة.

قد يكون الكتاب حاضرًا في الاحتفال، غائبًا عن القرار.

حاضرًا في الخطب، غائبًا عن السوق.

حاضرًا عند دفن الموتى، غائبًا عن بناء حياة الأحياء.

وهذا هو النبذ الأخطر: أن تبقي النص قريبًا من يدك، وتبعده عن سلطانك.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

كانوا يعلمون، لكن فعلهم فعل الجاهل. والعلم الذي لا يظهر له أثر في الموقف يصبح من جهة العمل كأنه عدم.

وقد تكون عقوبة العلم المهجور أن يفقد صاحبه بركته؛ يحفظ الألفاظ، لكن لا يعود يرى نفسه في مرآتها. يقرأ الوعيد فيظنه لغيره، ويقرأ الأمر فيحوله

إلى موضوع شرح، ويقرأ قصص المنحرفين دون أن يسأل عن الشبه بينه وبينهم.

إن وضع الكتاب وراء الظهر لا يعني دائمًا ترك قراءته؛ قد يعني قراءته بطريقة لا تسمح له أن يقف في وجه الهوى.

ما تتلو الشياطين على ملك سليمان

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾

حين وضعوا كتاب الله وراء ظهورهم لم يبق الفراغ فارغًا. الإنسان إذا أعرض عن الوحي لا يعيش بلا مرجع؛ يتبع بديلًا.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾.

تركوا الكتاب المنزل من السماء، واتبعوا ما تروجه الشياطين. وهذه سنة: من ضاق بالحقيقة لا يتحرر منها إلى حياد، بل يقع غالبًا في أسر خرافة أو هوى أو سلطة أخرى.

ونسب بعضهم السحر إلى سليمان عليه السلام، وزعموا أن ملكه قام عليه. فبرأه الله: **﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾**.

لم يكن تسخير الجن والريح لسليمان سحرًا، بل معجزةً وهبةً من الله. والنبي الكريم لا يبني ملكه على الكفر والشعوذة.

﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

جاء الاستدراك ليعيد التهمة إلى موضعها. سليمان نبي موحد، والشياطين هم الذين كفروا بتعليم الناس السحر.

والسحر ليس معرفةً بريئة؛ منه ما يقوم على الاستعانة بالشياطين، والتقرب إليهم بالكفر والمعاصي، وقلب علاقة الإنسان بالغيب إلى سوق مظلم للخوف والسيطرة والإضرار.

إن الإنسان حين يبتعد عن نور الوحي لا يتوقف عن طلب القوة؛ لكنه قد يبحث عنها في المسالك التي تهدم روحه. يريد السيطرة على المجهول، فيسلم نفسه لمن يستعبده بالخوف.

هاروت وماروت: امتحان المعرفة قبل استعمالها

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

ذكر الله ما أنزل على الملكين هاروت وماروت في بابل على وجه الابتلاء والتمييز، وكانا لا يعلّمان أحدًا حتى يقدما له التحذير الصريح: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾.

قبل المعرفة إنذار، وقبل القدرة مسؤولية. فلا يستطيع المتعلم أن يقول: لم أعرف الخطر. لقد وُضع التحذير عند الباب.

وهنا يكشف القرآن أن المعرفة ليست خيرًا لمجرد كونها معرفة؛ قيمتها الأخلاقية تتصل بموضوعها وغايتها وطريقة استعمالها. هناك علم يحيي، وعلم يُتخذ طريقًا إلى الإضرار والكفر.

قدرة الإنسان على معرفة الكيفية لا تعني أن له حق الفعل. يستطيع أن يصنع، لكن السؤال: هل ينبغي أن يصنع؟ يستطيع أن يؤثر في عقول الناس، لكن هل يجوز أن يسلبهم حريتهم بالخداع؟ يستطيع أن يجمع عنهم المعلومات، لكن هل يملك حق استعمالها في الإيذاء؟

كل قوة بلا ضمير فتنة.

﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾.

التحذير واضح، لكن الفتنة لا تلغي الاختيار. يُبيَّن الطريقان ثم يختار الإنسان. وكثير من السقوط لا يقع بسبب غياب اللافتة، بل لأن الشهوة كانت أعلى صوتًا منها.

سحرٌ يضرب موضع السكن

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾

اختارت الآية من آثار السحر تفريق الزوجين؛ لأن الأسرة موضع السكن، والتفريق بينهما هدم لبيت كامل من داخله.

لا يكتفي الشر بإيذاء الفرد؛ يبحث عن الرابطة التي تمنحه الأمان، فيضربها. فإذا انكسر ما بين الزوجين، لم يتألم شخصان وحدهما؛ قد يهتز الأطفال، وتضطرب البيوت، وتمتد آثار الجرح إلى أجيال.

وما أبشع أن يتعلم الإنسان معرفةً غايتها تفريق قلبين! العلم الذي كان ينبغي أن يعمر العالم يتحول في يده إلى أداة لهدم السكينة.

لكن السحر ليس التفسير الوحيد لكل خلاف زوجي، ولا يجوز للإنسان أن ينسب كل اضطراب إليه فيترك الأسباب الواقعية من ظلم وسوء تواصل ومرض نفسي وتقصير. الإيمان بوجود السحر لا يعني تحويله إلى جواب جاهز يبتلع المسؤولية البشرية.

فالقرآن يثبت الحقيقة، لكنه لا يفتح باب الوهم بلا ضابط.

لا يضرون إلا بإذن الله

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

بعد ذكر أثر السحر جاء التصحيح الذي يحرس قلب المؤمن من الرعب:

الساحر لا يملك قوةً مستقلة، والشيطان لا يتصرف خارج ملك الله. ولا يقع شيء إلا بإذن الله الكوني القدري، لا بمعنى رضاه عنه أو محبته له؛ فالله لا يحب الكفر والفساد، لكنه قد يقدّر وقوعهما لحكمة وابتلاء.

هذا التمييز ضروري: ما يأذن الله بوقوعه قدرًا ليس كله مما يأمر به شرعًا. يقع الظلم في ملكه، لكنه حرمه. ويقع الكفر بمشيئته الكونية، لكنه لا يرضاه لعباده.

وقوله: ﴿**إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ يعيد الخوف إلى حجمه. نأخذ بالأسباب المشروعة، ونتحصن بالذكر والقرآن والدعاء، ولا نُسلم قلوبنا للهلع؛ لأن النافع والضار على الحقيقة هو الله.

من ظن أن الساحر يملك مصيره استقلالًا فقد منحه في قلبه أكبر من حجمه. والمؤمن لا ينكر السبب، لكنه لا يعبد السبب بخوفه.

معرفةٌ تضر ولا تنفع

﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾

ليس كل ما يمكن تعلمه جديرًا بأن يُتعلم. المعرفة تُوزن بميزان الحق والنفع والمآل، لا بمجرد الجدة والإثارة والقدرة.

﴿**مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ**﴾.

بدأ الضرر بهم قبل أن يصل إلى ضحاياهم؛ فكل شر يفعله الإنسان في غيره يترك أولًا سوادًا في نفسه. قد يظن أنه امتلك أداة تؤذي عدوه، لكنه في الحقيقة سمح للأداة أن تؤذي فطرته وإيمانه.

ثم قال: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا**﴾.

مرة أخرى يعود العلم الذي لم يمنع صاحبه. كانوا يعلمون أن من اختار هذا الطريق لا نصيب له في الآخرة، ومع ذلك اشتروا السحر وباعوا أنفسهم.

ثم قال في ختام الآية: ﴿**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾، مع أنه قال قبلها: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا**﴾.

كأن هناك علمًا وصل إلى الذهن، وعلمًا لم يتحول إلى حقيقة فاعلة في القلب. علموا الخبر، لكنهم لم يعلموه العلم الذي يغير الاختيار. فالمعرفة التي لا تحكم السلوك تشبه الجهل في نتيجتها.

ما أكثر ما يعرف الإنسان ثم يعيش كأنه لا يعرف!

يعرف أن العمر قصير ويضيعه.

ويعرف أن الظلم سيعود عليه ويمارسه.

ويعرف أن الله يراه، ثم يختار خلوة المعصية.

ليست أزمتنا كلها نقصًا في المعلومات؛ أحيانًا هي عجز المعلومة عن النزول إلى موضع الإرادة.

لو أنهم آمنوا واتقوا

﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾

بعد هذا التاريخ من التحريف والعهد المنبوذ والسحر، لا يزال باب العودة مفتوحًا: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا**﴾.

لم يقل: فات الأوان لأن سجلهم طويل. إن الإيمان والتقوى قادران ـــ بإذن الله ـــ على افتتاح صفحة جديدة. الوحي لا يحبس الإنسان في أسوأ ماضيه إذا صدق في الرجوع.

﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

ما عند الله خير من القوة التي طلبوها بالسحر، ومن المال الذي اشتروا به الآيات، ومن التفوق الذي أرادوه بحسد النبوة، ومن كل مكسب حفظوه بنقض العهد.

الثواب من الله ليس تعويضًا صغيرًا عما تركه الإنسان لله؛ إنه الخير الحقيقي الذي كانت النفس تبحث عنه في الطرق الخاطئة. كانوا يريدون القوة، والأمان، والرفعة؛ لكنها حين طُلبت من أبواب الكفر صارت هلاكًا، ولو طلبوها بالإيمان والتقوى لوجدوا عند الله ما هو خير.

وهنا تقف الآيات أمام قارئها بسؤال لا يخص السحر وحده:

ما الذي تعرف أنه يضرك، ومع ذلك تظل تتعلم طرائقه وتقترب من أبوابه؟

ما القوة التي تطلبها بثمن من روحك؟

وما الشيء القليل الذي اشتريت به نفسك ثم أقنعتها أنك ربحت؟

لقد نبذ قوم كتاب الله فاتبعوا كتب الشياطين. وهذه ليست مصادفة في ترتيب الآيات؛ فالقلب لا يحتمل فراغ المرجعية طويلًا. إذا أخرج الوحي من مركزه، دخلت الأسطورة أو الشهوة أو الإنسان المتأله لتحتل المقعد.

لذلك ليست النجاة في أن ترفض الباطل وحده، بل أن تملأ القلب بالحق. فالبيت الذي لا يضاء لا يحتاج الظلام إلى دعوة كي يدخله.

ومن هنا ستنتقل السورة إلى تربية الأمة المؤمنة نفسها: كيف تخاطب نبيها، وكيف تحرس ألفاظها من التلاعب، وكيف تفهم النسخ، وكيف تواجه حسد أهل الكتاب، وكيف تقيم صلتها بالله بالصلاة والصبر.

فبعد أن كشف القرآن أمراض الأمة السابقة، يلتفت إلى الأمة الجديدة كأنه يقول:

لا تقرؤوا تاريخهم بوصفه قصة نهايتهم، بل بوصفه تحذيرًا من بدايتكم.

الفصل التاسع

البقرة: الجدل الذي ذبح روح الطاعة

كلمةٌ واحدة قد تحمل وراءها قلبًا كاملًا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

بعد أن عرضت السورة انحرافات بني إسرائيل، التفت الخطاب إلى المؤمنين. كأن القرآن لا يريد منهم أن يقفوا متفرجين على تاريخ غيرهم، بل أن يدركوا أن أمراض الأمم يمكن أن تعبر الحدود، وأن الأمة الجديدة لا تُعصم بمجرد اسمها.

بدأت التربية بكلمة: ﴿**لَا تَقُولُوا رَاعِنَا**﴾.

كان المؤمنون يقولون للنبي ﷺ: راعنا؛ أي تمهّل بنا وانتظر حتى نفهم. وهي في أصلها محتملة لمعنى صحيح، لكن اليهود كانوا يلوون بها ألسنتهم ويقصدون معنىً من السخرية والانتقاص، فنُهي المؤمنون عنها، وأُمروا بلفظ واضح لا مدخل فيه للتلاعب: ﴿**وَقُولُوا انْظُرْنَا**﴾.

قد تبدو المسألة صغيرة؛ لفظ بدل لفظ. لكن الوحي يربّي الأمة على أن اللغة ليست غلافًا محايدًا. الكلمات تحمل تاريخًا وظلالًا ومقاصد، وقد يكون اللفظ صحيحًا في أصل اللغة ثم يصير منفذًا يستخدمه أهل السوء للإيذاء.

والإيمان ليس معنىً في القلب فحسب؛ له لسان ينبغي أن يتطهر. الكلمة قد تفتح باب الأدب، وقد تترك ثغرةً يدخل منها الاستهزاء.

إن اللسان أسبق الجوارح إلى كشف ما في الداخل. ورب كلمةٍ قالها الإنسان مستخفًا بها أظهرت من قلبه ما كان يظنه مستورًا.

ثم قال: ﴿**وَاسْمَعُوا**﴾.

ليس المقصود تبديل الكلمة فقط، بل تصحيح طريقة التلقي. لا تجعلوا طلب الإعادة بديلًا عن حسن الإصغاء. افتحوا أسماعكم وقلوبكم للوحي، فإن السماع الصادق يقلل حاجة الإنسان إلى الجدل المماطل.

وقد مر بنا قول بني إسرائيل: ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾. وهنا تُدعى الأمة الجديدة إلى سماع من نوع آخر؛ سماع يبدأ بالأدب وينتهي بالطاعة.

الحسد حين يكره وصول الرحمة إلى غيره

﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾

تجمع الآية فريقين اختلفت عقائدهم، واتفق بعضهم في موقفهم من الرسالة الجديدة: لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خير من ربهم.

والخير هنا يتقدمُه حرف الاستغراق: ﴿**مِنْ خَيْرٍ**﴾؛ أي يكرهون أن يصلكم شيء من خير الوحي والنبوة والهداية.

الحاسد لا يتألم لأن النعمة تنقصه، بل لأن غيره نالها. وقد تكون النعمة لا تزاحمه في شيء، ومع ذلك يضيق بها؛ لأن المشكلة ليست في مقدار ما يملك، بل في الصورة التي يريدها لترتيب الناس حوله.

إن الحسد رفض صامت لحرية الفضل الإلهي. يريد الحاسد من الله أن يعطي وفق الخريطة التي رسمها هو للمستحقين، وأن تمر النعم من البوابة التي يقف عليها.

فجاء الرد: ﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾.

الرحمة ملكه، والفضل فضله، والعباد عباده. يعطي سبحانه بحكمته، ولا يملك أحد أن يحاصر عطاياه داخل نسب أو أمة أو مؤسسة.

ومن عرف أن الفضل من الله لم يحسد؛ لأنه يعلم أن خزائن الله لا تنقص بما أعطى غيره، وأن النعمة التي نزلت على أخيه ليست مقتطعةً من رزقه.

الحسد ينشأ من ضيق النظر إلى خزائن لا تنفد. كأن الحاسد يرى الخير رغيفًا واحدًا؛ إذا وصل إلى غيره جاع هو. أما المؤمن فيعرف أن واهب النعمة ﴿**ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

النسخ: المشرّع الذي يعلم حاجات الطريق

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

اعترض بعض أهل الكتاب على وقوع النسخ في الأحكام، كأن تغيير الحكم في مرحلة من مراحل التشريع دليل على جهل سابق أو تراجع، تعالى الله عن ذلك.

لكن النسخ ليس انتقالًا من خطأ إلى صواب، بل انتقال بالعباد من حكم أدى حكمته في وقته إلى حكم يناسب مرحلةً أخرى في التربية. الذي تغير هو حال التكليف وزمنه، لا علم الله.

فالطبيب البشري قد يغيّر العلاج لأنه اكتشف خطأه، أما التشريع الإلهي فينتقل بالناس وفق علم سابق كامل بأحوالهم ومراحل بنائهم.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

خير منها للعباد في زمانها؛ أخف أو أثقل بحسب ما تقتضيه الحكمة، أكثر ثوابًا أو أصلح لحال الأمة. فليس الخير دائمًا في الأخف؛ قد يكون الحكم الأثقل خيرًا لأنه يبني قوةً تحتاج إليها النفوس، وقد يكون الأخف خيرًا لأنه يرفع حرجًا انتهت حكمته.

إن الطفل يتعلم بمرحلة، ثم ينتقل إلى ما فوقها. لا يعني الانتقال أن المرحلة الأولى كانت عبثًا، بل يعني أنها أدت مهمتها.

والنسخ يربي المؤمن على أن قداسة الأمر متصلة بالله الآمر، لا بالصورة التي اعتادها الإنسان. فقد يتعلّق الناس بشكل من أشكال التكليف حتى ينسوا أن العبودية ليست للشكل، بل لمن شرعه.

إذا نقلهم الله من حكم إلى حكم، كان صدقهم في الانتقال معه، لا في التمسك بما ألفوه بدعوى الوفاء.

ثم ختمت الآية بالقدرة: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

فالذي يخلق الأحوال ويعلمها قادر على أن يشرع لكل طور ما يلائمه، ولا يقيده تشريع سابق لأنه المالك الحكيم.

الملك لله والحماية منه

﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾

بعد القدرة يأتي الملك. فحق التشريع متصل بحقيقة الملك: من خلق السماوات والأرض وملكهما هو الذي يأمر وينهى.

الإنسان يريد أحيانًا الانتفاع بملك الله مع الاعتراض على حكمه؛ يعيش فوق أرضه، ويأكل من رزقه، ويستعمل الجسد الذي خلقه، ثم يتصرف كأن له استقلالًا أخلاقيًا كاملًا عن المالك.

لكن العبودية ليست اقتراحًا خارجيًا على الإنسان؛ هي الحقيقة الكامنة في وجوده. هو مملوك لله قبل أن يعترف، وفقير إليه قبل أن يسجد.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الولي هو القريب الذي يتولى الأمر، والنصير من يدفع الأذى. جمعت الآية بين الرعاية والنصرة، ونفتهما استقلالًا عمن دون الله.

ليس المعنى أن الإنسان لا يستعين بالناس فيما يقدرون عليه؛ فقد جعل الله بعضهم أسبابًا لبعض. وإنما لا يجعل لهم في قلبه مقام الولاية المطلقة أو القدرة المستقلة. فكل نصير مخلوق لا ينصر إلا بما أقدره الله، وكل قريب يمكن أن يعجز أو يغيب.

أما الله فلا يعجزه ما يؤلمك، ولا يغيب عنه موضعك.

لا تجعلوا سؤالكم طريقًا إلى التمرد

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

لقد سأل بنو إسرائيل موسى أسئلة لم تكن كلها طلبًا للمعرفة: **﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾**، و ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا﴾، وتعنتوا حتى ضيّقوا على أنفسهم.

فحذر الله المؤمنين من أن تتحول أسئلتهم إلى استنساخ لذلك المسار.

السؤال في الإسلام طريق إلى العلم، والقرآن نفسه يدعو إلى التفكر، لكن السؤال يفسد حين يصبح اختبارًا للرسول، أو طلبًا لما لا حاجة إليه، أو محاولةً لفرض صورة معينة من البرهان على الله.

ليس كل سؤال بريئًا لمجرد أنه انتهى بعلامة استفهام. النية قد تجعل السؤال عبادةً، وقد تجعله مراوغة.

يسأل المؤمن ليتعلم كيف يطيع.

ويسأل المتعنت ليجد سببًا يؤجل به الطاعة.

ثم قال: ﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾.

إنه استبدال جديد: يملك الإيمان ثم يأخذ الكفر مكانه. و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وسط الطريق المستقيم وواضحه؛ فقد لا يضل الإنسان لأن الطريق غامض، بل لأنه غادر وسطه عمدًا إلى حواشٍ صنعها الجدل والهوى.

ودُّوا لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا

﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾

تكرر لفظ ﴿**كَثِيرٌ**﴾ حفظًا للعدل؛ فالقرآن لا يعمم الذم على من لم يستحقه. لكنه يكشف أن عددًا كبيرًا لم يكتف برفض الإيمان لنفسه، بل تمنى أن يفقده المؤمنون أيضًا.

هذا هو الحسد حين يتجاوز الألم الداخلي إلى مشروع لإطفاء النور في غيره.

﴿**مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ**﴾: لا يريدون منعكم من بداية الطريق فحسب، بل ردكم بعد أن ذقتم الهدى. فالشيطان لا ييأس من الإنسان لأنه اهتدى؛ ربما كان إسقاطه بعد الهداية أشهى لأهل الباطل، لأنه يجعل سقوطه حجةً على الطريق نفسه.

لكن الدافع ليس قوة البرهان: ﴿**حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**﴾.

خرج المرض من الداخل، لا من غموض الحق.

﴿**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾.

مرة أخرى: البيان قائم، لكن الإرادة فاسدة. وهذه الآيات تكرر المعنى حتى يرسخ: ليست كل معركة مع الحق معركة أفكار؛ وراء بعضها جراح كِبر ومصالح وحسد لا يعالجها الدليل وحده.

قد تهزم الحجة، ويبقى الحسد واقفًا.

ولهذا يحتاج الداعية إلى فهم النفس، لا إلى جمع البراهين فقط. فقد يظن أن مزيدًا من الشرح سيحل كل اعتراض، بينما المعترض يعرف صحة ما تقول، لكنه يخاف ما سيخسره إذا اعترف.

العفو الذي ليس استسلامًا

﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾

أُمر المؤمنون في تلك المرحلة بالعفو والصفح عن أذى كثير، انتظارًا لأمر الله وما يشرعه في وقته.

العفو ترك المؤاخذة، والصفح أوسع؛ أن تتجاوز الصفحة فلا تظل حبيس الأذى. قد يعفو الإنسان بيده، لكنه يبقي الجرح مشتعلًا في قلبه، فجاء الصفح ليحرر الداخل أيضًا.

ولا يعني العفو إقرار الباطل أو تسليم الأمة نفسها لمن يريد ردها عن إيمانها. إنما هو حكم مرحلي وتربية على ضبط رد الفعل؛ فلا يدفعهم عدوان الخصم إلى أن يتحول الغضب فيهم إلى فوضى.

القوة التي لا تستطيع أن تصبر حتى يأتي وقت الفعل المناسب ليست قوةً ناضجة. إنها انفعال يحمل السلاح قبل أن يحمل الحكمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

اختمرت القدرة في نهاية الأمر بالعفو حتى لا يظن المؤمن أن الصفح ناشئ عن ضعف الله عن نصرتهم. إنهم يعفون امتثالًا، لا عجزًا، وينتظرون أمر القادر، لا فرصةً قد لا تأتي.

وقد يكون العفو أحيانًا مظهر القوة الأصفى؛ فالضعيف قد لا ينتقم لأنه لا يستطيع، أما القادر الذي يملك نفسه عند الغضب فقد اختار العفو من موضع اقتدار.

ما تقدموا لأنفسكم تجدوه عند الله

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

بعد كشف مخططات الآخرين، يعيد القرآن المؤمنين إلى مهمتهم. لا ينبغي أن يستنزفهم النظر في حسد الخصوم حتى ينسوا بناء أنفسهم.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

الصلاة تعيد بناء القلب، والزكاة تعيد بناء المجتمع. فلا يكفي أن تعرف الأمة من يعاديها؛ يجب أن تعرف كيف تقيم نفسها.

قد ينشغل الإنسان بعدوه حتى يتشكل وعيه كله حوله. يصبح خصمه مركز حياته: يقرأ من أجله، ويتكلم عنه، ويقيس أفعاله برد فعله. وهكذا يمنح العدو سلطةً داخلية لم ينلها بالقوة.

القرآن يحرر المؤمن من هذا الأسر: اعرف الخطر، لكن لا تجعل الخطر قبلتك. قبلتك الصلاة، ومهمتك الخير، ووجهتك الله.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

حين تعطي الفقير، يبدو المال خارجًا منك إليه، لكن القرآن يقول إنك تقدمه **لنفسك**. المحتاج يأخذ نفعه في الدنيا، وأنت تدخر نفعك عند الله.

إن العمل الصالح لا يغادر صاحبه، حتى لو وصل أثره إلى آلاف الناس. كل خير ترسله أمامك يتحول إلى لقاء ينتظرك.

وقد ينسى الإنسان معروفًا صنعه، لكن الله لا ينساه. وربما ضاع أثره في أعين الناس، أو جحده المستفيد، لكنه وصل إلى موضع لا يضيع فيه:

﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

لن تجده خبرًا في كتاب فقط، بل تجده حاضرًا، محفوظًا، وقد نما بفضل الله أضعافًا.

الجنة ليست دعوى جماعية

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

قال اليهود: لا يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقال النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانيًا. وكل فريق أغلق باب الجنة من الداخل، ثم سلّم مفاتيحها لجماعته.

لكن القرآن سمى هذه الدعوى باسمها الحقيقي: **﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾**.

ليست خبرًا من الله، بل أمنية أنتجتها العصبية. والجملة القصيرة تهدم بناءً طويلًا من الغرور.

ثم وضع ميزان المعرفة: **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

الدعوى الدينية لا تكتسب الصحة من كثرة المرددين، ولا من قِدمها، ولا من شعور أصحابها بالاطمئنان. أين البرهان؟

هذا سؤال يحرر العقل من هيبة الموروث حين يخالف الوحي. فقد يرث الإنسان فكرةً يظنها من الدين، ثم لا يعرف لها أصلًا إلا أن الناس من حوله قالوها طويلًا.

والأمنية لا تصير برهانًا إذا عمرت قرونًا.

إن القرآن يريد إيمانًا يطمئن بالحق، لا بالانتماء. ولذلك يطالب كل دعوى كبرى بوثيقتها. فمن يتحدث باسم الله لا يكفيه أن يرفع صوته؛ عليه أن يأتي بما يدل على أن الله قال ما ينسبه إليه.

الوجه الذي أسلم لله واليد التي أحسنت

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

بعد نفي الأماني جاء تعريف أهل النجاة: **﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾**.

الوجه أشرف ما يظهر من الإنسان، وبه يتوجه ويُعرف. وإسلام الوجه يعني تسليم الذات والوجهة لله؛ ألا يبقى في القلب مركز أعلى من أمره.

لم يقل: من انتسب، بل من أسلم.

ولم يقل: من تكلم، بل من وجّه نفسه لله.

الإسلام في جوهره ليس بطاقة هوية، بل حركة تسليم. وقد يحمل الإنسان الاسم، بينما وجه قلبه متجه إلى رضا الناس أو منفعة النفس.

ثم قال: **﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾**.

لا يكفي إخلاص الوجهة دون صواب العمل؛ فالإحسان يجمع صدق القصد وحسن الاتباع. أن تعمل لله، وأن تعمل على الوجه الذي شرعه الله.

الإخلاص بلا اتباع قد يحول الحماسة إلى انحراف، والاتباع بلا إخلاص قد يحول العبادة إلى قشرة بلا روح.

وحين يجتمع التسليم والإحسان يأتي الوعد: ﴿**فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾.

ثم الأمان من الخوف والحزن؛ الوعد نفسه الذي تكرر منذ قصة آدم. كأن السورة تقول مرة بعد مرة: النجاة ليست سرًا غامضًا ولا امتيازًا محتكرًا. طريقها هدى من الله، وإيمان، وتسليم، وإحسان.

جماعات تتلو الكتاب ثم تنفي بعضها بعضًا

﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾

ينفي كل فريق الآخر نفيًا كاملًا: ﴿**لَيْسَتْ عَلَىٰ شَيْءٍ**﴾.

وليس المستغرب أن يختلفوا؛ فالاختلاف واقع بين البشر. المستغرب أنهم يفعلون ذلك ﴿**وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**﴾. ففي كتبهم أصل التوحيد وذكر الأنبياء والهدى، وكان ينبغي لوجود بقية من الحق أن يمنعهم من النفي الجاهل لكل ما عند الآخر.

إن التعصب لا يكتفي بإثبات خطأ الخصم؛ يريد تجريده من كل فضل حتى يظل الخير محتكرًا في الذات. فإذا وجد عنده حقًا تجاهله، وإذا وجد في جماعته خطأً برره.

والعدل أصعب ما يكون مع المخالف؛ لأن النفس تتوهم أن الاعتراف بحسنة فيه خيانة لموقفها. لكن القرآن يعلّمنا أن رفض باطل الإنسان لا يبيح إنكار حقه، وأن الخصومة لا تعفي من الدقة.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

حين يتكلم أهل الكتاب بلغة النفي المطلق، يصبح قولهم شبيهًا بقول الجهال. فالتلاوة التي لا تصنع عدلًا لا تمنع صاحبها من الهبوط إلى منطق من لا يعلم.

ثم رد الحكم النهائي إلى الله: **﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**.

ليس معنى ذلك ترك بيان الحق في الدنيا، بل تذكير بأن الحكم الكامل الذي ينكشف فيه الباطن والمآل لله وحده. نحن نبين ما ظهر بالدليل، ولا نغتصب مقام الرب في السرائر والمصائر.

من أظلم ممن منع مساجد الله؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

المسجد موضع تلتقي فيه الأرض بالعبادة، ويُرفع فيه اسم الله فوق أسماء البشر. فمن منع ذكر الله فيه أو سعى في خرابه اعتدى على حق الناس في الوصول إلى ربهم.

والخراب ليس هدم الجدران وحده. قد يبقى المسجد قائمًا في بنائه، لكنه يُخرَّب إذا مُنع فيه الحق، أو تحولت رسالته من عبادة الله إلى تمجيد الأشخاص، أو امتلأ بالصراع وفرغ من الذكر.

العمران الحقيقي للمسجد أن يقوم فيه معنى العبودية. أما الزخرفة التي يعلو معها الباطل فليست تمام العمارة.

﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

المساجد لله، لا لمن بناها ولا لمن يديرها. ومن حوّل بيت الله إلى ملكية خاصة يحدد فيها من يذكر الله بحسب ولائه الشخصي، فقد نازع وظيفة المسجد وإن لم يهدم حجرًا.

﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾؛ أي كان اللائق بهم، لما اقترفوا، ألا يدخلوها إلا في حال خوف وذلة، لا مسيطرين مانعين.

ولهم خزي في الدنيا؛ لأن من حارب مواضع النور لا يبني مجدًا حقيقيًا، وإن امتلكها زمنًا. ولهم في الآخرة عذاب عظيم؛ فالجريمة لم تكن اعتداءً على بناء فقط، بل على حق الله وعباده.

أينما تولوا فثم وجه الله

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

بعد ذكر منع المساجد، تأتي الآية لتعلن أن ملك الله لا تحصره جدران، وأن من مُنع من موضع عبادة بعذر لم يُمنع من الله.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

كل الجهات ملكه، وكل أرض تحت سلطانه. القبلة لا تعني أن الله محصور في جهة؛ تعالى الله عن المكان والحدود، وهو سبحانه ليس كمثله شيء.

وقوله: **﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾** نؤمن به كما جاء، وجهًا يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه. وتدل الآية في سياقها على سعة ملكه وقربه وعلمه، وأن العبد إذا تحرى أمره في موضع الرخصة والعذر لم يخرج عن جهته ورضاه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

واسع الرحمة والملك والفضل، عليم بالجهة التي قصدتها وبالعذر الذي منعك وبالقلب الذي توجّه إليه. قد تضيق على الإنسان الأمكنة، لكن رحمة الله لا تضيق.

تعالى الله عن الولد

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾

جاء التنزيه فور الدعوى: **﴿سُبْحَانَهُ﴾**.

كلمة تقطع كل وهم بشري يحاول أن يقيس الخالق على المخلوق. فالولد حاجة في عالم البشر: امتداد بعد الفناء، وعون عند الضعف، ونتيجة تجانس بين المخلوقات. والله حي لا يموت، غني لا يحتاج، أحد لا يماثله شيء.

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

كيف يكون بعض ملكه ولدًا له؟ عيسى والملائكة وسائر الخلق عباده وملكه، لا أجزاء من ذاته ولا أبناء له.

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾.

الكل خاضع لسلطانه، منقاد لأمره الكوني، ومن المؤمنين من يقنت له طوعًا في أمره الشرعي. وعيسى عليه السلام نفسه كان عبدًا قانتًا، فرفعه القرآن بنبوته وعبوديته، ولم يرفعه بالغلو الذي يخرجه من مقام البشرية.

إن أعظم مقام للمخلوق أن يكون عبدًا لله، لا أن ترفعه المحبة فوق الحد الذي وضعه الله له.

بديع السماوات والأرض

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

﴿بَدِيعُ﴾: خالقهما على غير مثال سابق. لم يحتج إلى مادة أولى لم يخلقها، ولا إلى نموذج يقلده. أخرج هذا الاتساع والنظام والجمال بإرادته وقدرته.

ومن كان بديع السماوات والأرض لا يحتاج إلى ولد، ولا يعجزه خلق عيسى من غير أب. فالذي خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق أصل الكون بلا مثال، لا يستغرب من قدرته أن يخلق إنسانًا بكلمة منه على غير المألوف.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ليس قوله كقول المخلوق، ولا تحتاج قدرته إلى أدوات وزمن ومحاولات. إذا أراد سبحانه شيئًا وقع على الوجه الذي شاءه وفي الوقت الذي قدره.

والآية لا تعني أن الأشياء كلها تظهر في الحس بلا مراحل؛ فقد يشاء الله أن يخلق الجنين في أطوار، والنبات في زمن، والإنسان عبر تاريخ من التربية. لكن المراحل نفسها واقعة بأمره، وليست عجزًا عن الإيجاد المباشر.

قدرة الله كاملة، وحكمته تختار للشيء طريق ظهوره.

تشابهت قلوبهم وإن اختلفت أزمنتهم

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

طلب المشركون أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية على الصورة التي اقترحوها، كما قال بنو إسرائيل لموسى: **﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾**.

تغيرت الألسنة والأزمنة، لكن الجملة خرجت من القلب نفسه:

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

يا لها من قاعدة في فهم التاريخ! قد تتباعد الجماعات في الأسماء والبلدان، لكنها تنتج المواقف نفسها حين تتشابه أمراض القلوب. فالكِبر يتكلم بلغات مختلفة، لكنه يحمل المنطق ذاته. والهوى يغير ثيابه ولا يغير غايته.

وهذا يعني أن القصص القرآني لا يكرر أفرادًا انتهوا، بل يكشف أنماطًا نفسية قابلةً للتجدد. قد لا تقول العبارة نفسها، لكن قلبك قد يكررها بطريقة أخرى؛

تشترط على الله شكلًا معينًا من الاستجابة، فإذا لم يقع قلت: أين الدليل؟ مع أن الآيات حولك كثيرة.

﴿**قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾.

الآيات مبينة، لكن اليقين يحتاج قلبًا يريد اليقين. ليست المشكلة دائمًا في غياب العلامة، بل في أن الإنسان يطالب بعلامة جديدة كي لا يستجيب للعلامة الموجودة.

بشير ونذير لا مسؤول عن أصحاب الجحيم

﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**﴾

جاء النبي ﷺ ﴿**بِالْحَقِّ**﴾؛ في مصدر رسالته ومضمونها وغايتها.

وهو ﴿**بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾. لا يكتفي بفتح أبواب الرجاء حتى يأمن المصر، ولا يملأ الطريق بالخوف حتى ييأس المذنب. يبشر من أقبل، وينذر من أعرض.

ثم حرره الله من عبء لا يملكه: ﴿**وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**﴾.

مهمة الرسول البلاغ، وليست في يده هداية القلوب بالإجبار. يحزن على الناس ويحرص عليهم، لكنه لا يحمل مسؤولية اختيارهم بعد قيام الحجة.

وهذا عزاء لكل داعية صادق: ليست ثمرة الكلمة كلها في يدك. عليك وضوح البلاغ، ورحمة الأسلوب، وصدق القدوة؛ أما فتح القلب فمن الله.

قد تزرع ولا ترى الثمرة، وليس معنى غيابها عن عينك أنها ضاعت. وقد تشرح ويعرض السامع، وليس معنى ذلك أن الحق نقص، أو أن عليك أن تحطم نفسك لأنك لم تملك قلبه.

الرسالة أمانة، والنتائج ملك لله.

رضا لا ينتهي بثمن

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾

لا تتحدث الآية عن كل يهودي ونصراني فردًا، ولا تمنع البر والعدل مع المسالمين؛ وإنما تكشف موقف أصحاب الملل الذين لا يرضيهم من النبي ﷺ مجرد المجاملة أو التنازل الجزئي، بل غاية رضاهم أن يتبع ملتهم.

والخطاب يحرر المؤمن من وهم مطاردة رضا لا يأتي إلا بثمن هويته.

يمكنك أن تكون عادلًا، رحيمًا، حسن الحوار، وفيًا بالعهد، لكن لا تجعل رضا الآخرين مرجعًا يحدد مقدار ما تحتفظ به من دينك.

فالإنسان إذا جعل غايته أن يرضى عنه الجميع عاش ممزقًا؛ لكل جماعة شروطها، ولكل مجلس توقعاته. ولا يستقر القلب حتى يعرف أن الرضا الأعلى هو رضا الله.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

جاء ضمير الفصل ليحصر حقيقة الهدى: هدى الله وحده هو الهدى الكامل. وما خالفه، وإن زُين بالحضارة أو المصلحة أو رضا الجمهور، لا يصير هدايةً لأنه أعجب الناس.

هذه العبارة تعيد الأمة إلى مركزها: لسنا نرفض الحق لأنه عند غيرنا، ولا نقبل الباطل لأنه عندنا؛ الميزان هدى الله.

بعد العلم لا يبقى عذر للاتباع

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

خوطب النبي ﷺ، وهو المعصوم من أن يقره الله على باطل، ليكون التحذير أبلغ للأمة. فإذا كان هذا الخطاب يوجَّه إلى أشرف الخلق، فكيف يأمن غيره على نفسه؟

قال: ﴿**أَهْوَاءَهُمْ**﴾ بالجمع؛ لأن الباطل متفرق. لكل جماعة هوى، ولو اتبعت هذا لإرضائه أغضبت ذاك. أما الحق فواحد يجمع الاتجاه.

ثم قال: ﴿**بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾.

المجاملة قبل العلم ضلال، لكنها بعد العلم أشد؛ لأن صاحبها يعرف ما يترك. وكلما ازداد النور ازدادت مسؤولية الخطوة التي يخطوها الإنسان خارجه.

والاتباع قد يبدأ بتنازل صغير يبرره المرء بالحكمة، ثم يكتشف أن التنازل الأول صار سابقةً تطالب بتنازل ثانٍ. من جعل رضا الناس بوصلته لن يعرف أين يتوقف.

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الذين تنازلت لطلب رضاهم لا يستطيعون حمايتك من الله. فكيف يُترك الولي الحقيقي طلبًا لرضا من لا يملك لنفسه نصرًا؟

الذين يتلون الكتاب حق تلاوته

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

بعد ذكر مَن نبذوا الكتاب وراء ظهورهم، تذكر السورة نموذجًا آخر من أهل الكتاب: قوم أعطوا التلاوة حقها، فقادهم ما في كتبهم من الحق إلى الإيمان بالرسول الخاتم ﷺ.

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾.

والتلاوة ليست تحسين الصوت وحده، وإن كان حسن التلاوة جمالًا محمودًا. أصلها الاتباع؛ يقرأون ألفاظه، ويفهمون معانيه، ويتبعون هداه.

حق التلاوة أن تقرأ الآية ثم تسمح لها أن تكمل سيرها في حياتك.

تقرأ: **﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾**، فيشعر لسانك أنه مخاطَب.

وتقرأ: ﴿**لَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ**﴾، فتتذكر الموضع الذي خفت فيه من البيان.

وتقرأ أخبار المتكبرين، فلا تكتفي بلعنهم، بل تبحث عن ذرة الكِبر في قلبك.

أما أن تنتهي الآية عند الحنجرة، فقد أخذ الصوت نصيبه ولم يأخذ القلب نصيبه.

﴿**أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾.

لأن التلاوة الصادقة تقود إلى التصديق. من قرأ الوحي السابق بأمانة عرف في القرآن رائحة المصدر نفسه.

ثم جاء حكم الخسارة:

﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾.

خسر الوحي الذي كان يستطيع أن يهديه، وخسر الصلة بموكب الأنبياء الذي ادعى الانتساب إليه، وخسر نفسه حين جعل العصبية فوق الحقيقة.

النداء الأخير قبل انتقال الأمانة

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

يتكرر النداء الذي بدأ به هذا المقطع، وتتكرر النعمة، ويتكرر اليوم الآخر. كأن السورة تطوي سجل بني إسرائيل بين تذكيرين: تذكير بما كان في البداية، وتحذير مما سيكون في النهاية.

النعمة وراءكم، والحساب أمامكم.

فلا تجعلوا ما وراءكم حجابًا عما أمامكم.

تكرر التفضيل حتى لا ينسوا قدر ما حملوا، وتكرر الحساب حتى لا يحولوا التفضيل إلى غرور. فالنعمة لا تلغي العدل، والاختيار لا يلغي المسؤولية، والقرب التاريخي من الوحي لا يغني عن صدق الحاضر.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.

مرة أخرى تسقط ضمانات الجماعة عند باب الآخرة. هناك لا يدخل الإنسان في ظل اسم أبيه، ولا يحمل عنه نبيه ذنب الإصرار، ولا تفديه المؤسسة التي دافع عنها، ولا ينفعه الجمهور الذي صدق صورته.

كل نفس تواجه حقيقتها.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ لا فدية.

﴿**وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ بغير إذن الله ورضاه.

﴿**وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾؛ لا قوة تقهر حكم الله.

وهكذا ينتهي خطاب طويل بدأ بقوله: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ**﴾ وانتهى بقوله: ﴿**وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾.

بين البداية والنهاية ظهر قانون الأمانة:

من حمل النعمة ولم يشكرها، تحولت النعمة إلى حجة.

ومن حمل الكتاب ولم يتبعه، تحول الكتاب إلى شاهد.

ومن عرف الحق ثم كتمه، تحولت المعرفة إلى اتهام.

ومن جعل الانتساب بديلًا عن الامتثال، وجد نفسه يوم القيامة فردًا بلا الأسماء التي احتمى بها.

نهاية مرحلة وبداية أمة

لم يكن عرض تاريخ بني إسرائيل تشهيرًا بأمة، ولا فتحًا لباب العصبية ضد جنس من الناس. القرآن نفسه أنصف من آمن منهم، وميّز بين الفرق، وربط المدح والذم بالأعمال. إنما عرض تاريخًا حُمّل أمانة الوحي ليعلّم الأمة الجديدة كيف تضيع الأمانات.

فالإنسان لا يتعلم من قصة الناجحين وحدهم؛ قد تكون أخطاء السابقين خرائط للهاوية، يعرف بها مواضع الانحدار قبل أن تصل قدمه إليها.

وقد تكشفت في هذا التاريخ أمراض كبرى:

النعمة التي تحولت إلى شعور بالاستحقاق.

والعلم الذي صار أداة للكتمان.

والكتاب الذي صار ملكيةً للجماعة بدل أن يكون حكمًا عليها.

والسؤال الذي تحوّل من طلب هداية إلى وسيلة تأجيل.

والحيلة التي حفظت شكل التكليف وقتلت روحه.

والأمنية التي أخذت مكان العمل.

والعصبية التي رفضت الحق لأنه جاء من خارج الأسوار.

والهوى الذي آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض.

والقلب الذي رأى الميت يحيا، ثم ظل أشد قسوةً من الحجر.

كل ذلك يقودنا إلى سؤال الأمانة: إذا نُقض العهد، فمن يحمل راية التوحيد بعد ذلك؟

وهنا تنتقل السورة من بني إسرائيل إلى أبي الأنبياء؛ من تاريخ جماعة ضيعت بعض ما حملت إلى رجل أتم الكلمات كلها: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾.

سيظهر إبراهيم عليه السلام لا بوصفه اسمًا تتنازعه الجماعات، بل بوصفه منهجًا في الامتثال. لن يكون فضله قائمًا على نسب سبقه، بل على امتحانات خاضها حتى النهاية.

وسيأتيه وعد الإمامة، لكنه حين يسألها لذريته يسمع القاعدة التي تهدم كل امتياز وراثي: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾.

هناك ستتغير زاوية السورة. لسنا أمام قوم يقولون: ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾، بل أمام رجل قال بوجوده كله:

أسلمتُ لرب العالمين.

ومن خطواته ستولد القبلة، ومن دعائه ستنشأ الأمة، ومن بنائه للكعبة سيعود الإنسان إلى البيت الذي لا يحتكره عرق ولا قوم، بل يجتمع عنده كل من جاء بقلب مسلم.

فالانتقال إلى إبراهيم ليس انتقالًا إلى قصة جديدة فحسب؛ إنه انتقال من **وراثة الاسم** إلى **استحقاق العهد**، ومن الجدل الذي أثقل الطاعة إلى الامتثال الذي أتم الكلمات.

الفصل العاشر

إبراهيم عليه السلام: رجلٌ كان أمةً قبل أن توجد الأمة

الكلمات التي لا تكتمل إلا بالفعل

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

يظهر إبراهيم عليه السلام في السورة بعد تاريخ طويل من نقض العهود، فيجيء كأنه الجواب العملي عن سؤال الوفاء.

هناك قوم أُمروا أن يذبحوا بقرة فأثقلوا الأمر بالأسئلة، وهنا رجل يؤمر بذبح ابنه فلا يقدّم بين يدي الأمر جدلًا.

وهناك قوم قالوا: **﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾**، وهنا قلب سيلخص سيرته كلها في كلمة: **﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

بدأت الآية بالابتلاء: **﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾**.

لم تقل: أعطاه الإمامة أولًا، بل قدمت الامتحان على المقام. فالمنازل الكبرى لا تُنال بالأماني ولا بالأنساب، وإنما يهيئ الله لها أصحابها في مدارس الابتلاء.

والابتلاء ليس دائمًا عقوبة؛ قد يكون طريقًا إلى التكريم. النار التي أرادها قوم إبراهيم نهايةً له جعلها الله شاهدًا على يقينه، والهجرة التي بدت اقتلاعًا من الوطن صارت انتقالًا بالرسالة إلى آفاق أوسع، والولد الذي طال انتظاره صار موضع امتحان يكشف أن حب الله في قلبه أعلى من أعز عطاياه.

إن الله إذا ابتلى عبدًا صالحًا لا يعني أنه أهانه؛ قد يكون الابتلاء هو الطريق الذي يصوغ به مقامه.

﴿بِكَلِمَاتٍ﴾.

الكلمات هنا أوامر وتكاليف وشرائع وابتلاءات متنوعة امتحنه الله بها. لكنها لم تبق عند إبراهيم أصواتًا مسموعة؛ تحولت إلى أعمال ومواقف.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

ما أعظم هذا الفعل!

لم يؤدِّ بعضًا ويترك بعضًا، ولم يقف في منتصف الطريق، ولم يطلب تخفيفًا كلما ثقل الامتحان. أتمهن؛ أعطى كل كلمة حقها من الطاعة.

هناك فرق بين من يبدأ ومن يتم. البدايات توقظها الحماسة، أما الإتمام فيحتاج صدقًا يصمد بعد فتور الشعور. كثيرون يدخلون الطريق في لحظة صفاء، لكن الامتحان الحقيقي: هل يواصلون حين يطول السفر ولا يعود التصفيق مسموعًا؟

إبراهيم عليه السلام رجل الإتمام. أتم التوحيد في وجه أبيه وقومه، وأتم الثبات أمام النار، وأتم الهجرة حين ضاقت الأرض بالدعوة، وأتم التسليم في أمر الذبح، وأتم بناء البيت في وادٍ لا زرع فيه.

لم يكن كماله في غياب المشقة، بل في أن المشقة لم توقف امتثاله.

الإمامة: ثمرة الامتحان لا ميراث الدم

بعد الإتمام جاء التكريم: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾.

الإمام هو من يُقتدى به، وتكون خطواته دليلًا لغيره. ولم يجعله إمامًا لقبيلة أو جيل، بل ﴿**لِلنَّاسِ**﴾. لقد تجاوز إبراهيم حدود الزمن والعرق؛ ما زالت الأمم تتعلم من توحيده، ويحج المؤمنون إلى البيت الذي رفع قواعده، ويصلون على ملته، ويرون في موقفه من الأصنام النموذج الأبدي لتحرير العقل والقلب.

ولم تُمنح له الإمامة لأنه كان ابن سلالة مميزة؛ بل لأنه أتم الكلمات. فالقرآن يؤسس الشرعية الأخلاقية على الوفاء، لا على الميراث.

وحين سمع إبراهيم الوعد، تحرك قلب الأب: ﴿**قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾.

لم يكن سؤاله استئثارًا؛ كان حبًا أن يمتد النور في أبنائه، وأن يحملوا الرسالة من بعده. فالصالح لا يريد النجاة لنفسه وحدها؛ يتمنى أن يصير بيته طريقًا إلى الله.

لكن الجواب جاء بقاعدة تهدم كل عصبية: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾.

لم يقل: لا ينال ذريتك، بل استثنى الظالمين منهم. ففي ذريته صالحون ينالون العهد، وظالمون لا ينالونه. النسب إلى إبراهيم يفتح باب المسؤولية، لكنه لا يمنح حصانةً من الحساب.

﴿**عَهْدِي**﴾: الإمامة والاصطفاء الديني أمانة من الله، لا ملكية عائلية يتوارثها الأبناء بمجرد الميلاد.

يولد الإنسان في بيت نبي، لكنه لا يولد نبيًا.

وقد ينتسب إلى مصلح، لكنه لا يرث إصلاحه دون عمل.

وقد يحمل اسم جماعة عظيمة، لكن عظمتها السابقة لا تتحول إلى فضل شخصي في ميزانه.

هذه الآية تقطع الطريق على كل من يحول الدين إلى امتياز سلالي، أو يجعل القيادة حقًا للدم ولو سكن الظلم في القلب واليد.

الظلم يسقط أهلية العهد، مهما كان الظالم قريبًا من صاحب المقام.

وفي الآية رسالة لكل قيادة دينية أو سياسية: ليست الإمامة تشريفًا يُطلب لذاته، بل عهد لا يليق بظالم. فإذا صار المنصب طريقًا إلى هضم الحقوق، فقد فارق صاحبه معنى الإمامة وإن بقي اللقب مكتوبًا أمام اسمه.

البيت الذي يعود إليه الإنسان من شتاته

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

بعد إمامة إبراهيم يأتي البيت؛ كأن الإمام يحتاج إلى مركز تتجمع عنده القلوب، وتتحول فيه معاني التوحيد إلى حركة بشرية متكررة.

﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾.

المثابة موضع الرجوع. يعود إليه الناس مرة بعد مرة، ولا تنقضي رغبتهم منه. قد يطوف الإنسان بالكعبة ثم يغادرها، لكن شيئًا من قلبه يبقى هناك، ويظل الحنين يعيده.

إن في الإنسان شتاتًا لا تجمعه المدن الكثيرة؛ يحتاج إلى مركز روحي يعود عنده إلى أصل وجوده. والكعبة ليست معبودًا، ولا يعبد المسلم حجارتها؛ إنها بيت عظّمه الله، وجعله قبلةً لعبادته، ورمزًا لوحدة التوجه إليه وحده.

يأتي الناس من جهات الأرض المختلفة، بلغات وألوان وطبقات متباينة، ثم يدورون حول مركز واحد. تسقط خرائط التفاضل البشري، ويظهر الإنسان في ثوبين بسيطين، كأنه خرج من زخارف التاريخ وعاد إلى فطرته الأولى.

﴿وَأَمْنًا﴾.

كان البيت موضع أمن في أرض تتخطف فيها الناس الحروب. وحتى الطير والصيد لهما حرمتهما في نطاقه. وكأن التوحيد حين يقيم بيته في الأرض ينبغي أن يفيض حوله أمنًا.

ليس بيت الله موضع رعب يصنعه المتدينون للناس، بل موطنًا تأمن فيه الأرواح. وكل تدين يجعل الاقتراب من الله مرادفًا للفزع من أذى البشر قد شوّه شيئًا من معنى البيت.

ثم قال: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾.

المقام أثر خطوة وقفت في موضع الطاعة. وقف إبراهيم يبني، فصار موضع قدميه مصلًّى تتعبد عنده الأجيال.

ما أعجب العمل حين يكون خالصًا! يفرغ صاحبه منه في زمن محدود، ثم يبقى أثره يلد الطاعات بعد رحيله بقرون.

خطوة واحدة لله قد تطول أكثر من عمر صاحبها.

ولا قيمة الأثر في ضخامة ما يراه صاحبه لحظة العمل؛ فإبراهيم كان يرفع حجارة في وادٍ، وربما لم يرَ الحشود التي ستأتي من كل فج. لكنه عمل لرب يرى المستقبل كله، فتحول فعله الفردي إلى ذاكرة أمة.

طهارة البيت قبل كثرة الزوار

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾.

نسب الله البيت إلى نفسه إضافة تشريف: **﴿بَيْتِيَ﴾**. والله غني عن البيوت والأمكنة، لا يحل فيها ولا تحيط به، تعالى عن الحدود؛ لكنه شرّف هذا البيت وجعله موضعًا لعبادته.

وأول عهد بشأن البيت هو التطهير. قبل الحديث عن كثرة الحجاج واتساع العمران، ينبغي أن يبقى المكان نقيًا من الشرك والأوثان والأقذار وما لا يليق بحرمته.

إن المؤسسات الدينية قد تهتم بتوسيع الجدران وتنسى تطهير الرسالة. يزيد عدد الداخلين، لكن المعنى الذي يدخلون من أجله يبهت.

البيت لا يعظم بحجارته وحدها، بل بالاسم الذي يُذكر فيه والعبادة التي تقام حوله.

﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

تتنوع أحوال العابدين: طائف يتحرك حول البيت، وعاكف يقيم قريبًا منه، وراكع ساجد. حركة وسكون، دوران وإقامة، لكن الوجهة واحدة.

وفي تقديم الطائفين والعاكفين والركع السجود إشعار بأن تطهير المكان خدمة للعباد. فالقيادة الدينية لا تملك البيت، بل تُؤتمن على تهيئته لمن يعبد الله فيه.

دعاء الأمن والرزق في وادٍ بلا أسباب

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

يقف إبراهيم في وادٍ غير ذي زرع، ثم يسأل بلدًا آمنًا وثمرات. في الظاهر لا توجد ملامح مدينة، لكن الدعاء يرى ما وراء الحاضر.

الإيمان يمنح الإنسان قدرةً على العمل للمستقبل قبل أن تظهر شواهده. يضع حجرًا لا يرى البناء كاملًا، ويغرس معنىً لا يعرف مَن سيحصد ثمرته، ويدعو في الصحراء لمدينة ستصبح أم القرى.

بدأ بالأمن قبل الرزق: **﴿بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾**.

لأن الخائف لا يهنأ بالثمرة، ولأن الطعام في يد مرتجفة لا يصنع استقرارًا. الأمن هو الوعاء الذي تحفظ فيه النعم الأخرى.

وليس الأمن غياب السلاح فقط؛ هو أن يأمن الإنسان على دمه وكرامته وبيته وعقيدته وحقه. قد تصمت المدافع، ويبقى الناس خائفين من كلمة أو صاحب نفوذ؛ فلا يكون الصمت أمنًا كاملًا.

ثم دعا بالرزق من الثمرات في أرض لا تزرع. لم يطلب أن تتغير طبيعة الوادي بالضرورة، بل أن تصل إليه الثمرات. وقد استجاب الله، فصارت أرزاق الأرض تُجبى إلى مكة.

ربما لا يغير الله موضعك كله، لكنه يفتح فيه أبوابًا لم تكن تراها.

قال إبراهيم: ﴿**مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾.

يبدو أنه بعدما سمع قوله تعالى: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، خص المؤمنين بدعاء الرزق، خشية أن يدخل الظالمون في العطاء.

لكن جاء التصحيح الإلهي: ﴿**قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.

الإمامة الدينية لا ينالها الظالم، لكن الرزق الدنيوي قد يصل إلى المؤمن والكافر. فالدنيا ليست مقياسًا لرضا الله؛ قد يوسع الله على من لا يحبه استدراجًا أو ابتلاءً، وقد يضيّق على عبد يحبه ليطهره ويرفعه.

من أخطر الأوهام أن يقرأ الإنسان مكانته عند الله من مقدار ما في يده.

فالمال قد يكون نعمةً تحتاج إلى شكر، وقد يكون فتنةً تحتاج إلى نجاة. والفقر قد يكون ابتلاءً، لكنه ليس شهادة إهانة. ميزان الكرامة هو التقوى، لا حجم الرصيد.

﴿**فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا**﴾.

مهما طال العمر وكثر الرزق فهو قليل، لا لقلته في شعور صاحبه، بل لانتهائه. كل متاع ينتهي قصير إذا وُضع بجانب الأبد.

ثم يفترق الطريق عند المصير. قد يشترك المؤمن والكافر في ماء الدنيا وثمرها وهوائها، لكن الآخرة دار الجزاء على الإيمان والعمل.

أب وابنه يبنيان للأجيال

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

تأتي الآية بصيغة المضارع: **﴿يَرْفَعُ﴾**، كأن المشهد يحدث أمامنا الآن. إبراهيم يرفع القواعد، وإسماعيل يعاونه؛ أب وابنه يجتمعان لا على ميراث دنيوي، بل على بناء بيت لله.

ما أجمل أن تكون العلاقة بين الأب وابنه رسالةً مشتركة! لا يورثه المال والاسم فقط، بل يدخله معه في عمل يبقى بعدهما.

وكانا نبيين كريمين، ينفذان أمرًا جليلًا في أطهر بقعة، ومع ذلك يقولان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾.

لم يغترّا بشرف العمل، ولم يريا أن مجرد وقوعه يضمن قبوله. فالقبول سر بين العمل والله، وقد يصغر العمل في العين ويعظم بالإخلاص، وقد يضخم أمام الناس ويأتي عند الله خفيفًا.

المؤمن الصادق يخاف على عمله بعد أدائه أكثر مما يفرح بحجمه. لا يسأل فقط: هل فعلت؟ بل: هل قُبل مني؟

إن الخليل الذي أتم الكلمات لا يدخل على الله بمنطق الاستحقاق، بل يرفع الحجر ويدعو. كلما ارتفع البناء، انخفض قلبه تواضعًا.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

سميع لدعائهما وكلماتهما، عليم بالنية التي لا تراها العيون. فقد يكون شخصان يرفعان الحجر نفسه، لكن المسافة بين عمليهما عند الله بقدر ما بين قلبيهما.

وفي الآية عزاء للعامل المخلص الذي لا يراه الناس؛ يكفيه أن الله سميع عليم. وضجيج الشهرة لا يزيد العمل قبولًا إذا خلا من الصدق.

مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

كانا مسلمين بالفعل، فلماذا يسألان الله أن يجعلهما مسلمين؟

لأن الهداية ليست منزلةً يصل إليها الإنسان ثم يستغني عن طلب الثبات. كل مقام من الإيمان يفتح فوقه مقامًا، وكلما عرف العبد ربه ازداد إدراكًا لنقص تسليمه.

إنهما لا يسألان اسم الإسلام، بل كماله واستمراره. يسألان أن يكونا ﴿**مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾؛ والجار والمجرور يخلص الوجهة: لك وحدك، لا للهوى ولا للسمعة ولا لاسم العائلة المقدسة.

فقد يعمل الإنسان عملًا دينيًا، لكن جزءًا من قلبه يتطلع إلى الناس. ويسأل الخليل وابنه، وهما يبنيان الكعبة، أن يكونا لله؛ لأن عظمة المشروع لا تضمن نقاء الباعث.

ثم ينتقل الدعاء إلى الذرية: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾.

لا يسألان ذريةً كثيرة فحسب، ولا دولةً تحمل اسميهما، بل أمةً مسلمةً لله. القيمة ليست أن يستمر الدم، بل أن يستمر المعنى.

وأدركا أن الأمة المؤمنة ليست صناعة بشرية خالصة؛ لذلك سألا الله أن يجعلها. يبذل المصلح أسباب التربية، لكنه يعلم أن القلوب بين أصابع الرحمن، وأن الهداية فضل لا تنتجه الخطط وحدها.

﴿**وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**﴾.

النية الصالحة لا تكفي دون معرفة الطريق. يريدان أن يتعبدا لله كما يريد الله، لا كما يقترح الشعور. فالعبادة توقيف واتباع، والمحبة الصادقة تسأل المحبوب عما يرضيه بدل أن تخترع لنفسها صورًا ثم تطالبه بقبولها.

ثم قالا: ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَا**﴾.

وهما نبيان يبنيان البيت! إنها عبودية لا ترى لنفسها مقامًا فوق الاستغفار. كلما اقترب الإنسان من الله رأى تقصيره أدق؛ أما البعيد فقد لا يرى في نفسه شيئًا يحتاج إلى توبة.

إن الحساسية للذنب علامة حياة القلب. العين السليمة تتألم من ذرة الغبار، أما الجسد الميت فلا يتألم ولو جُرح.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

الاسمان نفسيهما اللذان ختمت بهما توبة آدم. كأن خيط التوبة يصل بين الإنسان الأول وأبي الأنبياء: آدم تلقى الكلمات فتاب الله عليه، وإبراهيم يتم الكلمات ثم يسأل التوبة.

لا يستغني الإنسان عن التوبة قبل العمل ولا أثناءه ولا بعده؛ يتوب من ذنب، ومن تقصير، ومن التفات القلب، ومن عجب قد يتسلل بعد الطاعة.

الدعاء الذي انتظر قرونًا حتى جاء محمد ﷺ

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت، ثم رفعا دعاءً ببناء الإنسان الذي سيطوف به.

فالمكان المقدس لا يكفي دون رسول يعلّم الناس معنى القداسة. يمكن أن يبقى البيت قائمًا، ثم تمتلئ ساحته بالأصنام إذا غاب الوحي عن القلوب.

لذلك لم يكن مشروع إبراهيم عمرانيًا فقط؛ بنى الحجر، ودعا لمن يبني الإنسان.

﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

منهم؛ يعرف لغتهم وأحوالهم وأنسابهم، ويعرفون صدقه ونشأته. ليس غريبًا عن واقعهم، وإن كان الوحي الذي يحمله آتيًا من السماء.

وظل هذا الدعاء يسافر في الزمن حتى بعث الله محمدًا ﷺ من ذرية إسماعيل في مكة، بجوار البيت الذي بُنيت قواعده على التوحيد.

كم من دعاء يظن صاحبه أن استجابته تأخرت، بينما يكون الله قد اختار له موعدًا أوسع من عمر الداعي! دعا إبراهيم، وجاءت الإجابة بعد قرون، لكنها حين جاءت غيّرت العالم.

الدعاء لا يضيع لأنه لم يثمر أمام عينيك. قد تُدفن أنت، وتظل دعوتك تمشي في الغيب حتى تبلغ ميقاتها.

ثم حدّد الدعاء وظائف الرسول: ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾.

يبدأ بالوحي؛ لا بأفكاره الخاصة. التلاوة إحضار لكلام الله في حياة الناس، حتى يسمعوا مصدر الهداية قبل أن تتكاثر حوله الشروح.

﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**﴾.

فالتلاوة لا تغني عن التعليم؛ قد يسمع الإنسان النص ويحتاج إلى من يبين معناه، ويكشف نظامه، ويصل آياته بواقع الحياة.

﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾.

أن توضع الأشياء في مواضعها، وأن يفهم الناس سنة الرسول ﷺ وهديه وتطبيقه للوحي. فالكتاب ينزل بالحق، والحكمة تعلم الإنسان كيف يعيش الحق بين تعقيدات الواقع.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

وهذه غاية التعليم: أن تتطهر النفس وتنمو في الخير. ليست الرسالة مصنعًا للمعلومات، بل مشروع تزكية. إن لم يخفف العلم من كِبر صاحبه، ولم يطهّر يده من الظلم ولسانه من الكذب، فقد دخلت الكلمات ولم تدخل حكمتها.

التزكية تجمع التطهير والنماء: تزيل أمراض القلب، وتنمي فيه الصدق والرحمة والشجاعة والأمانة.

وقد يحمل الإنسان علمًا كثيرًا ونفسًا غير مزكاة، فيصير علمه أكثر قدرةً على الأذى؛ يمنحه الأدوات التي يبرر بها هواه، ويغلب بها خصمه، ويحسن بها بناء صورته.

العلم بلا تزكية قد يصنع متكبرًا أكثر حجة، لا عبدًا أكثر خشية.

ثم ختم الدعاء: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

عزيز قادر على بعث الرسول وإن أحاطت الجاهلية بالبيت، حكيم يختار له الزمان والمكان والقلب الذي يحمل الرسالة.

من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه؟

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ملة إبراهيم هي التوحيد الخالص والاستسلام لله. ومن يعرض عنها لا يكون قد اختار رؤيةً أذكى، بل **﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾**؛ أهانها وجهل قيمتها ووضعها دون المقام الذي خُلقت له.

فالنفس خُلقت لتعرف الله، فإذا عُبد بها حجر أو بشر أو شهوة، فقد أُنزلت من سعة التوحيد إلى ضيق العبودية للمخلوق.

السفه ليس نقص المعلومات وحده، بل سوء التصرف في النفس. وأي تصرف أسوأ من أن يعطي الإنسان أعز ما فيه لمن لا يملك له نفعًا ولا ضرًا؟

ثم قال: **﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾**.

اختاره الله بعد صدق الابتلاء، وجعله إمامًا، وبارك في ذكره وذريته. تتنازعه الأمم انتسابًا، لكن القرآن يعيده إلى حقيقته: عبد موحد اصطفاه الله.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قد يُصطفى الإنسان في الدنيا فيغتر بالمقام، أما إبراهيم فجمع اصطفاء الدنيا وصلاح الآخرة. لم تفسده الإمامة، ولم يحول التكريم إلى شعور بالأمان من الحساب.

كلمة الإسلام التي لخصت حياةً كاملة

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

لم يناقش إبراهيم حقيقة الأمر بعد أن عرف الآمر.

﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾.

فجاء الجواب: **﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

بين الأمر والجواب لا يظهر فراغ من التردد. وهذه هي روح ملة إبراهيم: سرعة انتقال الوحي من السمع إلى الإرادة.

لم يقل: أسلمت فحسب، بل قال: **﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**. سلّم نفسه لمن يربي العالمين جميعًا، لا لرب قبيلة أو إقليم. ومن هنا كانت ملته أوسع من كل عصبية.

إن الإسلام هنا ليس الاسم التاريخي لأمة جاءت متأخرة فحسب؛ إنه حقيقة الأنبياء جميعًا: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك.

وقد كانت حياة إبراهيم تفسيرًا لهذه الكلمة:

قيل له: اخرج من أرضك، فخرج.

وأُلقي في النار، فثبت.

ورزق الولد بعد الكبر، ثم رأى في المنام أنه يذبحه، فأسلم.

وترك زوجه ورضيعه في وادٍ لا زرع فيه، فوثق.

وأُمر ببناء البيت، فرفع القواعد.

لم تكن ﴿**أَسْلَمْتُ**﴾ جملةً قالها مرة، بل طريقًا عاشه حتى النهاية.

والكلمات العظيمة لا تُعرف من فصاحتها فقط، بل من العمر الذي يدفعه صاحبها في تصديقها.

وصية الآباء عند باب الرحيل

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

لم يحتفظ إبراهيم بما وصل إليه لنفسه. نقل الإسلام إلى بنيه وصيةً، ووصى يعقوب أبناءه بها.

الوالد الصالح لا يكتفي بأن يترك لأولاده بيتًا ومالًا؛ يخاف أن يتركهم أثرياء في الدنيا فقراء من المعنى. يعلم أن الميراث المادي قد يُستهلك، أما الإيمان فيحفظ الإنسان حين تسقط من يده الأشياء.

قال: ﴿**يَا بَنِيَّ**﴾.

قبل الأمر نداء الحنان. ليست الوصية خطابًا جافًا، بل قلب أب يخشى على أبنائه من موت المعنى. والتربية التي تفقد حرارة المحبة قد تبلغ الأذن ولا تدخل القلب.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾.

الدين منحة مصطفاة، لا حمل يريد الأب أن يثقل به أبناءه. هو طريق اختاره الله لهم؛ يحفظ فطرتهم ويصلهم بمصيرهم.

ثم قال: **﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**.

والإنسان لا يملك موعد موته، فكيف يُنهى عن أن يموت إلا مسلمًا؟

المعنى: اثبتوا على الإسلام في كل لحظة؛ لأن الموت قد يأتي في أية لحظة. من أراد خاتمةً معينة، فليعش على الطريق الذي يقود إليها.

لا تستطيع أن تختار الدقيقة التي تموت فيها، لكنك تستطيع ـــ بعون الله ـــ أن تختار الوجهة التي تعيش عليها. وغالبًا يُبعث الإنسان على ما مات عليه، ويموت على ما عاش عليه.

الخاتمة لا تُصنع عند الاحتضار وحده؛ تُنسج بخيارات الأيام الصغيرة.

ما تعبدون من بعدي؟

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ۖ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

يحضر الموت، وتضيق المسافة بين يعقوب والآخرة، فما السؤال الذي يشغل قلبه؟

لم يسألهم: ماذا ستفعلون بأموالي؟ ولا من سيحفظ مكانة الأسرة؟ سأل:

﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي**﴾.

إنه سؤال الهوية الأخيرة. لأن الجواب عنه يحدد مصير كل شيء بعده. إذا استقامت العبادة، أمكن أن يستقيم المال والأسرة والمجتمع، وإذا فسدت القبلة الداخلية لم تنقذهم كثرة الممتلكات.

ولم يقل: مَن تعبدون الآن فقط، بل ﴿**مِنْ بَعْدِي**﴾. يخشى على استمرار الطريق بعد غياب الأب. فقد يكون الأب حاضرًا فيستقيم الأبناء مهابةً له، ثم يكشف موته أن الدين كان متعلقًا بشخصه لا بالله.

التربية الناجحة لا تجعل الأبناء نسخًا متعلقة بالمربي، بل تصلهم بالمبدأ الذي يبقى بعد رحيله.

فجاء جوابهم: ﴿**نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ**﴾.

الإله واحد عبر الأجيال. لم يكن لكل نبي دين متنافس، بل كانت النبوات كلها روافد تصب في نهر التوحيد.

وذكروا إسماعيل مع الآباء، وهو عم يعقوب؛ لأن العم بمنزلة الأب في لسان العرب ومقام القرابة. وهكذا يجتمع فرعا ذرية إبراهيم: إسماعيل وإسحاق، في أصل واحد، قبل أن تحاول العصبيات اللاحقة فصل الميراث النبوي.

ثم أكدوا: ﴿**إِلَٰهًا وَاحِدًا**﴾.

ليست وحدةً عددية مجردة، بل وحدة العبادة والقصد والتشريع. لا تتوزع قلوبهم بين الله وشركاء خفيين.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

الجواب نفسه الذي عاشه إبراهيم، يخرج الآن من أفواه الأحفاد عند فراش يعقوب. وهكذا تنتقل الرسالة حين لا ينتقل الاسم وحده، بل معنى الاستسلام.

تلك أمة قد خلت

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

بعد عرض هذا النسب العظيم يأتي الفصل الحاسم: **﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾**.

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب رحلوا. بقيت سيرتهم، لكن أعمالهم انتقلت معهم إلى ميزانهم.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

لا تستطيع أمة أن تعيش إلى الأبد من رصيد آبائها. الماضي العظيم رأس مال معنوي، لكنه لا يعفي الحاضر من العمل. قد تكون لك صلة بأشرف الناس، لكنك لا تدخل في صحيفة عمله.

إن الانتساب إلى المصلحين قد يتحول إلى مخدر إذا جعل الخلف يكتفون بذكر مناقب السلف. يمضون في الاحتفال بانتصارات قديمة، بينما يخسرون معارك الأمانة في حاضرهم.

القرآن لا يقطع صلتنا بالصالحين؛ يأمرنا بحبهم والاقتداء بهم. لكنه يمنعنا من تحويل الحب إلى دعوى نجاة بلا اتباع.

ليس السؤال: من كان أبوك؟

بل: ماذا كسبت أنت؟

وليس السؤال: إلى أية جماعة تنتمي؟

بل: ماذا صنعت بما حملته الجماعة من حق؟

هوية إبراهيم لا تُختطف بعد موته

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

كل فريق يدعو الناس إلى اسمه: كونوا يهودًا تهتدوا، أو كونوا نصارى تهتدوا.

لكن القرآن يعيد الهداية إلى الأصل السابق على هذه الانقسامات: **﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾**.

كان إبراهيم قبل موسى وعيسى عليهما السلام، فكيف يصح احتكاره داخل هوية ظهرت بعده؟ لقد كان حنيفًا؛ مائلًا عن الشرك كله، مقبلًا على الله وحده.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

هذه الجملة تحرر إبراهيم من كل إضافة لغير الله إلى العبادة. لم يعبد نجمًا ولا صنمًا ولا بشرًا، ولم يجعل بينه وبين الله شريكًا.

إن الانتماء إلى إبراهيم لا يكون برفع اسمه، بل بتحقيق حنيفيته. ومن عظّم إبراهيم ثم عبد غير الله خالفه وهو يزعم الانتساب إليه.

والحنيفية ليست انعزالًا عن العالم، بل تحريرًا للقلب من مراكزه الزائفة حتى يستطيع أن يدخل العالم بلا عبودية له.

لا نفرق بين أحد منهم

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

هذه هي هوية الأمة الجديدة: لا تبدأ تاريخ النور من نفسها، ولا تنكر فضل من سبقها. تؤمن بموكب الوحي كله.

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أولًا؛ فهو المصدر والمركز.

ثم تؤمن بما أنزل إليها، وبما أنزل إلى الأنبياء السابقين. لم يقل: بما اخترعه التاريخ حولهم، بل بما **أُنزل** إليهم وما **أوتوه من ربهم**.

إن مصدر الوحدة هو الرب الواحد، لا تشابه التفاصيل في الشرائع. قد تختلف بعض الأحكام باختلاف الأزمنة، لكن أصل التوحيد والنبوة والآخرة والأخلاق الكبرى واحد.

﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾؛ أي لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، مع الإيمان بأن الله فضل بعض الرسل على بعض في المنازل والخصائص.

المسلم يحب موسى وعيسى كما يحب سائر أنبياء الله، ويذب عن طهارة مريم، ويؤمن بمعجزات المسيح، ثم لا يغلو فيه إلى مقام الألوهية. فالعدل مع الأنبياء أن نثبت لهم ما أثبته الله، بلا جفاء ولا غلو.

ثم تختم الهوية بالجملة التي بدأ بها إبراهيم: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾.

كأن أسماء الأنبياء كلها تصب في هذه الكلمة. ليس الإيمان بهم متحفًا تاريخيًا، بل طريقًا يقود إلى الإسلام لله.

الصبغة التي تدخل أعماق الإنسان

﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾

الهدى ليس غامضًا؛ الإيمان بالله ووحيه ورسله دون انتقاء هو طريقه.

﴿**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**﴾.

الشقاق أن يصير كل طرف في شق، وأن تتسع المسافة حتى تتحول إلى خصومة. ليسوا خارج فكرة جزئية، بل في جهة تقابل جهة الوحي.

ثم جاء وعد الكفاية: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**﴾.

ما أعظمها من كلمة لمن أثقلته كثرة الخصوم! لم يقل: لن يؤذوك، فقد يقع الأذى، لكنه وعد أن يكفي نبيه أمرهم، وأن مكرهم لن يهزم الرسالة.

الكفاية ليست دائمًا أن تختفي المعركة؛ قد تكون أن تمر منها دون أن تفقد رسالتك، وأن يحفظ الله قلبك من التحول إلى صورة من عدوك.

﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾؛ يسمع ما يقولون، ويعلم ما يدبرون، فلا يحتاج المؤمن أن يحيط بكل خيط حتى يطمئن.

ثم تأتي الصورة: ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ**﴾.

الإيمان صبغة؛ ليس ثوبًا خارجيًا يرتديه الإنسان في المناسبات ثم يخلعه، بل لون يتشربه الكيان كما يتشرب النسيج الصبغ.

حين يصبغ الله القلب بالإيمان، يظهر أثر الصبغة في الكلمة والنظرة والمال والعلاقة والموقف. لا يبقى الدين غرفةً منفصلة داخل الإنسان؛ يسري في جهاته كلها.

وهذه هي الصلة العميقة بين **الصبغة** وملة إبراهيم. إبراهيم لم يحمل التوحيد شعارًا؛ صار التوحيد لون حياته. ظهرت صبغته أمام الأصنام، وفي النار، وفي الهجرة، وعند الذبح، وعند بناء البيت.

﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**﴾؟

البشر يصبغون بعضهم بصبغات العرق والطبقة والحزب والمصلحة، وكل صبغة بشرية إذا استبدت ضيقت الإنسان داخل حدودها. أما صبغة الله

فترده إلى فطرته، وتحرره من ضيق الانتماءات دون أن تلغي روابطه العادلة.

ثم قال: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾.

الصبغة تظهر في العبادة. ليست الهوية مجرد شعور بالجمال والانتماء، بل خضوع مستمر لله.

أتحاجوننا في الله؟

﴿**قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**﴾

كيف تحتكر جماعة رب العالمين؟ هو ربنا وربكم؛ رب الناس جميعًا، لا إله سلالة ولا قوم.

إن الاختصاص الحقيقي ليس في ملكية اسم الله، بل في الإخلاص له.

﴿**وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**﴾.

مرة أخرى تعود الفردية الأخلاقية. لا تحملون عملنا، ولا نحمل عملكم. والجدل في الأنساب لا يغيّر الصحائف.

ثم تأتي الكلمة الفاصلة: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**﴾.

الإخلاص أن يتجه العمل إلى الله دون طلب مقام يزاحمه. وهو سر لا تراه الجماعات المتنازعة على الأسماء. فقد ينتصر إنسان في تعريف هويته، ويخسر الإخلاص الذي يعطي الهوية قيمتها.

أأنتم أعلم أم الله؟

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

لا يستقيم تاريخيًا أن يكون إبراهيم وأبناؤه يهودًا أو نصارى، فقد كانوا قبل ظهور هاتين التسميتين. لكن العصبية تعيد كتابة التاريخ كي تجعله مقدمةً لنفسها.

ثم يأتي السؤال الذي يسقط الدعوى: **﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؟**

السؤال لا يحتاج إلى جواب، لكنه يضع الإنسان أمام فداحة موقفه. حين يرد خبر الله ليحمي تصوره، يتصرف كأن علمه أوسع من علم الله.

وما أكثر ما يقع هذا المعنى في ثوب غير صريح! لا يقول الإنسان: أنا أعلم من الله، لكنه يرد حكمًا ثابتًا لأن العصر — في تقديره — لا يقبله، أو يؤول النص حتى يوافق ما قرره قبل أن يقرأه.

إن تقديم أي مرجعية على خبر الله يحمل في باطنه جوابًا فاسدًا عن سؤال: من الأعلم؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

كان عندهم من العلم ما يشهد لحقيقة الأنبياء وللرسالة، فكتموه. وكتمان الشهادة لا يغير الحدث، لكنه يحرم الناس من حقهم في معرفته، ويجعل الكاتم شريكًا في الضلال الناتج عن صمته.

ثم ختم بالرقابة:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قد ينجح الكاتم في إدارة السجل التاريخي، لكنه لا يغير نسخة الحقيقة المحفوظة في علم الله.

لا نجاة برصيد الأسلاف

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

تتكرر الآية بالنص نفسه؛ لأن الوهم الذي تعالجه عميق ومتكرر: وهم الاحتماء بالماضي.

ربما سمع الإنسان الحقيقة مرة، ثم عاد قلبه إلى الاتكاء على أمجاد السابقين، فتحتاج الحقيقة أن تقال مرةً أخرى.

إبراهيم له ما كسب.

وإسماعيل له ما كسب.

وإسحاق ويعقوب والأسباط لهم ما كسبوا.

ولكم ما كسبتم.

لا أحد يدخل التاريخ ليمحو مسؤولية الحاضر.

إن السلف الصالح لا يحتاج منا إلى أن نتغنى به فقط؛ يحتاج أن نصدّق انتسابنا إليه بعمل يشبه عمله. فحب إبراهيم لا يثبت بكثرة ذكر اسمه، بل بقدر ما في القلب من حنيفيته، وبقدر ما في الحياة من قوله: ﴿**أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

وهكذا ينتهي فصل إبراهيم عند حقيقة مركزية:

لم يكن إبراهيم ملكًا لليهود ولا للنصارى ولا للعرب بوصفهم عرقًا. كان عبدًا لله، ومن أراد الانتساب إليه فطريقه مفتوح بشرط واحد: أن يحمل معنى التسليم.

ومن هنا ستنتقل السورة إلى أعظم إعلان لهوية الأمة الجديدة: **تحويل القبلة**.

سيتوجه المسلمون من بيت المقدس إلى الكعبة التي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعدها. ولن يكون ذلك انتقالًا جغرافيًا في جهة الصلاة فحسب، بل إعلانًا عن عودة الأمة إلى مركز الحنيفية، وعن استقلال رسالتها، وعن تسلمها أمانة الشهادة على الناس.

وسيقول السفهاء:

﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾.

لكن السؤال الحقيقي لن يكون: إلى أي جهة تحركت الوجوه؟

بل:

لمن كانت القلوب تتجه حين تحركت الوجوه؟

الفصل الحادي عشر

القبلة: حين أعاد الوحي توجيه وجه التاريخ

السفهاء الذين رأوا حركة الوجوه ولم يروا معنى الطاعة

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قبل أن يقول السفهاء، أخبر الله أنهم سيقولون.

استقبلت الأمة ضجيج الاعتراض قبل أن يقع، فعرفت أن السؤال القادم ليس مفاجأةً تهز يقينها، بل كلمة كشفها الله قبل أن تخرج من أفواه أصحابها.

إن من أشد ما يربك الإنسان أن يفاجئه الاعتراض من حيث لا يستعد، أما حين يعرف طبيعته ومصدره، فلا يعود صوته أكبر من حقيقته.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾.

لم يسمهم علماء ولا باحثين، مع أنهم طرحوا سؤالًا يبدو في ظاهره متعلقًا بالتشريع. سمّاهم سفهاء؛ لأن السفه ليس أن يعجز العقل عن فهم جزئية، بل أن يسيء تقدير الحقائق الكبرى.

لقد ظنوا أن تحول القبلة تناقض؛ إن كان التوجه إلى بيت المقدس صوابًا، فكيف صار التوجه إلى الكعبة صوابًا؟ وإذا كانت الكعبة هي الحق، فلماذا لم تكن القبلة منذ البداية؟

لكنهم نظروا إلى الجهة ونسوا الآمر. والعبادة لم تكن للحجر ولا للمكان، بل لله الذي أمر بالتوجه إلى جهة، ثم أمر بالتوجه إلى أخرى. كلا الاتجاهين طاعة في وقته، لأن مركز المشروعية ليس الجهة في ذاتها، بل أمر الله.

هنا يظهر الفرق بين من يعبد الله ومن يعبد المألوف.

المؤمن يتوجه إلى بيت المقدس حين يأمره الله، ثم يستدير إلى الكعبة حين يأمره الله. أما من تعلّق بالشكل فقد يظن انتقال التكليف خيانةً للشكل القديم.

إن بعض الناس لا يدافع عن الحق بقدر ما يدافع عن الصورة التي اعتادها للحق. فإذا غيّر الوحي شيئًا من المألوف، شعر أن الأرض تحركت من تحته، لا لأن النص غامض، بل لأن العادة صارت في نفسه أقدس من الأمر.

قالوا: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ**﴾.

لم يسألوا ليفهموا، بل ليثيروا الشك. وهذا هو السؤال حين يتحول من نافذة للمعرفة إلى سلاح نفسي؛ يبدو باحثًا عن الجواب، لكنه في الحقيقة يريد أن يجعل الآخر أقل ثقةً بما يعلم.

فجاء الجواب: ﴿**قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾.

لم يجرّهم القرآن إلى الدفاع عن جهة كأن الأرض مقسمة بين آلهة متنافسة. أعاد الأمر كله إلى مالكه: المشرق لله والمغرب لله، والكعبة لله وبيت المقدس لله، وكل نقطة يتوجه إليها العبد داخلة في ملكه.

ليس في الاتجاه معنى مستقل يفرض نفسه على الله؛ الله هو الذي يمنح الجهة وظيفتها التعبدية.

ثم قال: ﴿**يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾.

والهداية هنا أوسع من معرفة جهة الصلاة؛ إنها معرفة الجهة التي ينبغي أن يقف فيها القلب أمام أمر الله. الصراط المستقيم ليس خطًا جغرافيًا بين الشرق والغرب، بل طريق التسليم الذي يستقيم عليه الإنسان مهما تغيرت مراحل التكليف.

الأمة الوسط: شرف الشهادة وثقلها

﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾

بعد أن قال: ﴿**يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾، بيّن أن من ثمرات هذه الهداية أن جعل المسلمين **أمةً وسطًا**.

الوسط يحمل معنى العدل والخيرية والتوازن، كما يكون وسط الشيء أبعد أطرافه عن الانحراف. ليست الوسطية منطقة رمادية بين الحق والباطل، ولا

تنازلًا دائمًا يرضي الجميع، بل استقامة على ميزان الله؛ لا غلو يجاوز الحد، ولا جفاء يضيّع الحق.

الأمة الوسط لا تؤلّه الروح حتى تحتقر الجسد، ولا تعبد الجسد حتى تنكر الروح. لا تحبس الدين في المحراب، ولا تذيبه في السوق. لا تجعل الفرد كل شيء فتنهار الجماعة، ولا تسحق الفرد باسم الجماعة. لا تفهم القوة بطشًا، ولا تفهم الرحمة ضعفًا.

إنها تجمع العناصر المتباعدة حول مركز الوحي، لا حول تسوية بشرية رخوة.

لكن الوسطية هنا ليست وصفًا للزهو، بل تكليفًا: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾.

الشهادة لا تكتمل بالكلام. الشاهد ينبغي أن يكون عدلًا، وأن يجسد ما يشهد له. فكيف تشهد أمة للعدل إذا شاع الظلم في علاقاتها؟ وكيف تشهد للهداية إذا أضاع أبناؤها الطريق؟ وكيف تدعو الناس إلى كرامة الإنسان ثم تهين الضعيف في داخلها؟

الشاهد الكاذب لا يضر نفسه وحدها؛ يضر الحقيقة التي ادعى تمثيلها.

إن الأمة المسلمة لا تحمل الرسالة بوصفها امتيازًا يرفعها فوق الناس، بل أمانةً تضعها في خدمتهم. اختيرت لتدل، لا لتتعالى؛ ولتنقذ، لا لتحتقر؛ ولتحمل الميزان، لا لتستخدمه في وزن عيوب الآخرين وحدهم.

وكلما زاد شرف الشهادة زادت دقة الحساب.

ثم قال: ﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾.

لسنا شهداء بلا شاهد. الرسول ﷺ يشهد أنه بلغنا، وتشهد سنته على مقدار قربنا من الرسالة التي ندعي حملها.

قبل أن تنظر الأمة إلى الناس من مقام الشهادة، عليها أن تتذكر أنها واقفة تحت شهادة الرسول. ليست صاحبة سلطة مطلقة على الخلق، بل أمة محكومة بالوحي الذي بلغه لها نبيها.

هكذا يمنع القرآن مقام الشهادة من التحول إلى استكبار. أنت شاهد، لكن عليك شاهدًا. تحمل الميزان للناس، والميزان نفسه موضوع عليك.

القبلة الأولى: الامتحان الذي فصل الاتباع عن الارتداد

﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾

الله سبحانه يعلم ما كان وما سيكون قبل وقوعه، لا يخفى عليه شيء. ومعنى ﴿**لِنَعْلَمَ**﴾: ليظهر معلومه في الواقع، ويتميز الناس بالفعل الذي يترتب عليه الحساب.

فقد يعلم المعلم حال الطالب، لكن الامتحان يظهر ما علمه، ويقيم الحجة بالفعل المشهود. ولله المثل الأعلى، وعلمه كامل أزلي، لا يسبقه جهل ولا يلحقه اكتساب.

كانت القبلة امتحانًا للطاعة. يتجه المسلمون أولًا إلى بيت المقدس، ثم يؤمرون بالتحول إلى الكعبة. في الحالتين لا يكشف الامتحان معلومات جغرافية، بل يكشف مَن يتبع الرسول.

﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾.

لم يقل: من يفهم جميع أبعاد الحكم قبل تنفيذه. الاتباع أن تسير خلف الرسول لأنك عرفت صدقه ومصدر رسالته، ولو لم تحط بكل حكمة في الطريق.

وفي المقابل: **﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾**.

صورة إنسان كان يمشي إلى الأمام ثم دار على عقبيه. لم يتوقف فقط؛ رجع إلى الوراء لأن الامتحان كشف أن إيمانه كان مربوطًا بما ألفه، لا بالرسول.

الارتداد قد يبدأ حين يجعل الإنسان لنفسه شرطًا غير معلن: سأطيع ما دام الأمر يأتي كما أتوقع. فإذا جاء التكليف من طريق لم يتوقعه، انكشف أن المرجع الأعلى لم يكن الوحي، بل توقعه الشخصي للوحي.

كبيرةٌ إلا على الذين هدى الله

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾

كان التحول عن القبلة الأولى ثقيلًا؛ لأن الإنسان يتعلق بالمألوف، ولأن أهل الكتاب أثاروا الشبهات، ولأن المؤمنين ربما تساءلوا عن صلاتهم السابقة.

لكنها لم تكن كبيرةً على من هدى الله. ليس لأنهم أدركوا كل الأسرار دفعةً واحدة، بل لأن الهداية جعلت أمر الله أكبر في نفوسهم من ثقل الانتقال.

وهذا معنى يتكرر في السورة. الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، وتحويل القبلة كبير إلا على المهديين. فثقل التكليف لا يتصل بحجمه وحده؛ يتصل بالقلب الذي يحمله.

الحمل نفسه يخف إذا حمله الحب واليقين، ويثقل إذا حمله التردد.

قد تكون كلمة الاعتذار صغيرةً على اللسان، لكنها جبل على قلب متكبر. وقد يكون بذل المال كثيرًا، لكنه يخف على نفس رأت ما عند الله. ليست المقادير الخارجية هي التي تحدد المشقة دائمًا؛ إنما تحددها مواضع التعلق داخلنا.

الله لا يضيع إيمانكم

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

حين تحولت القبلة، خاف المؤمنون على إخوانهم الذين ماتوا قبل التحويل: ماذا عن صلاتهم إلى بيت المقدس؟ وهل ضاع ما أدوه على الأمر السابق؟

جاء الجواب الذي يسكب الطمأنينة: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾**.

سمّى الصلاة إيمانًا؛ لأنها تجسيد للإيمان وطاعة له. فالإيمان في القرآن ليس معنىً نظريًا منفصلًا عن العبادة، بل حقيقة تظهر في الفعل.

ولم يقل: ما كان ليضيع صلاتكم فقط؛ ليوسع المعنى: كل ما أداه المؤمن صادقًا وفق الأمر الذي بلغه محفوظ عند الله.

قد يتغير الحكم، لكن الطاعة التي وقعت في وقتها لا تضيع. فقد توجهوا إلى بيت المقدس امتثالًا، ثم توجهوا إلى الكعبة امتثالًا. الجهة تغيرت، لكن حقيقة العبودية بقيت واحدة.

وما أوسع هذه الآية لكل عامل يخشى ضياع جهده! قد تبني شيئًا ثم تتغير الظروف، وقد تعمل في مشروع لا ترى ثمرته، وقد تنصح فلا يستجيب أحد، لكن ما كان لله لا يضيع عند الله.

الناس قد ينسون، والمؤسسات قد تنكر، والتاريخ قد يسقط اسمك من سجلاته؛ أما الله فلا تضيع عنده سجدة ولا دمعة ولا خطوة مشيتها إليه في الظلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الرأفة رحمة بالغة الرقة تدفع الأذى. خافوا على أعمالهم، فجاءهم الجواب من اسمين يطمئنان القلب. الذي أمركم أولًا هو الذي أمركم ثانيًا، وهو أرحم بعبادتكم من أن يضيعها.

إن التكليف لا يصدر عن إرادة تريد إرهاق الإنسان، بل عن رب رؤوف رحيم يربيه، ولو جاء بعض التدريب في صورة ثقيلة.

وجه النبي إلى السماء

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾

كان النبي ﷺ يحب التوجه إلى الكعبة؛ بيت أبيه إبراهيم، وأول بيت وضع للناس، ومركز الحنيفية. وكان يقلب وجهه في السماء انتظارًا للوحي، من غير اعتراض ولا استعجال متجاوز للأدب.

﴿قَدْ نَرَىٰ﴾.

ما أحنّ هذه العبارة! يرى الله الوجه الذي يتقلب، ويرى الأمنية قبل أن ينطق بها اللسان. لا تضيع عنده إشارة قلب، ولا نظرة رجاء.

قد يدعو الإنسان بالكلمات، وقد يكون وجعه أعمق من أن يجد له عبارة. يكفيه أن الله يرى تقلب وجهه.

والنبي ﷺ لم يكن يتقلب نحو الأرض التي يحبها، بل نحو السماء التي ينتظر منها الأمر. رغبته نفسها بقيت منضبطة بالوحي؛ لم يتوجه إلى الكعبة حتى جاء الإذن.

وهذا أدب الإرادة المؤمنة: قد تحب شيئًا مشروعًا، لكنك لا تسبق أمر الله إليه. ترفع رغبتك إلى السماء بدل أن تجعلها أمرًا واقعًا بقوة الهوى.

ثم جاء الوعد: **﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾**.

رضا النبي ﷺ هنا تابع لرضا الله؛ أحب الكعبة لما تحمله من صلة بإبراهيم والتوحيد، فجاءت الاستجابة تكريمًا له وتقريرًا لهوية الأمة.

إن الله يعلم أمنيات أوليائه، وقد يعطيهم ما يحبون في الوقت الذي تصبح فيه الأمنية جزءًا من حكمة أوسع. تأخرت القبلة التي أحبها النبي، لا نسيانًا لرغبته، بل لأن للانتظار وظيفة وللقبلة الأولى امتحانًا.

بعض الأمنيات لا تتأخر لأن الله منعها، بل لأن معناها لم يكتمل بعد.

فول وجهك شطر المسجد الحرام

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

جاء الأمر إلى النبي أولًا: **﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾**.

ثم إلى الأمة كلها: **﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾**.

قائد يتوجه، وأمة تتوجه معه. من المسجد النبوي إلى أقصى بقاع الأرض، تتجه ملايين الوجوه إلى مركز واحد. تتباعد الأجساد في الجهات، وتتلاقى الوجهات عند البيت.

هذه الوحدة ليست إلغاءً للتنوع؛ لا يلبس المسلمون لغةً واحدة ولا لونًا واحدًا، لكنهم يملكون قبلةً واحدة. والوحدة الصادقة لا تتطلب أن تتشابه التفاصيل كلها؛ تحتاج إلى مركز أعلى تنتظم حوله الاختلافات.

﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي جهته. فالمكلف البعيد يتحرى الجهة بحسب استطاعته، ولا يكلفه الله بما يتجاوز قدرته.

وفي تحويل الوجه تربية للقلب. الوجه هو موضع التعريف والتوجه، وحين يستدير الجسد بأمر الله يُطلب من الباطن أن يستدير معه.

فقد يتوجه الوجه إلى الكعبة، بينما يتجه القلب إلى مدح الناس.

وقد يقف الجسد في الصف، بينما تتنازع الروح قبلات من المال والخوف والهوى.

ليست الغاية أن يعرف الوجه جهته فقط، بل أن يتعلم القلب ألا تكون له قبلتان.

معرفةٌ لم تمنع الجحود

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

كان أهل الكتاب يعلمون أن تحويل القبلة حق بما وجدوه من الدلالات، وبما عرفوه من شأن النبي والبيت، ولكن بعضهم جحد.

تتكرر في السورة مأساة العلم الذي لم ينقذ صاحبه:

﴿لَيَعْلَمُونَ﴾، ثم يعارضون.

العلم قوة في ذاته، لكنه لا يضمن الطهارة الأخلاقية. إذا سكن الحسد والكِبر في القلب، قد يتحول العلم إلى وسيلة أقدر على التمويه.

ولهذا لم يقل القرآن إنهم لا يفهمون، بل حمّلهم مسؤولية ما يعملون: **﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾**.

فالقضية لم تعد نقصًا في البرهان، بل عملًا مقصودًا يعلمه الله.

الآية لا تهزم هوىً قرر ألا يهتدي

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾

قد يتوهم الداعية أن كل رفض سببه عدم كفاية الدليل، فيستنزف نفسه في تقديم مزيد من البراهين لمن اتخذ قراره قبل النظر فيها.

لكن هناك موضعًا لا يعود فيه نقص الدليل هو المشكلة:

﴿بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

ليس عجزًا في الآيات، بل عناد في المستقبل. مَن جعل النتيجة سابقةً على البحث لن تقوده الأدلة؛ سيعيد تفسير كل دليل حتى يظل في موضعه.

وهذه الآية تحرر المؤمن من عبودية الإقناع. عليه أن يقدم الحق بوضوح وعدل، لكنه لا يملك أن يقتحم بالقوة قلبًا أصر على الإغلاق.

ليس نجاح البلاغ أن يوافقك الجميع؛ نجاحه أن تؤدي الحق كما ينبغي.

اختلاف القبلات واختلاف الأهواء

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾

ثبت الله نبيه ﷺ: **﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾**.

فالرسالة لا تبحث عن شرعيتها في موافقة المرجعيات السابقة، وإن كانت تقر بما بقي عندها من حق. لها مصدرها واستقلالها وقبلتها.

ثم كشف تناقض المخالفين: ﴿**وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**﴾.

اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، والنصارى لا يتبعون قبلة اليهود، ومع ذلك قد يجتمعون في الاعتراض على قبلة المسلمين.

وهنا يظهر بطلان محاولة إرضاء الجميع. فالجماعات التي تطالبك بالتنازل لا تتفق فيما بينها على وجهة واحدة. لو تركت قبلة الحق لتنال رضاهم، فلن تجد قبلةً مشتركة ترضيهم جميعًا.

ومن جعل رضا المختلفين مرجعًا عاش بلا اتجاه.

بعد العلم يصير اتباع الهوى ظلمًا

﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾

سمّى آراءهم المخالفة للوحي ﴿**أَهْوَاءَهُمْ**﴾. لأنها ليست هدىً واحدًا، بل رغبات متعددة تشكلها المصالح والعصبيات.

والهوى في أصله ميل، وسُمي به لأنه يهوي بصاحبه إذا اتخذه قائدًا.

خوطب النبي ﷺ على سبيل تثبيت المبدأ وتحذير الأمة. فإذا كان اتباع الأهواء بعد العلم ظلمًا في خطاب النبي، فكيف بغيره؟

والظلم هنا وضع المرجعية في غير موضعها؛ أن تجعل رأي المخلوق فوق أمر الخالق، وتطلب رضا الناس بسخط الله.

كل تنازل عن معلوم من الحق ليس مرونةً محمودة. المرونة تكون في الوسائل والأساليب وما يقبل الاجتهاد، أما الثابت الذي جاء من الله فلا يصبح متغيرًا لأن الضغوط اشتدت.

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

هذه أعلى درجات المعرفة البشرية في التشبيه: يعرف الأب ابنه بين الوجوه، لا يحتاج إلى استدلال طويل ليميزه.

كان بعض أهل الكتاب يعرفون صدق النبي ﷺ أو أمر القبلة بما في كتبهم من البشارات والدلائل معرفةً واضحة.

ومع ذلك: **﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾**.

إن وضوح الحقيقة في العقل لا يضمن إعلانها على اللسان إذا كانت المصلحة تقف عند الحنجرة.

قد يعرف الإنسان الحق كما يعرف ابنه، ثم يتصرف أمام الناس كأنه لم يره. وهذه ليست أزمة معرفة، بل مأساة أمانة.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

الكتمان الذي يصدر عن العالم أثقل من الصمت الذي يصدر عن الجاهل؛ لأن العالم يعرف أن صمته سيترك الناس في الظلام.

ولكن الآية قالت: ﴿**فَرِيقًا مِنْهُمْ**﴾. لم تعمم، محافظةً على عدل القرآن. فكان منهم من عرف الحق فآمن به ولم يكتمه.

إن العدل لا يسقط حتى في سياق الخصومة، بل يظهر صدقه هناك على نحو أوضح.

الحق من ربك فلا تكن من الممترين

﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾

الحق مصدره ربك، لا تصفيق الناس ولا اعتراف أهل الكتاب. وإذا ثبت المصدر لم تضره كثرة المشككين.

جاء النهي للنبي ﷺ وهو الذي لا يشك في وحي ربه، تثبيتًا له وتعليمًا لأمته. فلا تجعلوا الضجيج يعيد الحق إلى طاولة الاحتمال بعد أن ثبت بدليله.

فالشك الصادق قبل ظهور الدليل طريق بحث، أما الاستجابة لكل شبهة بعد استقرار البرهان فقد تتحول إلى اضطراب لا ينتهي. ولو أعاد الإنسان يقينه من نقطة الصفر كلما اعترض معترض، لم يمش خطوةً في حياته.

﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**﴾.

في إضافة الرب تربية وطمأنينة. الذي أرسل الحق هو الذي يتولى تثبيتك عليه. لم يلق إليك الحقيقة ثم يتركك وحيدًا أمام ضجيج الناس.

لكل وجهة

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

للناس وجهات يتوجهون إليها، ولكل أمة قبلة. لكن القرآن لا يريد أن يتحول اختلاف الجهات إلى جدل يستهلك العمر: **﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾**.

بعد أن عُرفت القبلة، لا تقفوا طويلًا عند حدود النقاش عنها؛ تحركوا إلى الغاية التي وُجهتم من أجلها. ليست قيمة القبلة في أن تدخلوا بها معركة رمزية لا تنتهي، بل في أن تجمعكم على عبادة الله وعمل الخير.

﴿فَاسْتَبِقُوا﴾.

لم يقل: افعلوا الخير فقط، بل سابقوا إليه. فالعمر قصير، وحاجات الناس كثيرة، وأبواب الخير قد تغلق. لا تؤجل الكلمة الطيبة حتى يفقدها محتاجها، ولا تؤجل رد الحق حتى ينكسر صاحبه، ولا تؤجل التوبة كأنك تملك موعد النهاية.

والمنافسة المشروعة ليست في تضخيم الذات، بل في الخيرات. بدل أن يسأل الإنسان: من أشهر؟ يسأل: من أنفع؟ وبدل أن تتسابق الجماعات على المواقع، تتسابق على رفع الألم وإقامة العدل.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

تفرقت وجوهكم في الأرض، لكنكم ستجتمعون عند الله. والمسافة التي تفصل بين الناس في الدنيا لا تمنع موعد الجمع.

كل طريق ينتهي إلى الساحة نفسها، لكن الناس يصلون بصحائف مختلفة.

﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾. الذي يجمع الوجوه على قبلة قادر أن يجمع الأجساد بعد أن تتفرق في التراب.

تكرار الأمر لأن الهوية تحتاج إلى تثبيت

﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾

يتكرر أمر القبلة؛ لأن المسألة ليست حركةً عابرة، بل تأسيس هوية. والتكرار في القرآن لا يعيد المعنى فارغًا، بل يثبته من زاوية جديدة.

﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ**﴾: في السفر والحضر، وحيث تحركت في الأرض، تبقى لك قبلة تحفظ مركزك.

الإنسان يحتاج إلى مركز ثابت وسط تغير الأمكنة. قد تتبدل البلاد والظروف والأدوار، لكن لا ينبغي أن تضيع قبلته الداخلية.

من لا يملك ثابتًا داخليًا تعيد الظروف تشكيله كل مرة.

﴿**وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**﴾؛ فلا يتحول الأمر إلى مجرد عادة جماعية. إنه حق من الله، ومصدره هو الذي يمنحه معناه.

لئلا يكون للناس عليكم حجة

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾

تكاملت الحجة بتحويل القبلة إلى بيت إبراهيم. لم يعد لأهل الكتاب أن يقولوا: يزعم اتباع ملة إبراهيم ثم يستقبل غير قبلته، ولم يعد للمشركين أن يحتجوا بأن الكعبة بيت إبراهيم وهم أولى بها.

لكن سيبقى ﴿**الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾؛ فالظالم لا تنتهي حجته بظهور الحق، لأنه لا يبحث عن حجة صادقة، بل عن أي مادة يواصل بها الخصومة.

ولذلك لا ينبغي أن يتوهم المؤمن أن البيان الكامل سيوقف كل اعتراض. هناك اعتراض ينتهي بالجواب، وهناك اعتراض يغير صورته بعد كل جواب؛ لأن غايته ليست المعرفة.

ثم جاء العلاج: ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾.

الخوف هو الذي يصنع كثيرًا من التنازلات. قد يعرف الإنسان الحق، لكنه يخشى السخرية أو العزلة أو خسارة القبول. فيبدأ بتعديل العبارة، ثم يخفف الموقف، ثم يكتشف أنه أصبح بعيدًا عن الأصل الذي أراد تقديمه للناس.

القرآن لا يأمر المؤمن بإنكار أسباب القوة أو إهمال مخاطر الخصوم، بل يمنع أن يصبح خوفهم سيدًا على القرار. تدرس ما يقدرون عليه، لكنك لا تمنحهم في قلبك مقامًا يزاحم خشية الله.

إذا اجتمع خوفان في قرار واحد، فالأعلى منهما هو الذي يحدد الطريق.

إتمام النعمة يحتاج إلى هداية

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

تحويل القبلة جزء من إتمام النعمة. فالنعمة ليست رزقًا ماديًا فقط؛ أن يمنح الله الأمة وجهتها واستقلالها وهويتها نعمة كبرى.

قد يملك الإنسان الطعام والبيت، لكنه يعيش بلا قبلة معنوية، موزعًا بين ما يطلبه الناس منه وما يريده هواه. فهل تمت نعمته حقًا؟

أعظم النعم ليست ما يملأ اليد، بل ما يهدي القلب إلى موضعه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

حتى القبلة ليست غايةً نهائية؛ إنها أداة للهداية. فالاتجاه المكاني ينبغي أن يصنع اتجاهًا أخلاقيًا. من وقف نحو الكعبة ثم سار في حياته نحو الظلم لم يفهم تمام الهداية التي في القبلة.

الرسول الذي جاء استجابةً لدعاء إبراهيم

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

تعود السورة إلى الدعاء الذي رفعه إبراهيم وإسماعيل عند بناء البيت:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

وهنا جاءت الإجابة واقعًا:

﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾.

جعل تحويل القبلة وإرسال الرسول وجهين لإتمام النعمة: بيت يمثل المركز، ورسول يبين المنهج. فلا قيمة للمكان المقدس إذا غابت الرسالة التي تطهره، ولا تتحول الأمة إلى شاهدة بمجرد امتلاك القبلة دون تزكية وتعليم.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾؛ يعيد صوت السماء إلى الأرض.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾؛ يطهر القلب من الشرك والكِبر والحسد والجبن الأخلاقي.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾؛ فلا تبقى الآيات أصواتًا جميلةً بلا فقه.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؛ لتوضع الأحكام في مواضعها، ويُرى الوحي حيًا في سنة النبي ﷺ.

﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

ما لم يكن للعقل أن يستقل بمعرفته من أخبار الغيب والعبادة والغاية والمصير، وما لم تكن الأمة تعرفه من نظام حياتها.

وهنا يتغير ترتيب دعاء إبراهيم؛ قدم في الدعاء التعليم على التزكية، بينما قدمت الاستجابة هنا التزكية على التعليم. وكأن في ذلك إشعارًا بأن التعليم والتزكية متداخلان: علم يهدي التزكية، وتزكية تجعل القلب أهلًا للانتفاع بالعلم.

لا تزكية بلا وحي، ولا بركة في علم لا يزكي.

فاذكروني أذكركم

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

بعد القبلة والرسول والتعليم، تأتي خلاصة الصلة: **﴿فَاذْكُرُونِي﴾**.

كأن كل البناء السابق يريد أن يصل بالإنسان إلى أن يبقى الله حاضرًا في قلبه. فالقبلة تذكير، والصلاة ذكر، والوحي ذكر، والرسول مبلّغ للذكر.

لكن المفاجأة المهيبة هي جواب الذكر: **﴿أَذْكُرْكُمْ﴾**.

ما قيمة أن يذكرك الناس جميعًا إذا لم يذكرك الله؟ وما الذي تخسره إذا غاب اسمك عن المجالس وكان لك ذكر في الملأ الأعلى؟

ذكر العبد محدود بلسان ضعيف وزمن قصير، وذكر الله لعبده رحمة وثناء وقرب وتوفيق لا يحيط به تصور.

يذكره العبد في الرخاء، فيذكره الله باللطف في الشدة.

يذكره في الخلوة، فيذكره الله في ملأ خير.

يذكره وهو فقير إلى كل شيء، فيذكره من بيده كل شيء.

الذكر ليس تكرار الكلمات مع غياب القلب فقط؛ هو استحضار يردع ويهدي. أن تذكر الله عند موضع المعصية فتتوقف، وعند النعمة فتشكر، وعند المحنة فتصبر، وعند القرار فتسأل: ما الذي يرضيه؟

وقد يكثر الذكر على اللسان بينما يبقى السلوك غافلًا. وتمام الذكر أن تتعاون الكلمة والقلب والجوارح.

ثم قال: ﴿**وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾.

الشكر حفظ النعمة في مسارها الصحيح. شكر القبلة أن تتوجه بها إلى الله لا إلى العصبية، وشكر الرسول أن تتبعه، وشكر الكتاب أن تعمل به، وشكر العلم أن تتواضع وتنفع.

والكفر هنا يشمل جحود النعمة وسترها وسوء استعمالها. فقد لا ينكر الإنسان النعمة بلسانه، لكنه يكفر أثرها حين يجعلها وسيلةً للمعصية.

وهكذا ينتهي مشهد تحويل القبلة لا عند الكعبة وحدها، بل عند الذكر والشكر.

فالوجه الذي استدار نحو البيت ينبغي أن يحمل قلبًا يستدير نحو الله.

والأمة التي مُنحت مركزها ينبغي أن تعرف أن المركز ليس سببًا للتفاخر، بل زاد للرسالة.

والذين صاروا شهداء على الناس يحتاجون إلى قلب يذكر الله؛ حتى لا تتحول الشهادة إلى سلطة، والوسطية إلى شعار، والقبلة إلى عادة.

لكن الأمة الجديدة لن تُترك عند حدود الهوية. بعد أن عرفت قبلتها سيأتي امتحان الطريق؛ فالرسالة لا تُحمل في فضاء آمن دائمًا. سيقع الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وسيحتاج القلب الذي عرف اتجاهه إلى القوة التي تحفظه عليه.

الاستعانة التي تسبق الطريق

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

بعد أن حوّل الله القبلة، ومنح الأمة وجهتها المستقلة، لم يتركها أمام تكاليف الطريق متكئة على قوتها وحدها. فالوجهة مهما كانت واضحة لا تعني أن السير إليها سيكون سهلًا؛ وقد يعرف الإنسان الحق كاملًا، ثم يعجز عن احتمال ثمنه.

ولهذا لم يقل الله: امضوا بقوتكم، ولا: ثقوا بقدرتكم؛ بل قال: **﴿اسْتَعِينُوا﴾.**

وفي الكلمة اعتراف ضمني بفقر الإنسان: أنت لا تملك في داخلك كل ما تحتاج إليه لعبور الطريق. إرادتك تتعب، وعزمك يضعف، وقلبك تضيق به الحوادث؛ ولذلك تحتاج إلى مدد يتجاوز قدرتك المحدودة.

إن أول أوهام الإنسان أن يظن أن معرفة الواجب تكفي لأدائه. لكنه قد يعرف ولا يصبر، ويرى الطريق ولا يثبت، ويؤمن بالغاية ثم تهزمه مشقة المسافة. ومن هنا جاءت الاستعانة قبل ذكر البلاء؛ لأن القرآن لا يفاجئ الروح بالعاصفة قبل أن يدلها على المأوى.

الصبر: قوة البقاء مع الحق

﴿بِالصَّبْرِ﴾.

الصبر ليس انتظارًا خاملًا حتى تمر الأيام، ولا استسلامًا للعجز، ولا دفنًا للألم في أعماق النفس. إنه قوة أخلاقية تحفظ الإنسان من أن تنتزعه الشدة من موضعه الصحيح.

قد لا يستطيع الصابر تغيير الحادثة، لكنه يمنع الحادثة من تغيير مبادئه. قد يؤلمه الفقد، لكنه لا يسمح للألم أن يفسد صلته بالله. وقد يطول الطريق، لكنه لا يبيع وجهته من أجل راحة عابرة.

والصبر في القرآن أوسع من الصبر على المصيبة؛ فهو صبر على الطاعة حتى تستقيم، وصبر عن المعصية حين تتزين، وصبر على الأقدار حين تثقل، وصبر في مواجهة الباطل حين يطول أمده.

إنه ليس خُلُقًا على هامش الإيمان، بل الطاقة التي تحمل سائر الأخلاق. فالصدق يحتاج إلى صبر عندما يصبح الكذب أنفع، والعفة تحتاج إلى صبر حين تشتد الشهوة، والعدل يحتاج إلى صبر حين يغري الانتقام، والوفاء يحتاج إلى صبر حين يصبح الغدر أربح.

ومن دون الصبر تعرف النفس الخير، لكنها لا تقدر على الإقامة فيه.

الصلاة: عودة القلب إلى مصدر القوة

ثم قرن الله الصبر بالصلاة: ﴿**وَالصَّلَاةِ**﴾.

فالصبر يمنعك من الانهيار، والصلاة تمدك بما يجعلك قادرًا على الاستمرار. الصبر يحفظ موضع القدم، والصلاة تعيد القلب إلى ربه كلما أوشك الطريق أن يستنفد نوره.

والصلاة ليست استراحة من معركة الحياة، بل عودة إلى الحقيقة التي تمكّنك من خوضها. يدخلها الإنسان مثقلًا بضجيج الأرض، فيقف بين يدي الله، فيستعيد ترتيب الأشياء: يتضاءل ما كان يرهبه، وينكشف زيف ما كان يغريه، ويتذكر أن ما عند الله أكبر من كل ما يفوته.

في الصلاة لا تختفي المشكلة بالضرورة، لكن الإنسان لا يعود إليها بالقلب نفسه. لقد وضع خوفه في موضع العبودية، وردّ ضعفه إلى القوي، وخرج وهو يعلم أن الأمر كله لله.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة؛ لأنها ليست حركة جسد تحاصرها الدقائق، بل باب تخرج منه الروح من ضيق الأسباب إلى سعة التوكل.

إن الصلاة لا تعفيك من العمل، لكنها تحررك من عبادة العمل. تعلمك أن تبذل السبب بكل ما تستطيع، ثم لا تجعل قلبك عبدًا للنتيجة؛ لأنك تعمل في الأرض، لكن تدبير الأمر في السماء.

معية لا تعني غياب البلاء

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هذه هي العطية الكبرى: معية الله الخاصة بنصره وتأييده وحفظه.

لم يقل: إن الصابرين لن يبتلوا؛ فالآية التالية مباشرة ستخبرهم بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات. لكنه أخبرهم بما هو أعظم من السلامة المؤقتة من الألم: أنهم لن يواجهوه متروكين إلى أنفسهم.

قد يقع البلاء، لكن الله معهم.

قد يقل الناصر، لكن الله معهم.

قد تطول الطريق، لكن الله معهم.

وهذه المعية لا تُقاس بزوال الألم فورًا؛ فقد يبقى الجرح، وتتأخر الإجابة، ويستمر الفقد. لكنها تظهر في قلب لم ينكسر عن الله، وفي بصيرة لم يطفئها الحزن، وفي قوة لا يعرف صاحبها من أين جاءت.

إن الصابر قد يبدو للناس واقفًا وحده، بينما تسنده معية لا تراها العيون. وهذا سر تلك الطمأنينة التي توجد أحيانًا في قلب المحاصر، ولا توجد في قلب من أحاطت به أسباب الأمان كلها.

ولم يقل الله: «إن الله مع المتألمين»، بل: ﴿**مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

فالألم قد يقع بغير اختيار الإنسان، أما الصبر فهو موقفه من الألم. ليست الكرامة في مجرد ما أصابك، بل في الصورة التي خرج بها قلبك مما أصابك.

ترتيب قرآني يصنع الاستعداد

ومن بديع ترتيب الآيات أن الأمر بالصبر والصلاة سبق الحديث عن الشهداء والابتلاء: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾،

ثم: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ**﴾،

ثم: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**﴾.

إنها تربية لا تلقي الإنسان في الميدان قبل أن تزوده، ولا تخبره بكلفة الطريق قبل أن تدله على مصادر الثبات. الصلاة إعداد للقلب، والصبر إعداد للإرادة، وتصحيح مفهوم الموت إعداد للتضحية، وفهم الابتلاء إعداد لاستقبال الحياة كما هي، لا كما تتخيلها الأمنيات.

وكأن الآية تقول للأمة التي عرفت قبلتها:

لقد أصبح لكم اتجاه يميزكم، وستدفعون ثمن هذا التميز؛ فلا تدخلوا الطريق معتمدين على حماستكم وحدها. خذوا من الصبر زادًا للإرادة، ومن الصلاة زادًا للروح، ومن معية الله يقينًا لا تستوحشون معه وإن قلّ الرفاق.

بدأ المقطع بقوله: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾،

وانتهى بوصف أهل البر: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾.

فالصبر في أول المقطع أمرٌ يُتلقّى، وفي آخره خُلُقٌ تجسّد في الإنسان. وبينهما تصنع الآيات من المؤمن نفسًا لا تعرف الحق فحسب، بل تملك القدرة على الثبات فيه.

بين الشهادة والبر

كيف تُبنى الأمة التي عرفت قبلتها؟

ما إن استقرت القبلة الجديدة، وعرفت الأمة وجهها الذي تتجه إليه، حتى بدأ القرآن يهيئها لما يترتب على امتلاك الوجهة من أثمان.

فالقبلة ليست جدارًا يستقبله الجسد، بل حقيقة ينتظم حولها العمر. ومن عرف طريقه لم يعد معفيًّا من مشقته؛ إذ لا معنى لأن تكون لك جهة إن لم تكن مستعدًا للسير إليها.

ولهذا جاء الحديث عن الشهادة بعد الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾.

حياة لا تراها الحواس

إن القرآن يصحح هنا مفهوم الحياة نفسه.

نحن نرى الحياة بما يصل إلى الحواس: جسد يتحرك، وصوت يتكلم، وقلب ينبض. فإذا توقف ذلك قلنا: مات. لكن الوحي يفتح نافذة وراء المشهد المرئي،

ويخبرنا أن الشهيد لم يخرج من الحياة إلى العدم؛ وإنما خرج من صورة للحياة نعرفها إلى حياة برزخية لا ندرك حقيقتها.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾.

إنها «بل» التي تهدم حكم الحواس حين تتجاوز حدودها. فالعين ترى جسدًا سكن، أما خبر الله فيكشف حياة لا تراها العين. وليس للمؤمن أن يحاكم الغيب إلى أدوات خُلقت لإدراك الشهادة؛ فالحواس صادقة في مجالها، لكنها لا تملك الوجود كله.

﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

لم يقل: إنهم أحياء على سبيل المجاز الذي يخلّد الذكر؛ بل أثبت لهم حياة، ثم بيّن أن عجزنا عن الشعور بها لا ينفيها. فالوجود أوسع من المساحة التي تبلغها حواسنا، والحقيقة لا تبدأ عند إدراك الإنسان ولا تنتهي عنده.

وهكذا ينقذ القرآن أهل الشهداء من الفكرة الأشد إيلامًا: أن من يحبونهم قد صاروا عدمًا. لقد غابوا عن مجالسهم، لكنهم لم يغيبوا عن ملك الله، ولم تنطفئ حياتهم؛ وإنما انتقلوا إلى جوار لا تستطيع الأبصار أن تتبعه.

غير أن الحديث عن الشهادة لا يعني أن كل الأمة ستُبتلى بالموت؛ فللابتلاء وجوه كثيرة، ولكل إنسان نصيبه من مدرسة الامتحان: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾.**

شيء من البلاء

تتقدم الآية بوعد لا يحبه الطبع، لكنه يحتاج إليه الإيمان: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ**﴾.

فالدين لا يعد الإنسان بأن الإيمان سيجعله بعيدًا عن الحزن، ولا أن الطاعة ستعقد بينه وبين الألم هدنة دائمة. إنما يمنحه شيئًا أعظم: معنى لما يصيبه، ونورًا يعبر به ما لا يستطيع دفعه.

وفي قوله: ﴿**بِشَيْءٍ**﴾

لطف خفيّ. فالذي يصيب الإنسان، مهما استولى على شعوره حتى خُيّل إليه أنه البلاء كله، ليس إلا شيئًا محدودًا في علم الله وقدره. إنه موجة لا البحر كله، وصفحة لا الكتاب كله، وساعة مهما طالت فلن تكون الأبد.

الخوف بلاء الروح قبل أن يقع المكروه.

والجوع بلاء الجسد حين تضيق أسباب البقاء.

ونقص الأموال يصيب ما جمعته اليد.

ونقص الأنفس يصيب من تعلّق بهم القلب.

ونقص الثمرات يصيب ما انتظره الإنسان بعد طول سعيه، فقد يعمل ويزرع ويكاد يمد يده إلى حصاده، ثم تأتي الريح بما لم يحسب.

إنها دوائر الفقد كلها تقريبًا: أمنٌ يضطرب، وجسد يجوع، ومال ينقص، وحبيب يغيب، وثمرة لا تكتمل. فكيف يواجه المؤمن هذا الانكسار المتعدد؟

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

يا للعجب! جاء البلاء في صدر الآية، وجاءت البشارة في ختامها؛ كأن الصبر يحوّل موضع الحزن نفسه إلى ممرّ للخبر السار.

ولم يقل: وبشر الذين لا يتألمون؛ فالصبر ليس موت الإحساس. قد يبكي الصابر، ويشتاق، ويتوجع، وتضيق به الأرض؛ لكن قلبه لا ينفصل عن الله. إن الصبر ألا يتحول الألم إلى اعتراض، وألا يدفعك الفقد إلى فقد نفسك وربك معًا.

ومن هم الصابرون؟

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

ليست هذه كلمات تعزية تُقال عند الموت وحده، بل هي إعادة بناء كاملة للوعي لحظة الانهيار.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: نحن ملكه، وما نحب ملكه، وما بين أيدينا وديعة منه.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ليست المصيبة نهاية الطريق؛ فهناك رجوع، ولقاء، وعدل، وعوض لا تحده مقاييس الدنيا.

بين الجملتين يسترد المؤمن توازنه: من الله كانت البداية، وإلى الله تكون النهاية. وما دام الطريق كله واقعًا في ملكه وحكمته، فلن يكون الألم متروكًا للعبث.

إن المصيبة تقتلع الإنسان من شعوره الزائف بالملكية. كنا نقول: مالي، صحتي، ولدي، حياتي؛ حتى يأتي الفقد فيذكرنا أن الإضافة كانت إضافة انتفاع، لا إضافة امتلاك مطلق. نحن أنفسنا لله، فكيف يكون ما في أيدينا ملكًا مستقلًا عنه؟

ولا يكتفي الله بأن يأمر الصابرين بالاحتمال، بل يفيض عليهم من عطائه: **﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾**.

خسروا شيئًا من الدنيا، فنالوا صلوات من ربهم ورحمة وهداية. وما أعظم الفرق بين ما أخذ البلاء وما أعطى الله! إن عين الإنسان تقف عند موضع الفراغ، أما الوحي فيريه ما امتلأ في الغيب.

الصفا والمروة: حين تصبح الخطوات عبادة

ثم ينتقل السياق من الصبر على البلاء إلى شعيرة تتجسد فيها الحركة إلى الله: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾**.

إنهما حجران ومكانان، لكن انتسابهما إلى أمر الله أخرجهما من الجغرافيا الصامتة إلى فضاء العبادة. فالأشياء لا تكتسب قدسيتها من مادتها وحدها، وإنما مما أقامه الله فيها من معنى وشعيرة.

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

جاء نفي الجناح ليرفع ما علق في نفوس بعض المسلمين من حرج بسبب صلة السعي بممارسات الجاهلية. فالقرآن لا يترك الباطل يستولي على

المعاني الصحيحة لمجرد أنه لامسها زمنًا؛ بل ينزع عنها شوائب الجاهلية، ويردها إلى أصلها النقي.

وهنا معنى حضاري دقيق: ليس كل ما استعمله الباطل باطلًا في ذاته. فقد يعتدي الانحراف على رمز صحيح أو معنى فطري، فلا تكون النجاة بهجر الحقيقة، وإنما بتحريرها مما لحق بها وردها إلى الله.

والسعي بين الصفا والمروة يحمل في هيئته ذكرى أمٍّ وحيدة تمشي بين جبلين، تبحث عن الماء لطفلها في وادٍ غير ذي زرع. هاجر لم تكن تملك خريطة للنجاة، لكنها ملكت يقينًا لم يمنع قدميها من السعي.

إنها لم تجلس إلى جوار إسماعيل تنتظر المعجزة؛ بل سعت. فجاءها زمزم من حيث لم تكن تركض. وكأن الشعيرة تقول لكل مؤمن: ابذل جهدك في الجهة التي تعرفها، فقد يأتيك فتح الله من الجهة التي لا تعرفها.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

سبحان من سمّى نفسه شاكرًا لعبده، مع أنه هو الذي هداه وأقدره وأعانه! يهبك القدرة على الطاعة، ثم يرضى عنك بها، ويثيبك عليها. وهو عليم بما لا يراه الناس من تعب الخطوات وصدق النيات.

جريمة حبس النور

وبعد مشهد السعي، يأتي الحديث عن الذين يمنعون الناس من الوصول: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾.

كتمان العلم ليس مجرد صمت؛ فقد يكون مشاركة خفية في الضلال. من امتلك نورًا يحتاج إليه الناس ثم حجبه عنهم لم يتركهم في مكانهم، بل أسهم في استمرار عثرتهم.

وتشتد الجريمة حين يكون سبب الكتمان منفعةً أو عصبيةً أو خوفًا على المكانة. عندها يتحول العلم من أمانة تهدي الناس إلى رأس مال يحتكره صاحبه، ويصبح العالم حارسًا على باب الحقيقة، لا دليلًا إليها.

إن العالم الذي يبدل وضوح النص ليحمي امتيازه لا يكتم معلومة فحسب؛ بل يحاول أن يقف بين الله وعباده. ولذلك جاءت العقوبة مناسبة للفعل: كما حجبوا الهدى عن الناس، أُبعدوا عن الرحمة.

لكن باب العودة لا يغلق: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾.

ليست التوبة هنا ندمًا باطنيًا فقط؛ لأن الخطيئة تجاوزت صاحبها إلى الناس. ولهذا جاءت في ثلاث حركات:

تابوا: رجعوا في داخلهم.

وأصلحوا: عالجوا ما أفسدوه.

وبيّنوا: أظهروا ما سبق أن كتموه.

فمن أضل علنًا لا يكفيه أن يتوب سرًّا إذا بقي تضليله يعمل بين الناس. إن تمام التوبة أن يسير الإصلاح في الطريق الذي سار فيه الفساد، فيسترد الحق المساحة التي احتلها الباطل.

ثم تعرض الآيات مصير من أغلق على نفسه باب العودة، فمات على الكفر، ويصور العذاب ممتدًا بلا مهلة ولا تخفيف. فالمشكلة لم تكن غياب الدليل، بل الإصرار على ردّه حتى جاءت النهاية، والنهاية تُثبّت ما اختاره الإنسان لنفسه.

إله واحد في كون متعدد الآيات

بعد الحديث عن الذين كتموا الهدى، يعلن القرآن أصل الهدى كله: **﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾**.

إله واحد؛ ولذلك لا يحتاج الإنسان إلى أن يتوزع بين أرباب متنازعة، ولا أن يمزق قلبه على أبواب القوى والأهواء. حين تتوحد الألوهية تتوحد الوجهة، ويسترد الإنسان وحدته الداخلية.

ولم يأت إعلان الوحدانية مجردًا من الرحمة: **﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾**.

فالإله الواحد الذي يخضع له الكون ليس قوة صماء، تعالى الله عن ذلك، بل هو الرحمن الرحيم. وسلطانه ليس منفصلًا عن رحمته؛ وإنما الرحمة أثر يلقاه الخلق من ربوبية الله وحكمته.

ثم يفتح القرآن كتاب الكون: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ...﴾**.

سماء وأرض، وليل ونهار، وسفن تشق البحر، وماء ينزل من السماء، وأرض تحيا بعد موتها، ودواب تتوزع فيها، ورياح تتحول في الجهات، وسحاب مسخر بين السماء والأرض.

ليست الأشياء هنا متناثرة؛ إنها شواهد تتجاوب لتدل على وحدة التدبير. فالماء القادم من السماء يوقظ الأرض، والأرض تنبت، والرياح تحمل السحاب، والبحر يحمل السفن، والليل والنهار ينظمان حركة الحياة. إنه كون تتساند أجزاؤه كما تتساند الكلمات في جملة واحدة.

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

العقل في القرآن ليس آلة للاعتراض على الوحي، ولا زينة يتفاخر بها الإنسان؛ إنه قوة الربط بين الآية ودلالتها، وبين النظام ومنظِّمه، وبين النعمة وواهبها.

يرى الناس جميعًا المطر، لكن ليس كل من رأى الماء رأى الرحمة. ويشاهدون الليل، لكن ليس كل من دخل الظلام أدرك اليد التي طوت النهار. إن المشهد واحد، غير أن القلب هو الذي يحدد مقدار ما يصل منه إلى الإنسان.

حين يتحول الحب إلى عبودية

ومع وضوح الآيات، يتخذ بعض الناس أندادًا: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.**

لم تبدأ مأساة الشرك دائمًا بالسجود لصنم؛ قد تبدأ حين يمنح القلب مخلوقًا مقامًا من الحب والخضوع لا يكون إلا لله. فالحب قوة تصنع الطاعة، وما استولى على غاية حبك استولى على اتجاه حياتك.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

ليس إيمانهم فكرة باردة، بل حب تتجمع فيه ينابيع القلب. يحبون الله لأنه خلق وهدى ورزق وستر وغفر، ولأن كل جمال عرفوه إنما هو أثر من آثار إحسانه في خلقه.

ولا يعني حب الله أن تجف ينابيع المحبة الإنسانية؛ بل أن تنتظم. تحب والديك وأهلك وأصدقاءك، لكنك لا تجعل رضا أحد منهم فوق رضا الله. فالتوحيد لا يقتل العواطف؛ إنه ينقذها من التحول إلى سلاسل.

ثم يرسم القرآن مشهدًا مروعًا: المتبوعون يتبرؤون من أتباعهم، والأسباب التي كانت تصل بينهم تتقطع، ويرى الجميع العذاب. هناك يكتشف التابع أنه سلّم عقله ومصيره لمن لن يحمل عنه شيئًا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾.

لكن البراءة المتأخرة لا تغير المصير. فالآخرة تكشف للإنسان حقيقة الروابط التي عاش بها: كم من علاقة بدت في الدنيا ولاءً، فإذا هي في الآخرة خصومة! وكم من قائد صنع مجده من طاعة أتباعه، ثم كان أول المتبرئين منهم!

الطيب: تحرير المائدة من الخرافة

ثم ينزل التوحيد إلى مائدة الإنسان: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.**

لم يقل: «حلالًا» فقط، بل: **﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾.**

فالحلال يبين حكم المصدر، والطيب يشير إلى سلامة الشيء وملاءمته. والإسلام لا ينظر إلى الطعام وقودًا للجسد فحسب؛ فاللقمة تدخل في بناء الإنسان، ومصدرها الأخلاقي لا يقل شأنًا عن مادتها.

وقد يقود الشيطان الإنسان إلى الحرام خطوة خطوة؛ ولذلك قال: **﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.**

إن الانهيارات الكبيرة لا تبدأ غالبًا بقفزة، بل بتنازل صغير يبدو قابلًا للتبرير، ثم يتبعه آخر، حتى يجد الإنسان نفسه بعيدًا عن الموضع الذي بدأ منه.

والشيطان لا يكتفي بأن يأمر بالسوء والفحشاء، بل يبلغ غاية جرأته حين يدفع الإنسان إلى القول على الله بلا علم: **﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.**

إن نسبة حكم إلى الله بغير علم ليست خطأ فكريًا مجردًا؛ إنها افتراء في مقام التشريع. فقد يرتكب الإنسان المعصية وهو يعلم أنها معصية فيبقى باب التوبة ظاهرًا أمامه، أما من يلبس هواه ثوب الدين فقد يجعل ضلاله مقدسًا، ويغلق على نفسه طريق المراجعة.

آباؤنا: حين يصبح الماضي حجابًا

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

إنها إحدى أقدم حجج الباطل: وجدنا الناس يفعلون، ففعلنا.

لا يرفض القرآن احترام الآباء، لكنه يرفض تحويلهم إلى مصدر للحقيقة فوق الوحي. فالنسب لا يمنح الفكرة عصمة، والقِدم لا يحول الخطأ إلى صواب.

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

الوفاء للآباء لا يكون بوراثة أخطائهم، بل بإنقاذ السلالة من استمرارها. وقد يكون أشد الأبناء برًا بأسرته من امتلك الشجاعة ليقطع عادة فاسدة تناقلتها الأجيال.

ثم يصور القرآن حال من يسمعون ألفاظ الدعوة من غير أن تفتح فيهم نافذة للفهم: **﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.**

يصل الصوت، ولا يصل المعنى. تتحرك الأذن، ويبقى القلب مغلقًا. وهنا تكون المسافة بين السماع والاهتداء أكبر من المسافة بين الصمت والكلام.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ليست العلة عجز الحواس، بل تعطيل وظيفتها المعنوية. فما قيمة عين ترى الكون ولا تقرأ آياته؟ وما قيمة أذن تسمع الوحي ولا تسمح له أن يغير شيئًا؟

كلوا واشكروا

بعد الخطاب العام للناس، يأتي الخطاب الخاص بالمؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾.

يربط القرآن بين الطعام والعبادة. فاللقمة ليست حادثًا بعيدًا عن العقيدة؛ إنها رزق يستدعي معرفة الرازق، والانتفاع بها يستدعي الشكر.

والشكر أوسع من كلمة تقال بعد الشبع. أن تشكر النعمة هو أن تراها من الله، وأن تستعملها فيما يرضيه، وألا تتحول بها إلى طغيان على من حُرمها.

ثم يبين المحرمات: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾.

فالتحريم ليس فوضى تصنعها الأهواء، بل حق لله؛ لأنه الخالق العالم بما يصلح خلقه. ومع وضوح الحكم تظل الرحمة حاضرة: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

لا يريد التشريع أن يحفظ الحكم ويهلك الإنسان؛ بل يحفظ الإنسان بالحكم، ويرفع عنه الحرج عند الضرورة. فالشريعة لا تتجاهل هشاشة الجسد، ولا تطالب الجائع المضطر بأن يموت ليحافظ على الصورة الظاهرة للتكليف.

لكن الضرورة تُقدّر بقدرها: لا بغي ولا عدوان. إنها رخصة تحفظ الحياة، لا بابًا خلفيًا تتسلل منه الشهوة لتعيد تسمية نفسها.

الذين يأكلون النار

ويعود السياق مرة أخرى إلى كتمان الكتاب، لكن الصورة الآن أشد: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ**﴾.

يا له من تصوير يهتك خداع الظاهر!

الناس يرون مالًا يدخل الجيب، والقرآن يرى نارًا تدخل البطن. يرون صفقة ناجحة، والوحي يكشف خسارتها الحقيقية. فالأشياء لا تُعرف بأشكالها العاجلة، بل بمآلاتها عند الله.

وكل ثمن يؤخذ في مقابل تحريف الحق قليل، مهما كثر؛ لأنك لا تستطيع أن تجعل الدنيا كلها ثمنًا مناسبًا لآية من كتاب الله، ولا أن تشتري راحة أيام بعذاب لا ينقضي.

﴿**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ**﴾.

لقد استعملوا الكلام ليحجبوا كلام الله، فكان من جزائهم الحرمان والإبعاد. ولو أنهم آثروا الهدى على المكاسب العاجلة، لطهرتهم الحقيقة؛ لكنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

ليس ثناء على صبرهم، بل تعجيب من جرأتهم على أسبابها. كيف يحتمل عاقل أن يبيع نجاته بهذا الثمن الزائل؟ وكيف يطمئن إلى النار من لا يحتمل شرارة في الدنيا؟

ليس البر أن تستقبل جهة فحسب

ثم تبلغ الآيات ذروتها في واحدة من أجمع آيات القرآن: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.**

بعد الجدل الطويل حول القبلة، يأتي التصحيح الحاسم: ليست القضية حركة وجه مجردة. لقد أمر الله بالقبلة، واستقبالها طاعة، لكن الطاعة الشكلية إذا انفصلت عن حقيقتها الأخلاقية والإيمانية تحولت إلى قشرة تتغذى عليها الخصومات.

فالبر ليس مظهرًا واحدًا يحتكر الدين كله، وليس شعارًا يعلو بينما ينهار الإنسان خلفه. البر بناء متكامل يبدأ من القلب، ويمر بالمال، ويظهر في العبادة، ويثبت في الأخلاق، ويُختبر عند الشدة.

﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.

البداية من التصور؛ لأن السلوك يولد من الطريقة التي يرى بها الإنسان الوجود.

الإيمان بالله يحرره من عبودية ما سواه.

والإيمان باليوم الآخر يمنحه ميزانًا لا تخدعه به الأرباح العاجلة.

والإيمان بالملائكة يوسع وعيه وراء المحسوس.

والإيمان بالكتاب يمنحه نورًا يهديه.

والإيمان بالنبيين يصله بموكب الهداية عبر التاريخ.

ثم يخرج الإيمان من القلب إلى اليد: **﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾.**

إنه يحب المال ويعطيه. ولو لم يحبه لما كان للعطاء تلك الدلالة؛ فالبر لا يظهر حين تمنح ما استغنيت عنه دائمًا، بل حين تنتزع النفس نفسها من شيء تعلقت به لتقدمه طاعة لله ورحمة بعباده.

وقد تعود الهاء في ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ إلى المال، أي يعطيه مع محبته له، ويتضمن السياق كذلك أن يكون العطاء ابتغاء محبة الله. وبين المعنيين يكتمل جمال البذل: تتجاوز حب المال بحب الله.

﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

يبدأ العطاء من الدائرة الأقرب، لكنه لا يتوقف عندها. ينتقل من ذوي القربى إلى اليتيم والمسكين والغريب المنقطع والسائل، ثم يبلغ تحرير الإنسان من الرق.

إن المال في الرؤية القرآنية ليس سورًا يعزل الغني عن الناس، بل جسرًا تعبر عليه الرحمة إلى مواضع الحاجة. وقيمة المال لا يحددها مقدار ما تراكم منه، بل مقدار ما حرره من كرب.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

الصلاة تحفظ صلة القلب بالله، والزكاة تحفظ صلته بالمجتمع. الأولى تمنع الروح من الجفاف، والثانية تمنع المجتمع من التوحش. وبينهما يقوم الإنسان الذي لا يهرب إلى العبادة من حقوق الناس، ولا ينشغل بالناس حتى ينسى ربه.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

العهد هو امتحان صدق الكلمة بعد أن تنقضي لحظة النطق بها. فكثيرون يتكلمون جميلًا حين يكون الكلام بلا كلفة؛ لكن البر يبدأ حين تصبح الكلمة دَينًا على صاحبها.

المؤمن لا يرى الوعد صوتًا مات في الهواء، بل جزءًا من أمانته أمام الله. وإذا عاهد لم يسأل: هل ما زال الوفاء نافعًا لي؟ بل يسأل: كيف ألقى الله وكلمتي مكسورة خلفي؟

ثم يأتي الصبر في ثلاثة ميادين: **﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.**

البأساء: ضيق الفقر والحاجة.

والضراء: ما يصيب الأبدان والنفوس من الألم.

وحين البأس: ساعة المواجهة حين يبلغ الخوف ذروته.

إن البر لا يُعرف في الرخاء وحده. قد تظل القيم جميلة ما دامت لا تكلف صاحبها شيئًا، فإذا جاء الفقر والمرض والخطر ظهر المعدن المستور. هناك لا يبقى من الإنسان ما قاله عن نفسه، بل ما استطاع أن يثبته حين ارتفعت كلفة الثبات.

ثم يختم الله الآية: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.**

صدقوا؛ لأن أعمالهم صدقت ما قالته ألسنتهم.

وهم المتقون؛ لأن التقوى لم تبق شعورًا خفيًا، بل تحولت إلى إيمان وإنفاق وصلاة وزكاة ووفاء وصبر.

وهكذا بدأت هذه المجموعة بالشهداء الذين صدقوا حتى بذلوا أرواحهم، وانتهت بقوله: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾.**

وبين البداية والنهاية ترسم الآيات ملامح الصدق كله: صبر عند المصيبة، وسعي في العبادة، وبيان للحق، وتوحيد للقلب، وتحرير للعقل من التقليد، وتحري للحلال، وإنفاق لما تحبه النفس، ووفاء حين يصبح العهد ثقيلًا، وثبات حين تهتز الأرض.

لقد عرفت الأمة قبلتها في الآيات السابقة، لكن هذه الآيات علمتها أن الوجهة لا تُقاس باتجاه الوجوه وحدها؛ بل باتجاه الحياة كلها.

فقد يستقبل الإنسان الكعبة بوجهه، بينما يتجه قلبه إلى المال، ويتجه خوفه إلى الناس، ويتجه ولاؤه إلى العصبية، وتتجه أعماله إلى هواه.

أما البر، فهو أن تتجه إلى الله كاملًا: بعقيدتك حين تؤمن.

وبقلبك حين تحب.

وبمالك حين تعطي.

وبجسدك حين تصلي.

وبكلمتك حين تعاهد.

وبروحك حين تصبر.

عندها لا تكون القبلة موضعًا أمامك فحسب؛ بل تصبح نظامًا في داخلك، يجمع شتاتك، ويمنح حياتك جهة واحدة.

الفصل الثاني عشر

عدالةٌ تمنع الدم من أن يلد دمًا

القصاص: حين يتدخل الوحي بين القاتل والغضب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾

بعد أن رسمت آية البر ملامح الإيمان الشامل، تنتقل السورة إلى موضع من أشد مواضع النفس اضطرابًا: الدم.

فمن السهل أن يتحدث الإنسان عن العدل وهو هادئ، لكن العدل يُمتحن حين يسقط له قتيل، ويشتعل الحزن في بيته، ويصبح الانتقام في عينيه الطريق الوحيد لتهدئة الألم.

هنا يأتي الوحي، لا ليطلب من المفجوع أن ينكر وجعه، بل ليمنع الوجع من أن يتحول إلى ظلم جديد.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾.

القصاص من المساواة والتتبع؛ أن تتبع الجريمة بمثلها من غير تجاوز، وفق حكم القضاء الشرعي وشروطه الدقيقة، لا وفق غضب الأفراد ولا فوضى الثأر.

كان أهل الجاهلية لا يكتفون بقتل القاتل، بل ربما قتلوا بالواحد جماعة، وبالضعيف سيدًا من قبيلة أخرى، ويجعلون قيمة الدم تابعةً لمكانة صاحبه. لم يكن مقصدهم إقامة العدل بقدر ما كان إثبات تفوق القبيلة.

فجاء القصاص ليقف بين الغضب والسلاح، ويقول: لا يحمل بريء جناية غيره، ولا يتحول دم واحد إلى نهر من الدماء، ولا تمنحك مظلوميتك حقًا مفتوحًا في الظلم.

إن من أخطر ما يقع للإنسان أن يظن أن الظلم الذي وقع عليه يطهّر كل رد يصدر منه. لكنه قد يبدأ مظلومًا وينتهي ظالمًا إذا تجاوز حد الله.

الحق لا يبقى حقًا حين يتضخم على حساب حق بريء.

وقوله: ﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ**﴾ جاء لإبطال ما كان في الجاهلية من التعدي في القصاص، فلا يُقتل غير الجاني بسبب اختلاف طبقته أو جنسه، ولا يطالب أهل القتيل بمن هو أعلى منزلةً في عرفهم بدل قاتله.

وقد دلت بقية نصوص الشريعة على أن النفس بالنفس، وأن الرجل يقتل بالمرأة إذا قتلها عمدًا، وأن العبرة بالجاني نفسه لا بطبقة الضحية. فالآية تقيد فوضى الثأر ولا تنشئ تفاوتًا في قيمة الأرواح.

وما أثمن أن يعلن الوحي في بيئة العصبية أن الدم لا تحدد حرمته قوة القبيلة!

إن الإنسان إنسان قبل أن يكون سيدًا أو تابعًا، ذكرًا أو أنثى، غنيًا أو فقيرًا. وكل نفس تحمل من نفخة الخلق وحرمة الوجود ما يجعل العدوان عليها عدوانًا على بناء الله في الأرض.

القصاص ليس حقًا للأفراد في الفوضى

وحين يقول القرآن: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ**﴾، لا يمنح كل إنسان حق تنفيذ العقوبة بيده. فالقصاص حكم تتولاه السلطة والقضاء بعد ثبوت الجريمة واستيفاء الشروط وانتفاء الموانع.

لو تُرك الدم للغضب الشخصي، لادعى كل قاتل أنه كان يقتص، ولتحولت المدن إلى ساحات لا نهاية فيها للانتقام.

إن العدالة ليست مجرد صحة الحق، بل سلامة الطريق إلى أخذه. قد يكون لك حق، لكن لا يحق لك أن تصل إليه بوسيلة تهدم حقوق الآخرين.

والشريعة حين تنقل القصاص من يد القبيلة إلى حكم القضاء، تنقل المجتمع من الثأر إلى العدالة، ومن الانفعال إلى البرهان، ومن منطق «نحن وهم» إلى ميزان الجريمة والمسؤولية.

العفو: نافذة الرحمة داخل قانون العدل

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾

لم يجعل القرآن القصاص الطريق الوحيد، بل فتح إلى جواره باب العفو والدية.

والعجيب أنه بعد جريمة القتل يقول عن القاتل: **﴿مِنْ أَخِيهِ﴾**.

لم تمح الجريمة أصل أخوة الإيمان إذا كان القاتل مسلمًا، وإن ارتكب كبيرةً عظيمة واستحق العقوبة. وهذا لا يهوّن الدم، بل يمنع الذنب من أن يحول المجتمع إلى وحوش ترى في المذنب كائنًا خرج من كل معنى إنساني.

العدل يقول: هناك جريمة لا بد أن تتحمل تبعتها.

والأخوة تقول: لا تنس أنك تتعامل مع إنسان لم يخرج من كل باب للرحمة.

هذا التوازن لا تقدر عليه النفس الغاضبة بسهولة؛ إما أن تهوّن الجريمة باسم الرحمة، أو تلغي إنسانية الجاني باسم العدالة. أما القرآن فيحفظ الحقين معًا.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾.

العفو هنا من أولياء الدم، كأن يعفوا عن القصاص إلى الدية أو يعفوا مطلقًا. ولم يأمرهم بالعفو أمر إلزام؛ لأن جراحهم حقيقية، ولأن لهم حقًا ثابتًا. لكنه فتح الباب وجعل الرحمة خيارًا كريمًا.

لا تكون الفضيلة فضيلةً كاملة إذا أُجبر عليها صاحب الحق حتى صار عفوه اسمًا آخر لضياع حقه. العفو يسمو حين يصدر ممن يملك أن يطالب.

ثم نظمت الآية العلاقة بعد العفو: ﴿**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾.

على ولي الدم أن يطلب الدية بالمعروف؛ فلا يذل الجاني، ولا يلاحقه بما يتجاوز المتفق عليه، ولا يحول العفو إلى أداة ابتزاز دائم.

﴿**وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾.

وعلى الجاني أو عاقلته أداء الدية من غير مماطلة أو تنقيص أو أذى. فإذا فتح له أهل القتيل باب الحياة، فلا يقابل إحسانهم بجحود الحق.

يا لدقة القرآن! لم يكتف بتقرير البديل عن القصاص، بل دخل إلى أخلاق التنفيذ: طلب بمعروف، وأداء بإحسان. فالحقوق قد تكون عادلةً في أصلها، ثم يفسدها سوء المطالبة أو المماطلة في الوفاء.

تخفيف ورحمة

﴿**ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**﴾

كان القصاص في بعض الشرائع السابقة متعينًا على نحو لا يتسع لخيار الدية، فجاءت الشريعة بهذه السعة: قصاص يحقق العدل، وعفو يفتح باب الفضل، ودية تحفظ حق أولياء الدم وتمنح الجاني فرصةً للحياة والتوبة.

﴿**تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾.

مرة أخرى يأتي اسم الرب في سياق التشريع؛ فالذي يشرع هو الذي يربي، ويعلم تركيب النفس، ويعرف أن الناس لا يستوون في القدرة على العفو ولا في احتمال الفقد.

لم يفرض عليهم مقام الإحسان فرضًا يضيع معه شعورهم بالعدل، ولم يغلق عليهم باب الرحمة بقانون واحد لا بديل فيه.

هذه هي الوسطية في التشريع: ليست ميوعةً بين المواقف، بل وضع كل قيمة في موضعها. للعدل مجاله، وللعفو مجاله، ولصاحب الحق مساحة يختار فيها ما يقدر عليه.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾.

القصاص نفسه رحمة بالمجتمع لأنه يمنع استمرار القتل، والعفو رحمة بالجاني، والدية رحمة بأهل القتيل بما تحفظ من حق مادي، وتنظيم الأمر كله رحمة تمنع الفوضى.

ليست الرحمة دائمًا إلغاء العقوبة؛ قد تكون العقوبة العادلة رحمةً بعشرات الأبرياء الذين كان سيصل إليهم العدوان لو أَمِن القاتل من الحساب.

الاعتداء بعد العفو

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إذا عفا ولي الدم وقبل الدية، ثم عاد فقتل الجاني، فقد جمع بين أخذ العوض والانتقام، ونقض العهد الذي أوقف به القصاص.

إن قبول العفو ليس خدعةً يُمهّد بها لثأر مؤجل. ومن أعطي حق الاختيار ثم اختار، صار ملزمًا بحدود اختياره.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾.

الاعتداء تجاوز الحد، ولو صدر ممن كان في البداية مظلومًا. وهذه قاعدة تربي الأمة على ألا تجعل آلامها تصريحًا دائمًا بالتجاوز.

قد يكون تاريخك مليئًا بالمظالم، لكنه لا يمنحك حق ظلم الجيل الحاضر. وقد تكون جماعتك تعرضت للقهر، لكن هذا لا يطهر قهرها لغيرها حين تصل إلى القوة.

المظلمة تفسر الألم، لكنها لا تبرر العدوان.

في القصاص حياة

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

تبدو العبارة في ظاهرها مفارقة: كيف تكون الحياة في قتل قاتل؟

لكن القصاص لا ينظر إلى الجاني وحده؛ ينظر إلى المجتمع وإلى الدماء التي يحميها ردع العقوبة. حين يعلم من تحدثه نفسه بالقتل أن الجريمة ستعود على حياته، ربما توقف، فتبقى حياة الضحية المحتملة وحياة الجاني نفسه.

وفي القصاص حياة أيضًا لأنه يوقف سلسلة الثأر. بدل أن تظل القبيلتان تقتلان جيلًا بعد جيل، يُحمّل الجاني وحده تبعة فعله وتنتهي دائرة الدم عند حد العدل.

إن العقوبة المنضبطة ليست نقيض الحياة؛ قد تكون سورًا يحرسها.

لكن الآية تخاطب: **﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾**.

أي أصحاب العقول الخالصة من قشور الوهم. فالعقل السطحي يرى القصاص موتًا لأنه ينظر إلى اللحظة الأخيرة وحدها، أما العقل الذي يتأمل المآلات فيرى الأرواح التي حُفظت به.

ومع ذلك لا يجوز تحويل الآية إلى مبرر للتوسع في الدماء أو تجاوز ضمانات القضاء؛ فالحياة المقصودة لا تتحقق بقتل بريء ولا بمحاكمة ظالمة. إذا فسد القضاء، قد تتحول العقوبة التي شُرعت للحياة إلى باب موت، ويكون الخلل من البشر لا من التشريع.

ثم قال: **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**.

حتى قانون القصاص غايته التقوى: أن يتقي الإنسان قتل غيره، وأن تتقي الجماعة فوضى الثأر، وأن يتقي القاضي الظلم في الحكم، وأن يتقي أولياء الدم تجاوز الحد.

فالقانون القرآني لا يريد فقط ضبط الأجساد من الخارج، بل بناء وازع في الداخل.

الوصية: عدالة الإنسان عند اقتراب الرحيل

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

من الحديث عن حياة تُحفظ بالقصاص إلى الحديث عن موت يحضر، تنتقل السورة، لكنها في الموضعين تحرس الحقوق.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

الموت لا يستأذن، لكنه حين تظهر علاماته يكشف للإنسان الحقيقة التي كان يؤجلها: سيغادر، ويبقى المال الذي جمعه.

سمّت الآية المال **﴿خَيْرًا﴾**؛ لأن المال في ذاته نعمة إذا اكتُسب من حلال ووُضع في حق. الإسلام لا يلعن المال، بل يلعن أن يملك المال قلب صاحبه، أو يُجمع من الحرام، أو يُمنع منه الحق.

شرعت الوصية في أول الأمر للوالدين والأقربين، ثم نزلت آيات المواريث فحددت أنصبة الورثة، وبيّنت السنة أنه لا وصية لوارث إلا إذا أجاز بقية

الورثة. وبقيت الوصية مشروعةً في حدود الثلث لغير الوارث، وفي الحقوق والديون والأمانات التي يجب بيانها.

وهكذا انتقلت الشريعة من التوجيه العام إلى التفصيل الدقيق، حتى لا يترك توزيع المال لمزاج المحتضر، فيحرم ضعيفًا ويغدق على محبوب.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

لا وصيةً يقصد بها الإضرار بالورثة، ولا محاباةً تزرع العداوة بعد موته، ولا عطاءً يجاوز الحد المشروع.

قد يظن الإنسان أنه يملك ماله إلى آخر لحظة فيتصرف به كما يشاء، لكن الموت يكشف أنه مستخلف فيه، وأن وراءه حقوقًا شرع الله مسارها.

وما أقسى أن يجعل المرء آخر توقيع في حياته بذرة نزاع بين أبنائه!

الموت ينبغي أن يعيد الحقوق إلى أصحابها، لا أن يفتح أبواب خصومة جديدة.

﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

التقوى تظهر عند توزيع ما تحبه النفس، وعند التفكير في زمن لن تكون موجودًا فيه لترى الثناء. الوصية الصادقة عمل يعبر الموت؛ ينظم حقًا، ويرد أمانةً، ويجعل للمال بعد صاحبه طريقًا لا يظلم أحدًا.

مَن بدّل الوصية حمل إثمها

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قد يموت الموصي ويظن المبدّل أن الشاهد الأكبر غاب، وأن تغيير الكلمات صار سهلًا. لكن من مات ليس الشاهد الوحيد: **﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**.

سمع الوصية حين قيلت، وعلم النية التي حملتها، ويسمع ما يقوله المبدل ويعلم ما يخفيه.

﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾.

إذا أوصى الإنسان وصيةً عادلةً مستوفيةً للشرع، ثم غيرها الآخرون، فلا يحمل إثم التغيير. لقد أدى ما عليه، وانتقلت المسؤولية إلى الأيدي التي عبثت.

وهذه قاعدة تطمئن صاحب الحق الذي فعل ما يستطيع ثم أفسد غيره النتيجة: لا يحمل الإنسان إلا ما دخل في اختياره.

أما التبديل فخيانة مزدوجة: خيانة لميت لا يستطيع الدفاع عن كلمته، وخيانة لحق يعلم الله موضعه.

وأشد الناس ضعفًا في مجال الحقوق من مات؛ انقطع صوته، ولذلك كان حفظ وصيته وأماناته اختبارًا لنزاهة الأحياء.

الإصلاح بين أصحاب الوصية

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ليست كل وصية عادلة. قد يميل الموصي عن الحق خطأً:

﴿جَنَفًا﴾؛ ميلًا غير متعمد أو صادرًا عن اجتهاد خاطئ.

وقد يقصد الظلم: **﴿أَوْ إِثْمًا﴾**؛ فيتعمد الإضرار أو المحاباة المحرمة.

في هذه الحال لا يكون تعديل الوصية العادلة كتبديل الوصية الظالمة. الأول خيانة، والثاني إصلاح.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾.

ليس المطلوب أن يستغل المصلح الخطأ ليفرض هواه، بل أن يعيد الحقوق إلى ميزان المعروف والشرع، ويمنع الوصية من أن تتحول إلى سلاح بعد الموت.

وهنا تظهر دقة التشريع: لا يقدس كلام الميت إذا خالف العدل، ولا يبيح للأحياء أن يعبثوا بكلامه إذا استقام.

الاحترام لا يعني تعطيل الميزان، والإصلاح لا يعني فتح باب التلاعب.

ثم قال: **﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾**.

رفع عنه الحرج؛ لأن تغيير صورة الباطل إلى صورة العدل ليس تبديلًا مذمومًا، بل رد للوصية إلى مقصودها الصحيح.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

يغفر للمخطئ إذا رُدَّ خطؤه، ويرحم الأطراف بإصلاح يمنع الشقاق. وجاءت الرحمة في موضع العلاقات العائلية؛ لأن المال بعد الموت قد يكشف من الجراح والحسد ما يحتاج إلى عناية وحكمة.

حين يضع القرآن يده على موضع الغضب والطمع

يجمع هذا الفصل بين الدم والمال، وهما من أكثر الأشياء قدرةً على إفساد ميزان الإنسان.

عند الدم يشتعل الغضب، فيريد أن يتجاوز.

وعند المال يشتعل الطمع، فيريد أن يستأثر أو يبدّل.

فجاء القصاص ليقول للغاضب: لك حق، لكن حقك له حد.

وجاء العفو ليقول له: فوق العدل مقام من الفضل، إن قدرت عليه دون إكراه.

وجاءت الوصية لتقول لصاحب المال: ما تتركه ليس مادةً أخيرة تمارس بها محبتك وغضبك، بل أمانة ينبغي أن تغادرها بالعدل.

وفي الموضعين يظهر معنى الأمة الوسط: لا تميع الدم باسم الرحمة حتى يأمن القاتل، ولا تطلق الثأر باسم العدالة حتى يموت الأبرياء. ولا تلغي إرادة صاحب المال، ولا تسمح له أن يحول ماله إلى أداة إضرار بمن بعده.

العدل ليس خطًا جامدًا؛ إنه ميزان بالغ الحساسية، يحمل حق الفرد وحق الجماعة، ويمنع كل حق من أن يأكل الحق الآخر.

لكن قوانين الخارج، مهما بلغت دقتها، تحتاج إلى إنسان يملك إرادته. فما قيمة حد يمنع القتل إذا ظل الغضب حاكمًا للقلب؟ وما قيمة نظام للمال إذا ظلت الشهوة قادرةً على شراء الضمير؟

لهذا ستنتقل السورة من تنظيم الدم والمال إلى **تربية الإرادة نفسها**.

سيأتي الصيام ليضع الإنسان أمام أقدم رغباته: الطعام والشراب والشهوة. لا لينكرها، بل ليعيد ترتيب سلطتها عليه.

وسينادي القرآن المؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾.

كُتب القصاص ليحفظ حياة الأجساد من عدوان الغضب، وكُتب الصيام ليحفظ حياة القلب من استبداد الرغبة.

ومن استطاع أن يقول للطعام الحلال في النهار: لا، لأن الله أمره؛ صار أقدر على أن يقول للحرام في حياته كلها: لا، وإن نادته الشهوة.

الفصل الثالث عشر

الصيام: تحرير الإرادة من سلطان الرغبة

يا أيها الذين آمنوا: نداءٌ يوقظ ما في القلب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

كلما جاء في القرآن: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**، شعر المؤمن أن ما سيأتي بعد النداء ليس أمرًا غريبًا عن إيمانه، بل هو ثمرة منه ومقتضى له.

كأن الله ينادي أجمل ما في الإنسان ليعينه على أثقل ما سيُطلب منه: يا من آمنتم بي، إن في إيمانكم قوةً تستطيع أن تحمل هذا التكليف.

لم يقل: يا أيها الجائعون، ولا يا أصحاب الإرادة القوية؛ بل ربط الصيام بالإيمان. لأن الإنسان لا يترك الطعام والشراب ساعات طويلة لمجرد تدريب جسدي، وإنما يتركهما استجابةً لمن آمن به.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

اللفظ نفسه الذي ورد في القصاص والوصية: **كُتب**؛ أي فُرض وأُثبت. فالصيام ليس تجربة روحية اختيارية لمن أحب، بل ركن يشارك في بناء الأمة.

ولم يقل: كُتب لكم، بل ﴿**عَلَيْكُمُ**﴾؛ لأن التكليف يحمل ثقلًا على النفس. فالطعام شهوة أصلية، والماء حاجة ملحة، والجسد معتاد أن يجيب نداءه سريعًا. ثم يأتي الصيام ليضع بين الرغبة والاستجابة كلمةً من أمر الله.

إن أكثر الناس يظنون أنهم يملكون رغباتهم؛ يأكل أحدهم حين يشاء، ويغضب حين يشاء، ويتكلم حين يشاء، ويسمي ذلك حرية. لكن الحرية لا تظهر حين تفعل ما تريد، بل حين تستطيع ألا تفعل ما تريد إذا ظهر لك ما هو أعلى.

من لا يقدر أن يقول لرغبته: انتظري، ليس حرًا منها، وإن ظن أنه يحقق ذاته باتباعها.

الصيام إعلان يومي أن الجسد جزء من الإنسان، لكنه ليس سيد الإنسان.

عبادةٌ سبقتكم إلى الأمم

﴿**كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾.

الصيام ليس عبادةً مقطوعةً عن تاريخ النبوة؛ كُتب على الأمم السابقة بأشكال شرعها الله لها. فالإنسان في كل عصر يحتاج إلى تدريب يحرره من الاسترسال مع الرغبة.

وهذا يشعر المؤمن أنه داخل موكب قديم من العابدين. كم من نبي وصالح مر عليه الجوع لله، وكم من قلب تعلّم بالصيام أن السماء أوسع من المائدة!

إن اشتراك الأمم في أصل الصيام يدل على أن حاجة النفس إليه لا تتغير بتغير الحضارات. تتطور أدوات الإنسان، وتتسع موائده، لكنه يظل يحمل الشهوة نفسها، ويظل محتاجًا إلى تهذيبها.

بل قد تزداد حاجته إلى الصيام كلما ازدادت قدرته على الإشباع. فالمحروم يعرف حدود الضرورة بحكم الواقع، أما القادر على الوصول إلى كل ما يشتهي فقد ينسى أن للإنسان حقًا في الامتناع.

الحضارة التي تعلم الإنسان كيف يحصل على ما يريد، ولا تعلمه كيف يضبط ما يريد، قد تزيد وسائل القوة وتترك صاحبها أضعف أمام نفسه.

التقوى: الغاية التي تتجاوز الجوع

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ليست غاية الصيام أن يجوع الجسد، بل أن يستيقظ القلب. الجوع وسيلة، والتقوى هي المقصد.

فإذا خرج الإنسان من رمضان وقد تغير موعد طعامه ولم يتغير ميزان ضميره، فقد أخذ من العبادة قشرتها وترك لبها.

التقوى أن ينشأ في الداخل حضور لله يمنعك حين لا يراك الناس. والصيام أكثر العبادات تدريبًا على هذا السر؛ يستطيع الصائم أن يختبئ ويشرب قطرةً لا يراه فيها أحد، لكنه لا يفعل، لأن الله يراه.

إنه يتعلم شهرًا كاملًا أن الرقابة الحقيقية لا تحتاج إلى عين بشرية.

وقد يصلي المرء فيراه الناس، ويزكي فيعلم المحتاج، ويحج فيشهد الجمع؛ أما الصيام فجزء كبير منه ترك خفي. لا علامة قاطعة على أن الإنسان صائم سوى أمانته مع الله.

ولهذا كان الصيام مدرسةً للإخلاص. إنه يخفف حاجة العمل إلى الجمهور، ويعيد بناء العلاقة في موضع لا يدخل إليه أحد إلا الله.

لكن التقوى لا تتوقف عند الامتناع عن الطعام. من ترك الشراب ولم يترك الكذب، فقد أمسك فمه عن الماء وأطلقه في أعراض الناس. ومن صبر على الجوع ثم ظلم موظفًا أو قريبًا لأن مزاجه ضاق، فقد جعل العبادة عذرًا لسوء الخلق بدل أن يجعلها علاجًا له.

ليس الصيام أن تجوع وتؤذي، بل أن يجوع فيك أيضًا الغضب والكبر والحسد وحب الانتقام.

أيامًا معدودات: حين يخفف التعبَ إدراكُ النهاية

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

بعد قوله: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾** جاء التخفيف: ليست الحياة كلها صيامًا، بل أيام محدودة يمكن عدها، تبدأ وتنتهي.

البلاء حين لا تُرى نهايته يبدو أثقل، أما حين يعرف الإنسان أن له أمدًا، يقدر على حمله. ولهذا يذكّر القرآن النفس بأن التكليف مهما ثقل محاط بحدود.

كل رمضان يبدو في بدايته طويلًا، ثم يمضي كأنه كان ضيفًا لم يجلس إلا قليلًا. وهكذا العمر نفسه: أيام معدودات، وإن ظنه الإنسان حين يكون في أوله بحرًا بلا شاطئ.

ربما يتعلم الصائم من انقضاء رمضان كيف سينقضي عمره. كان ينتظر الأذان عند كل مغرب، لكنه هو أيضًا ينتظر أذانًا أخيرًا يعلن انتهاء زمن العمل.

﴿**أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ**﴾: فلا تفسد القليل بالتسويف، ولا تقل سأخشع غدًا، وسأقرأ لاحقًا، وسأتوب في آخر الشهر. إن ما يمكن عده يمكن أن ينفد قبل أن تستيقظ.

المريض والمسافر: حين يدخل العذر في صلب العبادة

﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾

لم يأت حكم الصيام متجاهلًا اختلاف أحوال الناس. هناك صحيح قادر، ومريض قد يزيد الصيام مرضه أو يؤخر شفاءه، ومسافر تلحقه المشقة.

ففتح الله لهما باب الفطر والقضاء: ﴿**فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾.

الرخصة ليست نقصًا في الإيمان، بل طاعة من نوع آخر. الذي شرع الصيام هو الذي شرع الفطر عند العذر. وقد يظن الإنسان أن تشدده أقرب إلى الله، مع أن القرب في اتباع أمر الله لا في إثقال النفس بما لم يطلبه.

إن الهوى قد يدخل حتى في باب العبادة؛ يحب الإنسان صورة البطولة أمام نفسه، فيرفض رخصة الله ليقول: أنا أقدر. لكن العبودية ليست إثبات القدرة، بل التسليم للحكم.

والمريض يقدّر حاله بعلم وأمانة، ويستشير الطبيب الثقة عند الحاجة. لا يتخذ أدنى تعب ذريعةً لترك الصيام، ولا يحول العبادة إلى أذى محقق لجسده.

الشريعة تقيم التوازن بين حرمة التكليف وحرمة الإنسان.

وفي قوله: ﴿**مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ مرونة جميلة؛ لم يسقط الواجب ما دام العذر مؤقتًا، لكنه انتقل إلى زمن تتسع فيه القدرة.

فليس التأجيل الشرعي إلغاءً للعبادة، بل وضعًا لها في وقت يستطيع فيه العبد أداءها دون ضرر معتبر.

طعام مسكين: عبادة لا تنسى الجائع

﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾

في أول فرض الصيام كان من يطيقه مخيرًا بين الصيام والفدية، ثم نُسخ هذا التخيير في حق القادر المقيم بوجوب صيام رمضان، وبقي حكم الفدية لمن يعجز عجزًا مستمرًا، كالكبير الذي لا يستطيع الصيام والمريض الذي لا يُرجى برؤه، على تفصيل الفقهاء.

والفدية: ﴿**طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾.

من عجز عن الجوع لله أطعم جائعًا. كأن العبادة ترفض أن تنغلق داخل حالة الفرد؛ إذا لم يستطع أداء صورتها البدنية لعجز دائم، انتقل أثرها إلى جسد محتاج.

إن الصيام يعلّم الغني معنى الجوع لساعات، لكن المسكين قد لا يجد عند المغرب ما ينهي به جوعه. ولذلك لا ينبغي أن يتحول رمضان إلى موسم استعراض الموائد، بينما يتعلم الفقير من روائح الطعام مقدار المسافة بينه وبين الناس.

أي تناقض أن يترك المرء الطعام نهارًا طاعةً، ثم يسرف فيه ليلًا حتى ينسى من لا يملكه!

﴿**فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ**﴾؛ فمن زاد في الإطعام أو وجوه الخير عاد الخير إليه. العطاء يذهب إلى المسكين في الصورة، ويذهب إلى صحيفة المعطي في الحقيقة.

ثم قال: ﴿**وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ**﴾.

حين كان التخيير قائمًا، كان الصيام للقادر خيرًا من الفدية؛ لأن المقصد ليس إطعام المسكين وحده، بل تربية الصائم نفسه. المال يمكن أن يخرج ويبقى الهوى قويًا، أما الصيام فيدخل مباشرةً إلى العلاقة بين الإنسان ورغبته.

﴿**إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

لو عرف الإنسان ما يبنيه الجوع المختار في روحه، وما يدخره الله للصائمين، لما رأى الصيام حرمانًا، بل إعادة تشكيل.

شهر رمضان: حين نزل النور في زمن الصيام

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾

لم يعرّف القرآن رمضان أولًا بأنه شهر الجوع، بل بأنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن.

هذه هي هوية الشهر: زمن نزول الهداية.

فالصيام يفرغ القلب من ضجيج الشهوة، والقرآن يملأ الفراغ بالنور. إذا صام الجسد ولم يتغذَّ القلب بالوحي، تحول الشهر إلى تجربة نقص لا إلى موسم بناء.

هناك جوع يهدم الإنسان، وجوع يفتح فيه مساحةً لخبز الروح.

﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾؛ ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، وأنزل جملةً إلى السماء الدنيا كما جاء عن السلف، ثم نزل منجمًا على النبي ﷺ بحسب الوقائع خلال سنوات الرسالة.

ارتبط رمضان بالقرآن، فلا ينبغي أن تكون صلتنا بالمصحف فيه سباقًا عدديًا وحده. الختمة فضيلة، لكن الغاية أن يختم القرآن شيئًا من الباطل فينا، وأن يفتح في القلب بابًا أغلقته الشهور.

قد يقرأ الإنسان القرآن كله، ولا يسمح لآية واحدة أن توقف ظلمًا في يده. وقد يقف آخر عند آية فتغير طريق حياته.

ليست العبرة بعدد الصفحات فقط، بل بمقدار ما فتحت الصفحات في الإنسان من نوافذ.

هدى للناس

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾.

القرآن ليس كتاب نخبة مغلقة، ولا رسالةً لعرق، بل هداية للناس. يخاطب الإنسان في أصله: خوفه ورجاءه، موته وحياته، عدله وظلمه، ضعفه وتطلعه إلى الخلود.

ثم قال: **﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ﴾**.

ليس هدىً غامضًا يطالب الناس باتباعه بلا دليل؛ فيه براهين واضحة وعلامات تفصل الطريق.

﴿وَالْفُرْقَانِ﴾.

يفرق بين الحق والباطل، لا في القضايا الكبرى وحدها، بل داخل النفس أيضًا: بين الحاجة والشراهة، وبين العزة والكبر، وبين الصبر والذل، وبين الرحمة التي تحفظ الحق والضعف الذي يضيعه.

والإنسان يحتاج إلى الفرقان لأن الباطل قلما يأتيه باسمه الحقيقي. يأتي الطمع في صورة طموح، ويأتي الجبن في صورة حكمة، ويأتي الانتقام في صورة عدالة. والقرآن يعيد الأسماء إلى حقائقها.

من شهد الشهر فليصمه

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾

من حضر الشهر صحيحًا مقيمًا وجب عليه الصيام. لم يعد الأمر تخييرًا للقادر، بل فرضًا يجمع الأمة في عبادة واحدة.

تصوم المدن والقرى، والأغنياء والفقراء، والعلماء والعامة. تختلف موائدهم بعد المغرب، لكنهم يشتركون نهارًا في الامتناع.

يأتي رمضان ليصنع زمنًا جماعيًا للإيمان؛ تتغير فيه إيقاعات المجتمع، ويشعر الفرد أن طاعته جزء من نهر واسع يسير فيه الملايين.

لكن العبادة الجماعية لا تعفي من الصدق الفردي. قد يصوم المجتمع كله بحكم العادة، ويحتاج كل شخص أن يستعيد سؤال النية: لماذا أصوم؟

العادة تساعد الطاعة، لكنها قد تحجب روحها. يفعل الإنسان ما يفعله الجميع، ثم ينسى أنه واقف وحده أمام الله بقصده.

يريد الله بكم اليسر

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

تكررت رخصة المرض والسفر لتثبت داخل الحكم العام، وحتى لا يطغى شعور الجماعة الصائمة على حاجة الفرد المعذور.

ثم جاءت القاعدة: **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾**.

لا يعني اليسر أن كل تكليف خالٍ من المشقة؛ الصيام نفسه فيه جوع وعطش. إنما يعني أن الشريعة لا تقصد التعنت، وأن المشقة غير المعتادة تجلب التيسير، وأن الأحكام في مجموعها واقعة في حدود الطاقة الإنسانية.

ليس كل ما تشتهيه النفس يسرًا، وليس كل ما يثقل عليها عسرًا مذمومًا. الدواء قد يكون مرًا وهو طريق العافية، وترك الشهوة قد يكون شاقًا وهو طريق الحرية.

اليسر الحقيقي ما أوصلك إلى صلاحك من غير عنت زائد، لا ما أبقاك أسير راحتك العاجلة.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

هذه الجملة تهدم صورة الدين الذي يتلذذ بتعذيب الناس. الله غني عن جوعنا، وإنما شرع الصيام لما يصنعه فينا، وفتح الرخصة حين تتحول المشقة إلى ضرر.

ومن الخطأ أن يكون الإنسان أشد على عباد الله مما كانت عليهم شريعة الله؛ يضيق عليهم بابًا وسعه الله، أو يحمّلهم من الأحكام ما لم يحملهم.

ولتكملوا العدة ولتكبروا الله

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

الصيام ليس أيامًا مفككة؛ له عدة تُستكمل. ومن أفطر لعذر قضى حتى يتم العدد.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾.

ينتهي رمضان بالتكبير؛ لأن الإنسان خرج من تدريب طويل على جعل أمر الله أكبر من رغبة الجسد. يقول بلسانه: الله أكبر، بعدما حاول أن يقولها بسلوكه شهرًا كاملًا.

الله أكبر من الجوع حين أمر بالصبر.

وأكبر من العادة حين غيّرها.

وأكبر من المال حين دعاه إلى الإطعام.

وأكبر من الكِبر حين جمعه في صف الصائمين.

لكن التكبير ليس احتفالًا بإنجاز الذات، بل:

﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾.

لم نصم بقوتنا وحدها؛ هو الذي هدانا للصيام وأعاننا عليه. ولذلك لا يخرج المؤمن من رمضان معجبًا بعبادته، بل شاكرًا الله الذي بلّغه ووفقه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

بدأت آيات الصيام بالتقوى، وانتهت بالشكر. التقوى تحرس النعمة، والشكر يعترف بمصدرها.

وإذا سألك عبادي عني

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

بين أحكام الصيام تأتي آية الدعاء، كأن الجوع رقّق الحجاب، وأصبح القلب أكثر استعدادًا للنداء.

وفي مواضع كثيرة من القرآن يأتي السؤال ثم يقال للنبي ﷺ: **قل**. أما هنا فقال الله مباشرةً: **﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾**.

لم يقل: فقل لهم إني قريب. حُذفت الواسطة في الجواب لتشعر الروح أن المسافة أقرب مما تظن.

والقرب ثابت لله على الوجه اللائق بجلاله، قرب علم وإحاطة وإجابة ونصرة، من غير حلول في خلقه ولا مماثلة لهم؛ فهو سبحانه فوق خلقه مستوٍ على عرشه كما يليق بجلاله، وهو قريب من داعيه بعلمه ورحمته وإجابته، **ليس كمثله شيء**.

قال: ﴿**عِبَادِي**﴾.

نسبهم إليه قبل أن يجيبهم. حتى السائل المتردد، والمذنب الذي عاد، والمنكسر الذي لا يعرف كيف يصوغ دعاءه؛ داخل في دفء الإضافة إذا أقبل على ربه.

﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾.

قريب بلا موعد يحدده موظف، ولا باب يغلقه حارس، ولا قائمة بمَن يحق لهم الوصول. تستطيع أن تدعوه في الليل حين ينام الناس، وفي قلب الزحام حين لا يفهم أحد ما بك.

قد يكون حولك كثيرون وتعيش وحشةً لا يلمسها كلامهم، لكن الله يعلم موضعها قبل أن تصفها.

القرب الإلهي لا يعني أن كل ما تدعوه به يقع بالصورة والوقت اللذين اخترتهما؛ القريب هو أيضًا الحكيم. قد يعطيك عين ما سألت، وقد يصرف عنك شرًا، أو يدخر لك الأجر، أو يؤخر الإجابة إلى وقت يعلم أنه أصلح.

إننا نرى الطلب، والله يرى الطلب وعواقبه وكل الطرق التي تتفرع منه.

أجيب دعوة الداع إذا دعان

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

لم يقل: دعوة الصالح الكامل فقط، بل **﴿الدَّاعِ﴾**. كل من صدق في التوجه ودعا الله وحده دخل تحت سعة الوعد، وإن كان قبول الدعاء وآثاره مرتبطًا بحكمة الله، وقد تحول المعاصي وأكل الحرام دون بعض الإجابة.

﴿إِذَا دَعَانِ﴾.

أي دعاني أنا، لا مجرد تحريك اللسان مع تعلق القلب بغيري تعلق العبادة. الدعاء توحيد عملي؛ يعلن فيه العبد أن حاجته لا يملكها على الحقيقة إلا الله.

وقد يؤخر الله ما سألت، فلا تظن أن الدعاء سقط. ليس كل صمت من السماء إهمالًا؛ قد يكون تدبيرًا يعمل في موضع لا تراه.

ورب دعوة استجابها الله بأن غيّر الداعي قبل أن يغير ظرفه. طلب إزالة المحنة، فمنحه قوةً تعبرها؛ ثم اكتشف أن القوة التي وُلدت فيه كانت بعض الإجابة.

الدعاء لا يغيّر القدر خارج علم الله، بل هو من القدر؛ كتب الله الحاجة، وكتب معها أن يرفع العبد يديه، وكتب الإجابة على الوجه الذي شاء.

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

بعد وعد الإجابة، يطلب الله من عباده الاستجابة.

نحن نحب أن يستجيب الله لنا، لكن الآية تعيد السؤال: هل نستجيب نحن له؟

ندعوه أن يفتح أبواب الرزق، ثم لا نستجيب حين يأمرنا بالحلال.

ونسأله صلاح الأبناء، ثم لا نستجيب لمنهج التربية.

ونطلب راحة القلب، ثم نصر على ما يملؤه ظلمة.

إن الدعاء ليس علاقةً يطالب فيها الإنسان بالعطاء دون عهد. الله غني عن طاعتنا، لكن الرشد الذي نطلبه لا يتحقق مع الإعراض عن هداه.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾؛ إيمانًا يثق بوعده وحكمته، فلا يترك الدعاء لأن الإجابة تأخرت، ولا يتهم الرحمة لأنه لم يفهم التدبير.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

الرشد حسن الاهتداء إلى الصواب. قد يطلب الإنسان شيئًا يظنه غاية الرشد، بينما يكون رشده في منعه. والإيمان بالله يجعل القلب مستعدًا لأن يرى الحكمة حتى في الباب المغلق.

ليلة الصيام: الرحمة التي لم تُلغِ الفطرة

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾

في أول الأمر كان على المسلمين تضييق في الأكل والمعاشرة بعد النوم في ليلة الصيام، فوقع من بعضهم ما وقع، ثم خفف الله عنهم وأباح العلاقة الزوجية في ليالي رمضان إلى طلوع الفجر.

قال: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾**.

الدين لا ينظر إلى العلاقة الزوجية الطاهرة بوصفها دنسًا يناقض الروحانية. إنها جزء من الفطرة، تحكمها حدود الله، وتكون في موضعها سكنًا وعفةً ورحمة.

السمو الروحي لا يقوم على احتقار الجسد؛ يقوم على وضع رغباته في الحلال.

هن لباس لكم وأنتم لباس لهن

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾

هذه من أرق صور العلاقة الزوجية في القرآن.

اللباس قريب من الجسد، يستره، ويحميه، ويدفئه، ويزينه. وكذلك ينبغي أن يكون الزوجان: قربًا بلا افتضاح، وسترًا لا تشهيرًا، وحمايةً لا تهديدًا، وزينةً لحياة كل منهما.

قال: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ**﴾، ثم سوى الجانبين: ﴿**وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾. ليست المرأة وحدها مطالبةً بأن تكون سكنًا وسترًا؛ الرجل أيضًا لباس لها. الحقوق متبادلة، والقرب مسؤولية مشتركة.

واللباس يلامس مواضع الضعف دون أن يفضحها. يعرف كل زوج من الآخر ما لا يعرفه الناس، ولذلك تكون خيانة السر الزوجي تمزيقًا للثوب الذي جعله الله سترًا.

حين يتحول أحد الزوجين إلى مصدر خوف للآخر، يكون اللباس قد صار شوكًا. وحين يستعمل أسراره عند الخصومة سلاحًا، يكون قد نزع الستر في أشد اللحظات حاجةً إليه.

علم الله ضعفكم فتاب عليكم

﴿**عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ**﴾

وقعت منهم مخالفة للحكم الأول، فسماها الله اختيانًا للنفس. لم يكونوا يضرون الله، بل يحملون أنفسهم تبعة المخالفة.

لكن الآية لم تقف عند كشف الضعف: ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ**﴾.

علم الله ضعف التركيب البشري، فشرع التخفيف، وقبل توبة من تاب، ومحا الأثر.

إن التشريع لا يصدر عن جهل بالنفس ثم يكتشف صعوبتها؛ الله يعلمها قبل أن يخلقها. لكنه يربيها بالأحكام، ويكشف لها ضعفها، ثم يفتح لها من التيسير ما يوافق الحكمة.

والعفو لا يعني أن المخالفة كانت صوابًا، بل يعني أن الخطأ لم يُجعل خاتمة العلاقة.

فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم

﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

جاء الإذن صريحًا بعد المنع السابق، حتى لا يبقى المؤمن في حرج من الحلال.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ويدخل فيه طلب الولد، وابتغاء العفة والسكن وما أباحه الله من مقاصد الزواج.

حتى اللذة لا تُعزل عن المعنى. لا يطلبها الإنسان بوصفها استهلاكًا لجسد آخر، بل داخل عهد من الرحمة والسكن واحتمال أن تنشأ منها حياة جديدة.

إن الزواج في القرآن لا يحارب الشهوة، بل ينقذها من العبث ويمنحها بيتًا أخلاقيًا.

الخيط الأبيض والخيط الأسود

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾

بعد بيان المباح في الليل جاء حد الإمساك. يأكل الصائم ويشرب حتى يظهر بياض الفجر متميزًا من سواد الليل.

التشبيه بالخيط يرسم لحظة ميلاد الضوء؛ خط رقيق في الأفق يشق الظلمة، ثم يتسع حتى يولد النهار.

ما أبدع أن يبدأ الصيام بهذا المشهد! نور صغير يظهر، فيتوقف الإنسان عن الشهوات المباحة استجابةً للنور القادم.

والحدود واضحة؛ ليل للإباحة، وفجر للإمساك. والعبودية أن يقف الإنسان عند الخط الفاصل، فلا يقدمه تشددًا ولا يؤخره تهاونًا.

قد يظن بعض الناس أن الاحتياط دائمًا زيادة في الدين، لكن الاحتياط إذا خالف السنة قد يصير تضييقًا لما وسعه الله. وقد كان من هدي النبي ﷺ تأخير السحور، لأن الشريعة تريد الامتثال لا تعذيب الجسد.

ثم أتموا الصيام إلى الليل

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾

بدأ الإمساك بالفجر، وينتهي بدخول الليل وغروب الشمس. وبين الحدين يقف الصائم حافظًا لعهده.

قال: ﴿**أَتِمُّوا**﴾.

فالبداية وحدها لا تكفي. قد يبدأ الإنسان نهاره بعزم، ثم تضعف إرادته في منتصف الطريق. والإتمام هو أن يبقى الأمر حاضرًا حتى آخر لحظة.

ولذلك كان الإفطار عند تحقق الغروب سنةً وتعجيله هديًا؛ لأن العبادة تنتهي حيث جعل الله نهايتها. ليس الكمال في إضافة وقت من عندك، بل في الوقوف عند حد الله بدءًا ونهاية.

الصائم يفرح عند فطره، لا لأنه تحرر من عبادة، بل لأنه أتمها. يصبح الطعام نفسه مكافأةً معنوية؛ لقمة واحدة بعد الطاعة تحمل من المعنى ما لم تحمله موائد طويلة في الغفلة.

الاعتكاف: حين يقلل الإنسان المسافة بينه وبين قلبه

﴿**وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾

في الاعتكاف ينقطع الإنسان مدةً للعبادة، فيقلل أصوات الخارج حتى يسمع اضطراب الداخل. وليس الاعتكاف هربًا دائمًا من الحياة، بل خلوة مؤقتة يعود بعدها المرء إلى الحياة بقلب أصفى.

قد يعيش الإنسان وسط الضجيج سنوات دون أن يجلس مرةً مع نفسه. يعرف أخبار العالم ولا يعرف ما الذي يحدث في قلبه.

الاعتكاف يرد إليه هذه المعرفة. مسجد، وقرآن، وذكر، وقليل من الشواغل؛ فتخرج إلى السطح أشياء كان النشاط اليومي يخفيها.

ومع أن المعاشرة الزوجية حلال في ليالي رمضان، فإنها تُمنع حال الاعتكاف؛ لأن لكل عبادة زمنها ومقامها. الحلال نفسه قد يُترك مدةً لمقصد أعلى، لا لأنه صار خبيثًا، بل لأن القلب دخل تدريبًا خاصًا.

تلك حدود الله فلا تقربوها

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾

لم يقل: فلا تتجاوزوها فقط، بل **﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾**.

الحدود لا تُحفظ بالوقوف فوق حافتها دائمًا. من دار حول الحمى أوشك أن يقع فيه. فالإنسان لا يعرف تمام ضعفه، وقد يظن أنه يملك الرجوع في كل لحظة، ثم يفاجأ بأن الخطوة الأخيرة سحبت ما قبلها.

قال في مواضع أخرى: **﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾**؛ فلا تتجاوزوا حدود الحلال إلى الحرام، وهنا قال: لا تقربوها في سياق المحرمات. فالشريعة تحرس الطرفين: لا تجاوز في التشدد، ولا اقتراب من الحرام.

والحدود **﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾**؛ ليست قيودًا صنعتها الثقافة، بل خطوطًا وضعها العليم بالنفس. وقد يرى الإنسان الشجرة وحدها، لكن الله يرى الطريق الذي يبدأ منها وينتهي بعيدًا.

آدم أُمر: **﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾**، وذريته تُقال لها هنا: **﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾**. كأن قصة الإنسان كلها تتكرر عند الحدود: منطقة واسعة من المباح، وحد محدود، وعدو يزين الاقتراب.

لعلكم تتقون: البداية والنهاية

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

بدأت آيات الصيام بقوله: **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**.

وانتهت بقوله: **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾**.

فالتقوى تحيط بالتشريع من بدايته إلى نهايته. الصيام، والرخصة، والدعاء، والعلاقة الزوجية، ووقت الإمساك والإفطار، والاعتكاف؛ كلها ليست تفاصيل متناثرة، بل بناء يتجه إلى قلب يعرف حدوده مع الله.

إن الصيام يعلّم الإنسان درسًا لا ينبغي أن ينتهي عند المغرب: أنك قادر على ترك ما تشتهي.

وأن عين الله تكفي رقيبًا.

وأن الجسد لا يموت إذا لم تُجب كل رغبة فورًا.

وأن الحلال نفسه تحكمه أوقات وحدود.

وأن العبادة لا تعادي الفطرة، بل تنظمها.

وأن الله الذي فرض هو نفسه الذي رخّص، والذي منع هو الذي أحل، والذي علم ضعفك هو الذي تاب عليك.

فإذا انتهى الشهر وعادت الشهوات إلى سلطانها السابق، لم تكتمل ثمرة المدرسة. رمضان لا يريد أن يبقى داخل رمضان؛ يريد أن يخرج معك إلى بقية العام في صورة إرادة أكثر حريةً وقلب أكثر مراقبة.

والآن، بعد أن ضبط الصيام علاقة الإنسان بطعامه وشرابه وشهوته، ستتجه السورة إلى سؤال آخر:

من أين جاء الطعام أصلًا؟

فقد يمتنع الصائم عن لقمة حلال نهارًا، ثم يفطر على مال حرام ليلًا. وقد يدقق في وقت الإمساك دقيقةً، ثم لا يدقق في حق أخذه من ضعيف.

وهنا يأتي التحذير: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**﴾.

فليس الصيام أن تترك الطعام ساعات، بل أن تطهّر الطريق الذي يصل به الطعام إلى مائدتك.

الفصل الرابع عشر

الحج: عودة الإنسان من ثيابه إلى حقيقته

لا معنى لجوع النهار إذا كان إفطارك من الحرام

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

جاءت هذه الآية بعد أحكام الصيام مباشرةً؛ فلا يكفي أن يعرف المؤمن متى يمسك فمه عن الطعام، بل عليه أن يعرف أي طعام يحق له أن يضعه فيه.

قد يمتنع المرء عن قطرة ماء حلال منذ الفجر إلى المغرب، ثم يأكل عند الإفطار مالًا اغتصبه أو رشوةً أخذها أو حقًا جحده. عندئذ يكون قد أطاع الله في توقيت الطعام، وعصاه في مصدره.

الصيام لا يريد معدةً فارغة لساعات فحسب، بل يدًا نظيفةً طوال العمر.

قال سبحانه: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾**.

سمّى مال غيرك مالك؛ لأن المجتمع جسد متصل، وما تأخذه من أخيك بغير حق يفسد نظام المال الذي يحميك أنت أيضًا. فإذا شاع أكل الأموال بالباطل، لم يعد أحد آمنًا على ملكه.

وفي التعبير أيضًا تذكير بأن المال ينبغي أن يدور بين الناس بالعدل، لا أن يتحول إلى مادةٍ يأكل بها بعضهم بعضًا.

﴿بِالْبَاطِلِ﴾.

لفظ يتسع للسرقة والغصب والربا والغش والخداع والقمار وأكل الأجور والميراث والرشوة وكل طريق لم يأذن به الله.

وقد لا يدخل الإنسان بيتًا ليسرق المال بيده، لكنه يغير عقدًا، أو يخفي عيبًا، أو يستغل جهل الطرف الآخر، أو يؤخر أجر الضعيف حتى يرضى بأقل حقه. تتبدل الأدوات، ويبقى الأكل باطلًا.

ثم كشفت الآية فسادًا أشد تعقيدًا: **﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾**.

الإدلاء في أصله إنزال الدلو إلى البئر؛ كأن المال يُمد إلى القاضي أو صاحب السلطة ليُستخرج به حكمٌ ليس لصاحبه.

قد يعرف الإنسان أن الحق ليس له، لكنه يحسن صناعة المستند، ويشتري شاهدًا، أو يرشي مسؤولًا، ثم يخرج وفي يده حكم رسمي.

لكن الحكم القضائي الظاهري لا يحول الحرام في علم الله إلى حلال. القاضي يحكم بما ظهر له، وقد يخدعه الخصم الألحن بحجته؛ أما الله فيعلم أصل الحق قبل الملفات والشهود.

ليست كل ورقة مختومة شهادةَ براءة في السماء.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذا هو موضع الجريمة الأشد: يعلم أنه يأكل مال غيره، ثم يستخدم القضاء لتجميل السرقة. لم يجهل الحق، بل بحث عن طريقة قانونية لدفنه.

حين تُستعمل مؤسسة العدل في الظلم، لا يُسلب الفرد ماله وحده؛ تُسلب ثقة المجتمع في الميزان. وتصير المحكمة التي كان ينبغي أن تحمي الضعيف بابًا آخر يخافه.

والآية تربي الضمير الذي يسبق القاضي: لا تسأل فقط هل أستطيع الفوز بالقضية؟ اسأل: هل هذا المال لي عند الله؟

الأهلة: الزمن الذي يخرج من يد الفوضى

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾

بعد المال ينتقل السياق إلى الزمن. فالإنسان مستخلف في الأمرين: ما يملك، وما يعيش.

سألوا عن الأهلة وتغير أحوالها: تبدو دقيقةً ثم تكبر حتى تصير بدرًا، ثم تعود تتناقص.

فجاء الجواب لا في تفاصيل تكوينها الفلكي، بل في وظيفتها العملية: **﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾**.

السؤال قد يتجه إلى «كيف»، والجواب يلفت إلى «لماذا» التي تمس حياة السائل. ليس لأن البحث في الظواهر الكونية ممنوع؛ القرآن نفسه دعا إلى

النظر، لكن لكل مقام حاجته. كانوا محتاجين هنا إلى معرفة وظيفة الأهلة في تنظيم العبادات والمعاملات والآجال.

تدخل حركة القمر في حياة الإنسان، فيعرف بها بداية الشهر ونهايته، ووقت الصوم والحج والعدة والديون. وكأن السماء تحمل تقويمًا مفتوحًا لا يحتكره غني ولا حاكم.

الزمن في الإسلام ليس فراغًا تتوالى فيه الأيام؛ له مواسم وحقوق. فهناك ساعة صلاة، وشهر صيام، وأشهر حج، وأجل دين، وعدة تحفظ الحقوق.

والإنسان الذي لا يملك وعيًا بالزمن قد يملك عمرًا طويلًا ويبدده كأنه لا يملك شيئًا.

خصص الحج بالذكر لأن الشعيرة مرتبطة بميقات لا يصح أن يصنعه الهوى. فلا يكفي قصد المكان؛ لا بد من احترام الزمان الذي حدده الله.

الحياة المؤمنة ليست اندفاعًا روحيًا بلا نظام؛ حتى الشوق إلى البيت له موعد.

ليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

كان بعض العرب إذا أحرموا بالحج تحرجوا أن يدخلوا البيوت من أبوابها، فدخلوا من ظهورها أو أحدثوا فتحات، وظنوا أن ذلك من البر.

صححت الآية ميزان التدين: **﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾** في اختراع مشقة لم يشرعها الله.

لقد نفت آية سابقة أن يكون البر مجرد تولية الوجه قبل المشرق والمغرب، وهنا تنفي أن يكون البر عادةً طقسية يخترعها المجتمع ثم يمنحها القداسة.

الإنسان ميّال إلى قياس صدق التدين بمقدار ما يوقعه على نفسه من عناء. وقد يرى العبادة السهلة أقل قيمةً، مع أن الله يريد اليسر، ولا تُنال محبته بابتداع المشقات.

ليست كل عادة قديمة دينًا، ولا كل فعل غريب ورعًا.

﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾.

مرة أخرى يُنقل البر من الشكل إلى الإنسان المتقي. العبرة ليست بالباب المادي الذي تجنبته، بل بالباب الأخلاقي الذي تدخل منه إلى أمر الله.

ثم جاءت قاعدة تحمل معنى ظاهرًا ومعنى واسعًا: **﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾**.

في سياقها: ادخلوا البيوت من أبوابها كما يفعل الناس، ولا تجعلوا مخالفة المألوف في غير أمر الله عبادة. وتمتد دلالتها: اطلبوا الأمور من طرقها الصحيحة.

العلم من باب التعلم.

والرزق من باب السعي الحلال.

والإصلاح من باب الفهم والصبر.

والحقوق من باب العدل.

مَن حاول دخول النتائج من غير أبواب أسبابها عاش يبحث عن الاختصار الذي ينتهي غالبًا إلى فساد.

قد يريد المرء مكانة العالم دون صبر القراءة، وثمرة المشروع دون سنوات البناء، ونصر الأمة دون تربية الإنسان. لكنه يقف خلف البيت ويرفض أن يدخل من بابه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح لا يأتي بكثرة الأشكال الغريبة، بل بالتقوى التي تضع العمل في موضعه.

القتال: حماية الطريق لا عبادة الحرب

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

يأتي الحديث عن القتال في سياق الحج؛ لأن المشركين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام وأخرجوهم من ديارهم، فكان لا بد من بيان حقهم في الدفاع وحماية حرية العبادة.

بدأت الآية بتقييد الغاية: **﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**.

لا في سبيل الغنيمة أو الانتقام أو التوسع القومي أو إرواء الغضب. السلاح في الإسلام لا يمنح نفسه القداسة؛ يستمد حكمه من الغاية والوسيلة والحدود.

ثم قيدت الجهة: ﴿**الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾.

ثم وضعت الحد الأخلاقي: ﴿**وَلَا تَعْتَدُوا**﴾.

القتال لا يلغي الأخلاق، ولا يمنح المحارب إجازةً من التقوى. لا يُقتل من لا يقاتل، ولا يُمثّل بالقتلى، ولا يُغدر، ولا تُنقض العهود، ولا يتجاوز الرد مقدار العدوان وفق أحكام الشريعة.

من السهل أن يكون الإنسان أخلاقيًا في السلم؛ لكن المبدأ يُمتحن حين يستفزه العدو. فإذا استطاع الخصم أن يحولك إلى نسخة من ظلمه، فقد أخذ منك شيئًا أعمق من الأرض.

وختمت الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾.

لم يقل: لا تعتدوا لأن الاعتداء قد يضر سمعتكم، بل ربطه بمحبة الله. قد يصفق الجمهور للانتقام، وقد تسميه القبيلة بطولة، لكن المؤمن يسأل: هل يحب الله هذا الفعل؟

فليست كل شدة شجاعة، ولا كل دم نصرًا.

أخرجوهم من حيث أخرجوكم

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾

لا تُقرأ هذه الآية منفصلةً عن قيدها السابق: **﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾**، ولا عن سياق المشركين الذين عذبوا المؤمنين، وأخرجوهم من مكة، وفتنوهم عن دينهم، ومنعوهم من البيت الحرام.

فهي في شأن قتال المحاربين في ميدان الحرب، لا تصريحًا بقتل الناس لمجرد اختلافهم في العقيدة. وقد عاش النبي ﷺ مع غير المسلمين بعهد وسلم، ونهى عن قتل المعاهد والنساء والأطفال ومن لا يشارك في القتال.

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

جزاء من جنس الفعل، لا عدوان مفتوح. لقد أخرج المشركون المؤمنين من ديارهم بغير حق، فجاء الإذن باسترداد المكان الذي طُردوا منه.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

الفتنة هنا اضطهاد الناس في دينهم، وتعذيبهم ليرجعوا عن الإيمان، وإقامة نظام يمنعهم من عبادة الله. وهذا أشد من القتل الذي يقع في دفعها؛ لأنها اعتداء مستمر على الروح والضمير والحياة.

لكن العبارة لا تعني أن كل خلاف فكري «فتنة» تبيح الدم، ولا أن الجماعات تملك أن تسمي خصومها مفتنين ثم تقتلهم. إن تنزيل أحكام القتال من

اختصاص الدولة والسلطة الشرعية ضمن ضوابطها، لا حق للأفراد والجماعات المنفلتة.

حين يُنتزع النص من سياقه وضوابطه، قد يتحول الحكم الذي جاء لمنع العدوان إلى ذريعة لعدوان جديد.

حرمة المسجد الحرام لا يبدأ المؤمن بانتهاكها

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

للمسجد الحرام حرمة خاصة. حتى مع وجود العداوة لا يبدأ المؤمنون القتال في نطاقه: **﴿حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾**.

فإذا انتهك العدو الحرم وبدأ القتال، جاز دفعه. لا تتحول قداسة المكان إلى فرصة يستغلها المعتدي لقتل الناس دون مقاومة، لكنها تظل حاجزًا يمنع المؤمن من أن يكون البادئ.

إن المقدسات تختبر أخلاق القوة. قد يملك الإنسان القدرة على الانتصار، لكن عليه أن يتذكر أن هناك حدودًا لا يحق له أن يكسرها لتحقيق نصره.

النصر الذي يهدم معنى المقدس قد يخسر أكثر مما يسترد.

فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ما أسرع انتقال القرآن من القتال إلى المغفرة!

إذا انتهوا عن العدوان والكفر وآمنوا، أو انتهوا عن القتال فيُكف عن قتالهم بحسب السياق، فلا يستمر المؤمن في الحرب لأنه ذاق لذة الانتقام.

غاية القتال وقف العدوان، لا إطالة الألم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

حتى من حارب وعذب وأخرج يمكن أن يفتح له باب التوبة. لا تجعل الجريمة الماضية أكبر من قدرة الله على تغيير صاحبها.

وقد يحتاج المظلوم إلى زمن طويل حتى يتعافى من الذاكرة، لكن الحكم الشرعي لا يبقى أسيرًا لانفعاله. إذا انتهى السبب الذي شُرع القتال لدفعه، عاد الأصل إلى كف العدوان.

حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

المقصود إزالة الاضطهاد الذي يحول بين الناس وبين عبادة الله، وكسر القوة التي تفتن المؤمنين عن دينهم. **﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾**؛ فلا يُعبد الناس للبشر بالقهر، ولا يُمنعون من توحيد ربهم.

ولم يُشرع القتال لإكراه القلوب على الإيمان؛ فالقلوب لا تؤمن بالسيف، وقد قال الله: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾**. إنما يقاتل النظام المحارب الذي يفرض الفتنة ويصد عن سبيل الله.

ثم كرر الحد: **﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾**.

لا يواصل القتال بعد انتهاء العدوان. وحتى استعمال كلمة **﴿عُدْوَانَ﴾** هنا بمعنى المؤاخذة والجزاء يظل مقصورًا على الظالمين، لا يتسع ليأخذ بريئًا بجريمة غيره.

إن القرآن يحاصر الحرب من جهاتها كلها: غاية مشروعة، وعدو محارب، ومنع للاعتداء، واحترام للحرم، وتوقف عند انتهاء السبب.

فإذا كسرت حرب هذه القيود، لم تصبح إسلاميةً لمجرد أن رايتها كتبت عليها كلمات دينية.

الشهر الحرام بالشهر الحرام

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

كان المشركون قد صدوا المؤمنين عن العمرة في الشهر الحرام، ثم أذن الله لهم أن يعتمروا في العام التالي. وإذا انتهك العدو حرمة الشهر بالقتال، لم تجعل الحرمة المؤمنين فريسةً بلا دفاع.

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

من انتهك حرمةً عوقب بقدر اعتدائه، لا لأن الحرمة سقطت، بل لأن المعتدي لا يجوز أن يتخذها درعًا يحتمي خلفه.

ثم قال:

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

سمّى الجزاء اعتداءً من باب المشاكلة في اللفظ، وإلا فهو رد مشروع، بشرط المماثلة وعدم التجاوز.

وهنا تقع أصعب معادلة في الأخلاق: أن ترد على المعتدي دون أن تصبح معتديًا.

الغضب لا يعرف المثل بسهولة؛ يريد الزيادة. يشعر الإنسان أن ألمه أكبر من كل عقوبة، فيستبيح لنفسه أن يضيف إلى الحق شيئًا من الشهوة.

لذلك جاء بعد الإذن مباشرةً: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾.

تحتاج إلى التقوى حين تكون قادرًا أكثر مما تحتاج إليها حين تكون عاجزًا. فالضعيف قد تمنعه قلة الحيلة من الظلم، أما القوي فلا يمنعه إلا الله.

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾.

لم يقل: مع المنتقمين، بل مع المتقين. قد تملك القوة وتخسر المعية إذا تجاوزت، وقد تلتزم الحد فتربح تأييد الله وإن ظن بعض الناس أنك تركت شيئًا من حق القوة.

أنفقوا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾

لا تُحمل الرسالة بالشجاعة وحدها؛ تحتاج إلى المال. فالجهاد والحج وإغاثة المحتاجين وبناء المجتمع لا تقوم بلا إنفاق.

وقد يظن البخيل أنه يحفظ نفسه بإمساك المال، بينما يكون الإمساك هو طريق الهلاك: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾.

نزلت الآية في معنى ترك الإنفاق والجهاد والانشغال بالأموال، ومعناها يتسع للنهي عن تعمد كل سبب للهلاك. لكنها لا تعني منع كل مخاطرة مشروعة؛ فقد يدخل الإنسان ميدانًا خطيرًا لمصلحة راجحة وبضوابط، ولا يكون ذلك إلقاءً للنفس في التهلكة.

الفرق بين الشجاعة والتهور أن الشجاعة ترى الخطر والغاية والواجب، أما التهور فيعبد الاندفاع.

وقد تكون التهلكة في الفرار من كل خطر أيضًا. الأمة التي تمسك مالها وتترك أسباب قوتها تذبل آمنةً في ظاهرها حتى يفاجئها الهلاك الذي صنعه حرصها.

ثم ارتفع الخطاب من حد الواجب إلى مقام الإحسان:

﴿وَأَحْسِنُوا﴾.

لا تؤدوا الحد الأدنى بقلوب باردة فقط؛ اجعلوا العمل جميلًا في قصده وطريقته. أحسنوا في الإنفاق فلا تمنّوا، وفي القتال فلا تعتدوا، وفي العفو فلا تذلوا، وفي العبادة فلا تؤدوها كحمل تريدون التخلص منه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

المحبة الإلهية على الوجه اللائق بجلال الله، محبة حقيقية لا تشبه محبة المخلوقين. وأي جائزة أعلى من أن ينتقل الإنسان من طلب النجاة إلى مقام محبة الله؟

وأتموا الحج والعمرة لله

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

بدأت آيات الصيام بقوله: **﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾**، وهنا: **﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾**.

العبادة ليست ومضة بداية؛ تحتاج إلى إتمام. كثير من الناس يحسنون الدخول في المشروعات والعهود، لكنهم يتركونها في منتصف الطريق حين تنطفئ حماسة البداية.

ثم قال: **﴿لِلَّهِ﴾**.

قد يحج الإنسان بحثًا عن اللقب، أو الصورة، أو المكانة الاجتماعية، أو التجارة وحدها. والحج في ظاهره مكتمل، لكن الكلمة التي تنقله إلى العبادة هي: لله.

كلما علا صوت التلبية ينبغي أن ينخفض صوت الذات. لقد جئت لأن الله دعاك، لا ليقال إنك جئت.

والإخلاص في الحج شديد الدقة؛ لأن المناسك ظاهرة، والجمع كبير، والحديث عن الرحلة يطول. يحتاج القلب إلى أن يعود كل مرة إلى السؤال الأول: لمن هذا التعب؟

إذا حُصرتم عن البيت

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾

قد يبدأ الحاج طريقه ثم يمنعه عدو أو مرض أو سبب قاهر من إتمام النسك. والشريعة التي أمرت بالإتمام وضعت حكم العجز.

فمن أُحصر تحلل بما استيسر من الهدي وفق أحكامه، ولا يبقى معلقًا في إحرامه إلى ما لا نهاية.

هذه رحمة التشريع: يطلب الإتمام عند القدرة، ويشرع مخرجًا عند العجز. ليس الإخفاق القهري كالتراجع الاختياري.

قد تكون نيتك صادقة، وتسير خطوات، ثم يغلق الطريق. لا يحمّلك الله ما خرج من يدك؛ يرى الوجهة التي قصدتها والعذر الذي أوقفك.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾.

حتى الهدي ربطه بالاستطاعة، فلا يطالب الإنسان بما يعجز عنه. إن الله لا يقيس صدقك بحجم ما لا تملك، بل بأمانتك فيما تملك.

أذى الرأس والفدية

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

يحظر على المحرم حلق شعره، لكن المرض أو الأذى قد يجعله محتاجًا إليه، فتأتي الرخصة مع الفدية: صيام أو صدقة أو ذبيحة، على التفصيل الذي بينته السنة.

تمنح الشريعة هنا خيارات متعددة تراعي تفاوت أحوال الناس. قد يسهل على أحدهم الصيام، وعلى آخر الإطعام، وعلى ثالث النسك.

ليس الناس نسخةً واحدة، والتيسير لا يعني دائمًا حكمًا واحدًا للجميع؛ قد يكون في تعدد الأبواب.

وتتكرر في أحكام الحج قاعدة عميقة: القداسة لا تلغي حاجة الجسد. المحرم في عبادة عظيمة، لكن إذا آلمه رأسه لم يقل له الوحي: تجاهل جسدك. أذن له في إزالة الأذى، وربط ذلك بجبر تعبدي يحفظ حرمة النسك.

فمن تمتع بالعمرة إلى الحج

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

من اعتمر في أشهر الحج وتحلل، ثم أحرم بالحج في عامه، فعليه ما تيسر من الهدي شكرًا لله على جمع النسكين والتمتع بينهما.

مرة أخرى يربط القرآن العبادة بالشكر العملي. التيسير الذي ناله الحاج لا يمر بلا أثر؛ يقدّم هديًا يأكل منه وينتفع الفقراء.

العبادة الفردية تفيض على المجتمع. الحاج يقترب إلى الله، ويصل من قربه طعام إلى محتاج.

فمن لم يجد

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

من لم يجد الهدي أو ثمنه لا يُحرم من النسك ولا يُكلف بما لا يستطيع. ينتقل إلى الصيام: ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد الرجوع.

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

بيان يقطع اللبس ويثبت العدد. وقد يُسأل: أليس الثلاثة والسبعة عشرةً معلومة؟ بلى، لكن القرآن يزيد البيان حتى لا يظن أن الواو للتخيير، أو أن المقصود أحد العددين.

وفي العبارة شعور بالإتمام؛ عشرة كاملة تجبر ما لم يقدر عليه من الهدي. الفقير لا يأتي بعبادة ناقصة؛ يأتي بطريق آخر جعله الله كاملًا.

كم من إنسان يظن أن قربه إلى الله أقل لأنه لا يملك المال! لكن أبواب العبادة لا تحتكرها القدرة المالية. قد يذبح الغني هديًا، ويصوم الفقير، وكلاهما يقف عند الله بقدر إخلاصه لا بقدر ثمن ما قدم.

الحج أشهر معلومات

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾

للحج زمن معلوم، يبدأ فيه الإحرام والاستعداد. ومن ألزم نفسه بالحج ودخل في نسكه، انتقل إلى نظام أخلاقي خاص.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾؛ لا معاشرة زوجية ولا مقدماتها ولا فحش في القول.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾؛ لا خروج عن طاعة الله بالمعاصي.

﴿وَلَا جِدَالَ﴾؛ لا خصام يفسد روح الحج، ولا نزاع في أمر استقر وقته وأحكامه.

ما العلاقة بين هذه الأمور والحج؟

إن الحاج خرج من ثيابه المألوفة، وترك زينةً وعطرًا وأشياء مباحة، كي يتعلم أن الرحلة إلى الله تحتاج تخفيف ما يشغله. فإذا حمل معه شهوته ولسانه الغاضب وروح الخصام، فقد غيّر ثوبه وأبقى أثقاله الداخلية.

الحج ازدحام شديد؛ تختلف اللغات والعادات، وتتقارب الأجساد، ويقع التعب. ولذلك يكون كظم الغيظ واحتمال الناس من صميم النسك.

قد يطوف الإنسان حول الكعبة، لكنه يجعل نفسه مركز العالم؛ يدفع هذا ويؤذي ذاك ليقترب من الحجر. أراد فضيلة، فهدم في طريقها حرمة مسلم.

ليس المقصود أن تصل إلى موضع مقدس بأي طريقة، بل أن تصل بقلب تعلم منه الأدب.

وما تفعلوا من خير يعلمه الله

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾

وسط ملايين الحجاج قد تضيع أعمال صغيرة من أعين الناس: رجل يفسح مكانًا لضعيف، وامرأة تسقي عطشانًا، وشخص يكظم غضبه، وآخر يحمل متاع شيخ لا يعرفه.

لكنها لا تضيع:

﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

لم يقل هنا: يثبكم عليه، مع أن الثواب ثابت؛ جعل العلم نفسه موضع الطمأنينة. يكفي المخلص أن عمله دخل علم الله.

قد لا يشكرك من ساعدته، وقد يظن الناس أنك لم تفعل شيئًا، لكن الخير لم يكن محتاجًا إلى ذاكرة البشر كي يبقى.

وفي المقابل يعلم الله الخير الحقيقي من صورته. ربما تنازل إنسان عن حقه لأنه خاف، فسماه الناس حلمًا؛ ويعلم الله ضعفه. وربما صبر آخر وهو قادر على الرد طلبًا لرضا الله، فيعلم الله صدقه.

الزاد الذي لا تحمله الحقائب

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

كان بعض الناس يخرجون للحج بلا زاد، ويقولون: نحن المتوكلون، ثم يسألون الناس. فأمرهم الله بالتزود.

التوكل لا يعني أن تجعل تقصيرك حملًا على الآخرين. خذ من الطعام والمال ما تحتاج إليه، ثم توكل على الله الذي جعل الأسباب.

لكن الآية نقلت العقل من زاد الطريق القصير إلى زاد الرحلة الكبرى:

﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.

كل ما تحمله إلى مكة سينفد أو يعود معك. أما التقوى فهي الزاد الذي يعبر القبر.

يسأل المسافر عن الماء والطعام والوثائق، لكن كم مرة يسأل نفسه: ماذا أحمل للقاء الله؟

قد تمتلئ حقيبته وتفرغ صحيفته.

والتقوى خير الزاد لأنها ترافق الإنسان حين يترك الأشياء كلها. المال ينتهي عند الورثة، واللباس عند الكفن، والاسم عند شاهد القبر؛ أما أثر الخشية والطاعة فيدخل معه وحده.

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

العقل الخالص يعرف أن المسافر الذي يعتني بطريق أيام وينسى طريق الأبد قد أساء الحساب.

ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾

تحرج بعض المسلمين من التجارة في موسم الحج، فرفع الله الحرج. يمكن للحاج أن يبيع ويشتري ويطلب الرزق الحلال، ما دام ذلك لا يطغى على نسكه.

وهنا يظهر التوازن من جديد: الحج عبادة كبرى، لكنه لا يطلب من الإنسان أن يخرج من الحياة الاقتصادية تمامًا. الروحانية في الإسلام لا تعني رهبانية تعادي الكسب.

سمّى الرزق ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ فالتاجر يسعى، لكنه لا يخلق النتيجة. السوق باب، والمعطي هو الله.

قد يخرج الإنسان للحج بقلب يريد الله، وتحمل يداه بضاعةً حلالًا؛ فلا تناقض ما دامت التجارة في اليد ولم تحتل القبلة في القلب.

المشكلة ليست في أن تدخل السوق بعد الصلاة، بل أن يدخل السوق إلى صلاتك فيستولي على قلبك.

أفيضوا من عرفات

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾

عرفات هو قلب الحج؛ يقف الناس في صعيد واحد، بثياب متشابهة، لا يمتاز غني بمظهره ولا صاحب منصب بحاشيته.

إنه مشهد يشبه الحشر: جموع خرجت من زينتها، ووقفت تنتظر الرحمة. غير أن باب العمل هنا لا يزال مفتوحًا، والألسنة قادرةً على الدعاء، والتوبة ممكنة.

في عرفة يعود الإنسان من ثيابه إلى حقيقته. ليست قيمته فيما يرتديه ولا فيما يملكه، بل في القلب الذي جاء به.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾.

الإفاضة حركة جمع غفير، كالماء يفيض من موضعه. لكن وسط هذه الكثرة يبقى لكل فرد سره مع الله.

ثم عند المشعر الحرام في مزدلفة: **﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾**.

لا تجعلوا حركة الجموع تنسيكم غاية الحركة. فالمناسك ليست انتقالًا بين مواقع، بل ذكر يتخذ شكل خطوات.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾؛ وفق ما شرع، وبشكر يليق بنعمة الهداية.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

لا يغتر الحاج بأنه وصل إلى الموضع؛ لولا هداية الله لما عرف البيت ولا النسك ولا الدعاء. إن وقوفك في عرفة ليس شهادةً بكمالك، بل شاهد فضل عليك.

أفيضوا من حيث أفاض الناس

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

كانت قريش، لما لها من مكانة الحرم، تقف بمزدلفة ولا تخرج إلى عرفات مع سائر الناس، ترى لنفسها امتيازًا دينيًا.

فجاء الأمر: **﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾**.

اخرجوا من امتيازكم، وادخلوا في الجمع. لا توجد في الحج طبقة دينية لها مناسك أرفع من مناسك الناس.

ما أقسى أن يحول الإنسان خدمته للمقدس إلى شعور بأنه أقدس من الآخرين! يبدأ حاملًا للأمانة، ثم يرى الأمانة تاجًا يرفعه فوق من جاء لخدمتهم.

الحج يهدم هذا الاستعلاء. الكل يقف حيث يقف الناس، ويفيض حيث يفيضون، ويلبس كما يلبسون.

ثم بعد أداء المناسك يقول: **﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾**.

عادة الناس أن يطلبوا الثناء بعد الإنجاز، أما القرآن فيعلم المؤمن أن يطلب المغفرة بعد العبادة. لأن العمل مهما عظم لا يخلو من نقص: غفلة، أو رياء، أو أذى، أو تقصير في الخشوع.

الاستغفار بعد الطاعة يحفظها من العجب.

ذكر الله كذكركم آباءكم أو أشد

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

كان العرب بعد الحج يجلسون يذكرون مفاخر آبائهم: كرم هذا، وشجاعة ذاك، ومكانة القبيلة. فجاء القرآن لينقل مركز الذاكرة من أمجاد النسب إلى فضل الله.

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

فالآباء أسباب قريبة في وجود الإنسان، أما الله فهو خالق الآباء والأبناء، ومصدر كل فضل افتخروا به.

لا يمنع الإسلام حفظ فضل الآباء، لكنه يمنع أن يتحول النسب إلى معبود معنوي. إذا صار الإنسان يرى حق جماعته فوق الحق، وعيبها فضيلة، ومظلوميتها إذنًا بظلم الآخرين، فقد خرج الذكر من الوفاء إلى العصبية.

الحج يخرج الإنسان من اسمه العائلي لحظات، حتى يعود إلى الاسم الأول: عبد الله.

ربنا آتنا في الدنيا

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾

حتى في أقدس الأماكن قد يبقى القلب دنيويًا. يقف عند الكعبة، ويرفع يديه، لكنه لا يطلب إلا مالًا وصحةً ونصرًا ومكانةً في الدنيا.

ليست هذه المطالب محرمة؛ الله أمرنا أن نسأله من فضله. المشكلة أن تنتهي خريطة الإنسان عند الدنيا، فلا يكون للآخرة نصيب من دعائه واهتمامه.

قد يقف الجسد في عرفات، ويبقى القلب في السوق.

﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ لا نصيب، لأنه لم يطلبها بإيمان ولا عمل، وجعل كل توجهه للعاجلة.

إن دعاء الإنسان يكشف أفقه. ما الذي يسأل عنه دائمًا؟ ماذا يحتل قائمة خوفه ورجائه؟ قد تكون الكلمات دينية، لكن المطلوب كله دنيوي.

حسنة الدنيا وحسنة الآخرة

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

هذا هو دعاء التوازن؛ لم يرفض الدنيا، ولم يجعلها كل شيء.

﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

لفظ واسع يجمع الرزق الحلال، والعافية، والبيت الطيب، والعلم النافع، والعمل الصالح، والزوج الصالح، والكرامة والأمن وكل ما يعين على طاعة الله.

الإيمان لا يطلب من الإنسان أن يتمنى بؤسه في الدنيا. يطلب الحسنة، لكنه لا يطلبها منفصلةً عن الآخرة.

﴿**وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾؛ الجنة والرضوان والأمان يوم الفزع.

﴿**وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

لم يغتر بحسناته ولا بدعائه؛ سأل الوقاية. يعرف أن النجاة ليست بذكائه، بل برحمة الله مع الإيمان والعمل.

يجمع الدعاء الأزمنة كلها في كلمات قليلة: حياة طيبة هنا، ونعيم هناك، ونجاة من النار.

وهو من أكثر دعاء النبي ﷺ؛ لأنه يرفض التشظي بين دنيا بلا آخرة وآخرة تُطلب بإهمال مسؤوليات الدنيا.

نصيب مما كسبوا

﴿**أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾

الدعاء ليس أمنيةً منفصلةً عن الكسب: ﴿**مِمَّا كَسَبُوا**﴾.

يسألون، ويعملون. يرجون حسنة الدنيا فيسعون بأسبابها الحلال، ويرجون حسنة الآخرة فيزرعون لها الطاعات.

والعبد لا يستحق على الله شيئًا استقلالًا، وإنما يتفضل الله بالجزاء، لكنه ربط الأسباب بمسبباتها وعدلًا ورحمة.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لا يشغله حساب إنسان عن آخر، ولا يحتاج إلى زمن يستعرض فيه الصحائف. والموعد الذي يراه الناس بعيدًا سريع؛ لأن كل ما هو آت قريب، ولأن العمر أقصر مما يوحي به انشغالنا.

أيام معدودات وذكر ممتد

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

الأيام المعدودات هي أيام التشريق؛ أيام ذكر وأكل وشكر ورمي للجمار وإتمام للمناسك.

مرة أخرى: أيام معدودة. العبادة تمر، لكن أثرها ينبغي ألا يمر. ينتهي الحج، ويخلع الحاج إحرامه، لكن عليه ألا يخلع التقوى معه.

أباح الله التعجل بعد يومين من أيام التشريق، وأباح التأخر إلى اليوم الثالث: **﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾** في الحالين.

حين يفتح الله طريقين صحيحين لا ينبغي للناس أن يحولوا السعة إلى خصومة. قد يختار أحدهم التعجل، ويختار الآخر التأخر، وكلاهما داخل المشروع.

ليس كل اختلاف في الفروع انقسامًا بين حق وباطل. أحيانًا يكون الطرفان داخل دائرة الإذن، لكن ضيق النفوس يجعل كل واحد يريد تحويل اختياره إلى الدين كله.

ثم قيد الأمر: ﴿**لِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾.

العبرة ليست بطول الإقامة وحده؛ قد يتأخر إنسان ويؤذي الناس، ويتعجل آخر وقلبه أتقى. الأعمال الظاهرة تُوزن بما يصاحبها من خشية وأمانة.

إليه تحشرون

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾

ينتهي الحج بالحشر.

والصلة ظاهرة: في الحج تخرج الجموع من أوطانها إلى بيت واحد، وفي الآخرة تخرج البشرية من قبورها إلى موقف واحد. في الحج يلبسون ثيابًا متشابهة، وفي الحشر تسقط الزينة كلها. في الحج يرفعون التلبية، وفي الحشر يقفون ينتظرون الحكم.

لكن الحج رحلة يعود منها الإنسان إلى بيته، أما الحشر فرحلة لا عودة بعدها إلى الدنيا.

﴿وَاعْلَمُوا﴾.

ليس المطلوب أن تذكر الحشر كخبر بعيد، بل أن تعلمه علمًا يدخل في القرار. مَن يعلم أنه سيُحشر لا يستصغر حقًا، ولا يظن أن الزحام سيخفيه، ولا أن كثرة الناس ستوزع عنه المسؤولية.

سيأتي إلى الله وحده، وإن حُشر مع الجميع.

ماذا ينبغي أن يعود من الحج؟

ليس الحج أن يعود الإنسان بلقب جديد وثياب وهدايا فقط، بل أن يعود وقد سقطت من داخله طبقة من الوهم.

رأى الناس متساوين في الإحرام، فلا يعود ليستكبر بثوبه.

وقف في عرفات، فلا يعود وينسى وقوفه الأكبر.

رمى الجمرات، فلا يعود متصالحًا مع الشيطان في معاملاته.

طاف حول بيت واحد، فلا يعود بقلب يطوف حول مراكز متنافسة.

قال: «لبيك»، فلا ينبغي أن يصم أذنه حين يناديه الله في حق أو واجب.

والحج يهدم وهم المركزية الفردية. في الطواف أنت واحد بين أمواج البشر، لا يفسح لك الكون طريقًا خاصًا لأنك ترى نفسك مهمًا. تتعلم أن تتحرك مع الجماعة دون أن تذوب فيها، وأن تحفظ قلبك لله وسط الزحام.

إنه عودة من الثياب إلى الحقيقة؛ من الأسماء التي صنعها المجتمع إلى الاسم الذي خُلقنا له: عبادًا لله.

لكن السورة ستكشف بعد الحج أن الإنسان قد يؤدي أعظم الشعائر، ثم يخرج منها بلسان معجب ونفس خصِمة. قد يكون كلامه في الحياة الدنيا جميلًا، ويشهد الله على ما في قلبه، بينما يمشي في الأرض فسادًا.

فالمناسك لا تعصم من النفاق إذا لم تنفذ إلى الداخل.

ومن هنا يأتي المشهد التالي:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

بعد الإنسان الذي يقول في الحج: **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**، ستعرض السورة إنسانًا آخر يحسن القول، لكنه إذا تولى ترك خلفه أرضًا محروقة.

فليس كل من أتقن لغة الخير من أهله، وليس كل من ذكر الله بلسانه قد جعل الله رقيبًا على فعله.

الفصل الخامس عشر

الحج: عودة الإنسان من ثيابه إلى حقيقته

الرجل الذي يزهر لسانه وتحترق الأرض خلفه

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

خرجنا قبل قليل من مشاهد الحج: ذكر وتلبية وتقوى واستغفار. لكن القرآن لا يتركنا نطمئن إلى الكلمات الجميلة وحدها؛ فقد يحسن الإنسان ذكر الله بلسانه، ثم تتحرك قدماه في طريق مضاد.

هناك من يتقن عرض نفسه حتى يُعجبك قوله. ينتقي العبارات، ويتحدث عن الخير والمصلحة، ويعرف المفاتيح التي تدخل بها كلماته إلى القلوب.

قال سبحانه: **﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾**.

لم يقل: يعجب عامة الناس وحدهم، بل خاطب النبي ﷺ؛ أي إن الرجل قد يبلغ من حسن الأداء ما يجعل كلامه جديرًا بالإعجاب في ظاهره. وليس إعجاب السامع سذاجةً بالضرورة؛ فالمخادع البارع يصنع خطابًا يصعب كشفه من أول لقاء.

لكن القلوب لا تُعرف بجمال العبارة وحده، بل بما تصنعه حين تُمنح القدرة.

ثم يبلغ صاحب الخطاب أقصى درجات التوكيد: ﴿**وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ**﴾.

يقول: الله يعلم صدقي، ويستدعي اسم الله شاهدًا على نزاهته. غير أن كثرة القسم لا تصنع الأمانة، واستعمال المقدس لا يطهّر الكذب؛ قد يزيده جريمةً لأنه جعل اسم الله غطاءً له.

لا تغتر بمن يكثر الحديث عن إخلاصه؛ فالإخلاص سر لا يحتاج صاحبه في كل لحظة إلى الإعلان عنه. من كان صادقًا ترك للعمل أن يشهد له، وبقي خائفًا من خفايا نفسه.

﴿**وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**﴾.

الألد شديد الخصومة، الماهر في ليّ الحجج، الذي لا يبحث في جداله عن الحق، بل عن الغلبة. يدخل الحوار وقد قرر ألا يخرج منه إلا منتصرًا، ولو عرف في داخله أنه مخطئ.

ليس كل فصيح صاحب حق، وقد تكون القدرة على الجدل حجابًا يمنع صاحبها من الاعتراف. كلما ظهرت له ثغرة في موقفه، ملأها بعبارة جديدة.

الحوار عند المؤمن طريق إلى الحقيقة، وعند الألد ساحة لإثبات الذات.

إذا تولّى ظهرت الترجمة الحقيقية لكلامه

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

لكلمة ﴿**تَوَلَّىٰ**﴾ معنيان يتكاملان: إذا انصرف وابتعد عن أعين الناس، أو إذا تولى سلطةً وصار له نفوذ. في الحالين تنكشف حقيقته.

في المجلس كلام عن الصلاح، وفي الميدان سعي إلى الفساد.

ما أصدق السلطة في كشف النفوس! قد يعيش الإنسان زمنًا يتحدث عن العدل لأنه لا يملك أداة الظلم، فإذا تولى ظهر ما كان مختبئًا.

ليست الأخلاق ما تقوله حين تكون ضعيفًا، بل ما تفعله حين تستطيع ألا تكون عادلًا.

﴿**سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ**﴾.

الفساد عنده ليس زلةً عارضة، بل سعي منظم. يتحرك له، ويخطط، ويستخدم العلاقات والمؤسسات والكلمات.

ثم ذكر نتيجتين تمسان أصل الحياة: ﴿**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ**﴾.

الحرث مصدر الطعام والاقتصاد والاستقرار، والنسل امتداد الإنسان والمستقبل. فالسياسة الفاسدة لا تؤذي حاضرًا محدودًا؛ قد تدمر الموارد وتفسد أجيالًا لم تولد بعد.

قد يحرق الطاغية الأرض ليحفظ كرسيًا، ويترك للأبناء وطنًا من الرماد.

وقد يفسد التعليم والأخلاق حتى يبقى سلطانه، فيهلك النسل معنويًا وإن بقيت الأجساد حية.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

يمكن للمفسد أن يسمي فعله إصلاحًا، كما فعل المنافقون في أول السورة، لكن الأسماء لا تغير محبة الله وبغضه. الله لا يحب الفساد، وإن حمل تقريرًا رسميًا يقول إنه إنجاز.

الكِبر الذي يمنع التوبة

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

كان يمكن أن تنقذه كلمة: **اتق الله**.

لكنها بدل أن تفتح قلبه تستفز كبرياءه. يشعر أن النصيحة إهانة لمقامه، وأن الرجوع هزيمة أمام الناصح.

﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.

ليست هذه عزةً حقيقية؛ العزة الحق أن تملك الشجاعة للاعتراف. أما أن تدافع عن الخطأ لأنك قلته، فتلك عبودية لصورتك أمام الناس.

الكِبر يجعل ثمن الرجوع يتضخم مع الزمن. في البداية يحتاج الإنسان أن يقول: أخطأت. ثم بعد أن يدافع عن خطئه، يحتاج إلى الاعتراف بالخطأ وبالتبريرات التي بناها حوله، فيختار الاستمرار حتى لا يهدم صورته.

وهكذا يأخذه الإثم؛ كأنه قوة تمسك به وتجره إلى نهايته.

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾.

كانت كلمة «اتق الله» كافيةً لو قبلها، فلما استكبر كان جزاؤه ما يكفيه من الهوان.

﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

المهاد موضع الراحة، لكن جهنم ليست راحةً. في التعبير سخرية من ذلك الذي سعى في الدنيا لتمهيد مقامه بالقوة والخداع، فإذا فراشه الأخير نار.

من يبيع نفسه طلبًا لرضا الله

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

في مقابل من باع الحقيقة ليحفظ نفسه، يأتي من يبيع نفسه لله ليحفظ الحقيقة.

﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾؛ يبذلها ويضعها في طاعة الله. قد يضحي براحة أو مال أو مكانة، وقد يبلغ الأمر بذل الحياة نفسها.

الأول أُعجب الناس بقوله وأهلك الحرث والنسل.

والثاني ربما لم يملك خطابًا لامعًا، لكنه قدّم نفسه في موضع العمل.

إن القيم لا تعيش بكثرة من يمدحها، بل بمن يدفع ثمنها.

﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

هذه هي الجهة التي تمنح التضحية معناها. قد يبذل الإنسان نفسه طلبًا للشهرة أو العصبية أو اليأس، ولا يكون ذلك عبادة. العبرة ليست بالبذل وحده، بل لمن بُذلت النفس وفي أي طريق.

ثم قال: **﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾**.

قد يبدو بذل النفس مناقضًا للرأفة، لكن الله رؤوف بمن دلهم على ما ينقذ نفوسهم من عبودية الخوف. وما يبذله المؤمن لله لا يضيع؛ ينتقل من ملك زائل إلى حفظ دائم.

ادخلوا في السِّلم كافة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

السِّلم هنا الإسلام والاستسلام لله، ويدخل فيه السلام الذي يصنعه الإسلام في النفس والمجتمع.

﴿كَافَّةً﴾؛ ادخلوا فيه جميعًا، أو ادخلوا في شرائعه كلها، فلا يبقى جانب من حياتكم خارج سلطان الله.

لا تكونوا مسلمين في الصلاة، جاهليين في الخصومة.

ولا تطلبوا حكم الله في حقوقكم، ثم تنسوه في حقوق غيركم.

ولا تدخلوا في أخلاق الدين حين تكونون ضعفاء، وتخرجوا منها حين تملكون القوة.

الدخول الجزئي هو الذي عابت السورة به على من آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض. والأمة الجديدة مهددة بالمرض نفسه إذا جعلت الإسلام شعائر محدودة لا تتدخل في المال والسلطة والأسرة والأخلاق.

ثم قال: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾.

الخروج من السلم لا يقع غالبًا دفعةً واحدة. يبدأ المرء باستثناء صغير: هذه المرة تقتضي المصلحة أن نتجاوز. ثم تتحول «هذه المرة» إلى قاعدة، ويظل الاسم الإسلامي قائمًا بعدما خرجت الحياة من معناه.

والشيطان عدو مبين، لكنه لا يقول: اخرجوا من الدين كله. قد يقول: احتفظوا بالعنوان، واتركوا هذا الحكم وحده؛ فهو لا يناسب مصلحتكم الآن.

بعد البينات لا يكون الزلل صغيرًا

﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾

الزلل خطأ القدم بعد ثباتها، لكنه هنا يأتي ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾، ولذلك يشتد خطره.

من أخطأ في ظلام ليس كمن رأى الطريق ثم انحرف عنه.

ختمت الآية باسمين:

﴿**عَزِيزٌ**﴾؛ لا يضره خروجكم، ولا يحتاج إلى طاعتكم، وقادر على مؤاخذتكم.

﴿**حَكِيمٌ**﴾؛ لا يعاقب بظلم، ولا يشرع عبثًا، ويضع الجزاء في موضعه.

فالتحذير لا يصدر عن قوة مجردة بلا حكمة، ولا عن حكمة عاجزة عن إنفاذ الحكم.

هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟

﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾

هل ينتظر المعرضون حتى تأتي لحظة ينتهي فيها زمن الاختيار؟

نؤمن بإتيان الله يوم القيامة كما أخبر، إتيانًا يليق بجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه؛ **ليس كمثله شيء**. وتأتي الملائكة، ويُقضى الأمر، فلا يبقى مجال لتوبة أو مراجعة.

الغيب الذي طالب المعاندون أن يصير محسوسًا سيأتي يومًا، لكن رؤيته يومئذ لا تنفع من أضاع الإيمان به في الدنيا.

إن قيمة الإيمان أنه يقع في زمن الحجاب، حين تدل الآيات ويختار القلب. أما بعد انكشاف الآخرة، فلا يبقى مجال لامتحان التصديق.

﴿**وَقُضِيَ الْأَمْرُ**﴾.

كلمتان تغلقان كل باب تأجيل. الملفات التي ظلت مفتوحة في الدنيا تُحسم، والمظالم التي ظن أصحابها أنها ماتت تعود للحكم، والأقنعة تسقط.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

كانت ترجع إليه دائمًا، لكن ذلك اليوم تنكشف الحقيقة للجميع. لم يكن الحاكم يملك الأمر، ولا المال، ولا الجمهور؛ كانت كلها أسبابًا مؤقتة داخل ملك الله.

كم آتيناهم من آية بيّنة؟

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

تعود السورة إلى بني إسرائيل لتجعل تاريخهم شاهدًا أمام الأمة الجديدة. كثرة الآيات لم تمنع التبديل حين فسدت الإرادة.

البحر، والغمام، والمن والسلوى، والعصا، والكتاب، والرسل؛ كم من آية واضحة! لكن النعمة يمكن أن تُبدَّل.

وتبديل النعمة أن تستعملها في غير غايتها، أو تكفر بها، أو تجعل العلم الذي أُعطيته أداةً للتحريف.

قد يمنح الله أمةً كتابًا فتجعله مادةً للخصومات بدل الهداية.

ويمنحها قوةً لتحمي العدل فتستعملها في الظلم.

ويمنح الفرد قلمًا ليخدم الحق فيبيعه لمن يدفع.

النعمة لا تبقى نعمةً من جهة أثرها إذا تحولت في يد صاحبها إلى طريق للهلاك.

﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ**﴾؛ بعد الوصول والمعرفة، لا قبلها. ولهذا كان العقاب شديدًا؛ لأن التبديل وقع بعد أن استقرت النعمة في اليد.

الدنيا المزينة وسخرية المترفين

﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾

لم يقل إن الدنيا لا جمال فيها؛ بل قال إنها **زُيّنت** لهم حتى استحوذ ظاهرها على الرؤية، فلم يعودوا يرون ما وراءها.

المشكلة ليست في المال والبيت والنجاح، بل في أن يتحول الزائل إلى المعيار الأعلى. عندئذ يقيس الإنسان الناس بما يملكون، ويسخر من المؤمن الفقير لأنه لا يرى في الوجود إلا سطحه.

﴿**وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

السخرية هنا نتيجة ميزان مادي: كيف يدعي هؤلاء الهداية وهم ضعفاء فقراء، ونحن نملك القوة والثروة؟

لكن الدنيا ليست يوم إعلان النتائج. قد يتقدم فيها من خسر الآخرة، ويتأخر فيها من ادخر الله له مقامًا.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

تنقلب الموازين؛ من سُخر منه لأنه تمسك بدينه يظهر فوق الساخر في المقام والمصير.

لا يعني هذا أن الفقر فضيلة بذاته أو أن الغنى مذمة بذاته؛ الميزان هو التقوى. قد يكون الغني تقيًا شاكرًا، والفقير ساخطًا ظالمًا. لكن الآية تهدم الربط الساذج بين كثرة المال وكرامة صاحبه عند الله.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

رزقه واسع في الدنيا، وفضله أعظم في الآخرة. لا تتحدد خزائنه بمقاييس البشر، ولا يكون عطاء الدنيا شهادةً نهائية على الرضا.

كان الناس أمة واحدة

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾

كان الناس على أصل واحد، ثم وقع الاختلاف، فبعث الله الأنبياء. لم يترك العقل البشري وحده داخل صراعات الأهواء، بل أرسل الوحي حكمًا وميزانًا.

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

الإنسان يحتاج إلى الرجاء والخوف، وإلى من يدله على الثمرة ويحذره من الهاوية.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

الكتاب ليس طرفًا بشريًا آخر داخل النزاع، بل مرجع نازل من فوق الأهواء المتخاصمة.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فالاختلاف لا يُحل دائمًا بترك كل طرف لحقيقته الخاصة؛ هناك حق وباطل، وعدل وظلم، والكتاب يحكم بينهما.

لكن التحاكم إلى الكتاب لا يعني أن يقتطع كل فريق منه ما يؤيد موقفه. لا يكون الكتاب حَكمًا حتى يقف الجميع تحته، لا أن يحاول كل طرف وضعه في صفه.

الاختلاف الذي وُلد من البغي

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

من المؤلم أن الذين حُملوا الكتاب ليحل الاختلاف صاروا هم أنفسهم يختلفون فيه.

ولم يكن السبب دائمًا غموض النص: **﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾**.

السبب: **﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾**.

حسد، وتنافس على السلطة، ورغبة في العلو، وانتصار للنفس والجماعة. تتخفى هذه الدوافع داخل خلافات تبدو علمية.

قد يظن الناظر أن النزاع حول معنى دقيق، بينما يحركه في العمق سؤال: من يتصدر؟ ومن يتنازل؟ ومن يعترف بخطئه؟

العلم وحده لا ينهي الخلاف إذا كانت النفوس تريد الغلبة. قد تزيدها الأدوات العلمية قدرةً على إطالة المعركة.

ولهذا كانت تزكية العلماء شرطًا في أمان المعرفة. ما لم يطهر القلب من البغي، يمكنه أن يجعل النص وقودًا للصراع.

فهدى الله الذين آمنوا

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وسط ركام الاختلاف، لا يترك الله المؤمنين بلا طريق: **﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

الهداية فضل، لكنها تتصل بإيمان يطلب الحق. الذين صدقوا مع الله حررهم من بعض أسر البغي، فصاروا أقدر على رؤية ما حجبه الهوى عن غيرهم.

﴿بِإِذْنِهِ﴾.

لا يكتشف الإنسان الحق مستقلًا عن توفيق الله. يدرس الأدلة ويبذل عقله، لكنه يحتاج إلى نور يهديه في مواضع التشابه.

ولهذا كان من دعاء المؤمن أن يسأل الله الهداية إلى الحق عند الاختلاف، لا أن يفترض دائمًا أنه ممثله الكامل.

كم من فتنة كانت ستخمد لو دخل كل طرف الحوار وهو يقول في قلبه: يا رب، أرني موضع خطئي إن كنت مخطئًا!

لكننا ندعو غالبًا: يا رب، أظهر خطأ خصمي.

أم حسبتم أن تدخلوا الجنة؟

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

بعد الحديث عن الهداية يأتي امتحان الثبات عليها. فمعرفة الحق ليست آخر الطريق؛ سيأتي ثمن حمله.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

هل ظننتم أن الجنة دعوى سهلة، وأن الإيمان كلمة لا تمر عبر الامتحان؟

لا تُشترى الجنة بالألم وحده، بل برحمة الله، لكن الله جعل الابتلاء سنةً تميز الصادق، وتربيه، وتكشف حقيقة تعلقه.

﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾.

لستم أول من يسير في الطريق. مر قبلكم أنبياء ومؤمنون، وذاقوا من البلاء ما يهز الجبال.

ذكر السابقين هنا ليس لإحراج المتألم، كأن ألمه لا قيمة له لأن غيره تألم أكثر، بل ليمنحه صحبةً تاريخية: لست وحيدًا، وهذه الطريق مرت منها قلوب ووصلت.

مستهم البأساء والضراء وزلزلوا

﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾.

البأساء شدة الفقر والحاجة، والضراء ألم المرض والمصاب. ثم لم يقل: تعبوا، بل: **﴿وَزُلْزِلُوا﴾**.

الزلزال يحرك الأرض التي يعتمد عليها الإنسان. وكذلك بعض المحن لا تؤلم جانبًا من الحياة فقط؛ تهز المعاني التي كان يقف عليها. يسأل الإنسان أسئلةً لم يكن يتصور أنه سيسألها، ويشعر أن المسافة بينه وبين الطمأنينة اتسعت.

القرآن لا ينكر هذه اللحظة، ولا يتهم المؤمن في أصل إيمانه لمجرد أن الزلزلة بلغت قلبه. السابقون زُلزلوا، وهم خيار الناس.

الثبات لا يعني ألا تهتز، بل ألا تقتلعك الهزة من أرض الإيمان.

قد تضطرب النفس ويبقى في أعماقها خيط يصلها بالله. وربما لا تستطيع أن تقول كلامًا كثيرًا؛ يكفي أن تمسك بالخيط حتى تمر العاصفة.

حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾

بلغ البلاء مبلغًا جعل الرسول والمؤمنين يسألون: متى النصر؟

ليس السؤال شكًا في أن النصر سيأتي، بل استبطاءً خرج من شدة الألم. قالوا: **متى**، ولم يقولوا: هل يأتي؟

اليقين باقٍ، لكن الطاقة البشرية بلغت حافتها.

وهذا من رحمة القرآن بالمنكسرين؛ لم يقدم الأنبياء في صورة أجساد لا تتعب وقلوب لا تتألم. هم بشر بلغ بهم البلاء أن سألوا عن الموعد، لكنهم لم يتركوا الطريق.

فلا تحتقر مؤمنًا قال من شدة وجعه: إلى متى؟ انظر هل ما زال قلبه متعلقًا بالله وهو يسأل.

قد تكون «متى» دعاءً لا اعتراضًا.

ألا إن نصر الله قريب

﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

تأتي **﴿أَلَا﴾** للتنبيه؛ كأن الضجيج اشتد حتى احتاج القلب إلى نداء يوقظه.

﴿إِنَّ﴾ للتوكيد.

﴿نَصْرَ اللَّهِ﴾؛ ليس نصر قوتكم المحدودة، بل نصر من له القوة جميعًا.

﴿قَرِيبٌ﴾؛ وإن لم تعرفوا موعده.

قرب النصر لا يقاس فقط بعدد الأيام؛ قد يكون قريبًا في تقدير الله وإن رآه الإنسان بعيدًا، وقد يبدأ النصر داخل القلب قبل أن يظهر في الواقع.

حين تفشل المحنة في إجبارك على خيانة مبدئك، بدأ نصر ما.

وحين تبقى رحيمًا رغم القسوة، وصادقًا رغم كلفة الصدق، فقد عجز العدو عن احتلال أعمق موضع فيك.

لكن القرب وعد لا يعفي من العمل. المؤمن يستبشر بالنصر، ثم يستمر في إصلاح الأسباب. فلا يحول الوعد إلى وسادة للنوم، ولا يحول العمل إلى اعتماد على النفس.

وبهذا ينتهي المقطع الذي وصل الحج بالابتلاء: أمة دخلت في السِّلم، وحُذرت من الفساد، وعرفت أن طريق الجنة يمر بالزلزلة، وأن النصر يأتي حين تبلغ الأسباب البشرية حافتها دون أن ينقطع الحبل بالله.

والآن ستعود السورة إلى بناء المجتمع من داخله. سيُسأل النبي ﷺ: ماذا ينفقون؟ ثم عن الشهر الحرام، والخمر والميسر، واليتامى. وبعدها تدخل الآيات إلى البيت نفسه: الزواج والحيض والطلاق والرضاع.

فالأمة لا يكفي أن تنتصر على عدوها؛ يجب أن تتعلم كيف تحمي الضعيف في داخلها، وكيف تدير شهواتها وأموالها وأشد علاقاتها قربًا.

ومن هنا يبدأ الفصل التالي:

الأسرة: كيف يصون التشريع أرقَّ مواضع الإنسان.

الفصل السادس عشر

الأسرة: كيف يصون التشريع أرقَّ مواضع الإنسان

قبل أن يبني البيت: ماذا يصنع الإنسان بماله؟

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

سألوا: ماذا ينفقون؟ فجاء الجواب يبين **ماذا ولمن**.

﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾.

المال خير إذا اكتُسب من حلال ووُضع في موضعه. وليس الإنفاق إلقاءً لما لا يحتاجه الإنسان، بل توجيه للنعمة نحو مواطن الحاجة.

ثم بدأ بالوالدين: **﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾**.

قد يفتش الإنسان عن أبواب بعيدة للخير، وفي بيته أب أو أم يخفيان حاجتهما حياءً. والبر لا يصح أن يكون كريمًا في العلن بخيلًا عند أقرب الحقوق.

بعدهما: **﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾**.

فالأسرة ليست موضع عاطفة وحدها، بل شبكة تكافل. ومن قسوة المجتمع أن يعيش الغني محاطًا بأقرباء أكل الفقر كرامتهم، ثم يطلب المحتاجون أبواب الغرباء.

لكن القرب لا يحول المال إلى محاباة تظلم الآخرين؛ لكل حق موضعه. وإنما يبدأ التطوع غالبًا ممن جمع الله بينك وبينهم برابطة الرحم.

ثم ﴿**الْيَتَامَىٰ**﴾ الذين فقدوا الحامي، و**﴿الْمَسَاكِينَ﴾** الذين أقعدتهم الحاجة، و ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي قطعه السفر عن موارده.

إن ترتيب الآية يرسم دوائر الرحمة: من البيت إلى القرابة إلى أضعف المجتمع إلى الغريب المنقطع. الإسلام لا يريد قلبًا محليًا مغلقًا ولا إنسانيةً بعيدة تنسى القريب؛ يجمع الدائرتين.

ثم قال: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾.

ربما تخفي صدقتك حتى لا يعرفها أحد، وربما تعطي والدك فيظن الناس أنك تؤدي واجبًا عاديًا لا ثواب فيه، لكن علم الله يحفظ أدق الخير.

ولم يقل: وما تنفقوا من مال فقط، بل ﴿**مِنْ خَيْرٍ**﴾؛ ليتسع الباب. قد لا تملك مالًا، لكنك تملك وقتًا وكلمةً وشفاعًة حسنةً ويدًا تعين.

الفقر من المال لا يعني الفقر من كل خير.

ما نحب وما نكره: ميزاننا ليس ميزان الحكمة

﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾

تأتي هذه الآية قبل أحكام الأسرة كقاعدة تصلح للحياة كلها: ليس شعور الإنسان الفوري معيارًا نهائيًا للخير والشر.

كُتب القتال في موضعه الشرعي لحماية الجماعة ورد العدوان، وهو مكروه بطبعه للنفس السوية؛ فيه خوف وفقد وتعب. لم يطلب القرآن من المؤمنين أن يحبوا الدم، بل اعترف أن القتال ﴿**كُرْهٌ لَكُمْ**﴾.

وهذا الاعتراف يكشف واقعية الوحي. لا يجعل كل واجب محبوبًا في الشعور، ولا يتهمك لأن نفسك تكره المشقة. المطلوب أن تطيع مع الكراهة الطبيعية حين تعلم أن الحكم من الله.

﴿**وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾.

قد تكره دواءً لأنه مؤلم، وتكون فيه عافيتك. وتكره بابًا أُغلق، ثم تكتشف أنه منعك من طريق كان سيهدمك. وتكره فراقًا، ويكون فيه حفظ ما بقي من روحك.

﴿**وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾.

ليس كل ما يملأ القلب رغبةً جديرًا بأن يُنال. قد تحب علاقةً لا تصلح لك، أو مالًا يفسدك، أو منصبًا يبتلع قيمتك، أو نصرًا عاجلًا يأتي على حساب الحق.

المشكلة أن الإنسان يرى الشيء ومعه لذته القريبة، والله يرى الشيء وسلاسله كلها: كيف يدخل حياتك، وماذا يغير فيك، وإلى أين يقودك.

ثم جاءت الخاتمة التي تُسجد العقل للحكمة دون أن تعطله: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾.

لا تعني أن الإنسان لا يعلم شيئًا؛ فقد منحه الله عقلًا وتجربة. لكنها تعني أن علمه محدود بجزء من المشهد، بينما علم الله محيط بالمبدأ والمآل والظاهر والخفي.

حين يتعارض خبر الله الثابت مع رغبتك، تذكر أن أحد الطرفين يرى الصفحة كلها، والآخر لا يرى إلا سطرًا.

قتال في الشهر الحرام وفتنة أشد

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾

وقعت سرية للمسلمين في الشهر الحرام، فقتل فيها رجل من المشركين، واستغل المشركون الحادثة ليشنوا حملةً أخلاقية على المؤمنين، مع أنهم ارتكبوا ما هو أعظم: كفروا بالله، وصدوا عن المسجد الحرام، وعذبوا المؤمنين، وأخرجوهم من ديارهم.

لم ينكر القرآن خطورة القتال في الشهر الحرام: **﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾**.

هذه أمانة مذهلة؛ لم يسمح لجرائم الخصم أن تمحو وزن الخطأ الواقع من المسلمين. فالعدل لا يعني أن خطأك يصبح صوابًا لأن عدوك أسوأ.

ثم وضع الجرائم في أحجامها: **﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ... وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾**.

ليس من العدل أيضًا أن يُضخّم خطأ واحد حتى يُستخدم ستارًا يخفي منظومة طويلة من الاضطهاد. اعترف بحجم الخطأ، لكن لا تسمح للمعتدي أن يحتكر اللغة الأخلاقية.

إن الباطل يحب أن يقتطع لحظةً من السياق، ويضعها تحت الضوء، ثم يترك تاريخ جرائمه في الظلام.

والقرآن لا يسقط في أحد الطرفين: لا يبرر الخطأ، ولا يسمح بالتلاعب الذي يساوي بينه وبين مشروع الفتنة والإخراج.

لن يتوقفوا حتى يردوكم عن دينكم

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾

تكشف الآية غاية بعض المعتدين: ليست المسألة أرضًا أو تجارة فقط، بل رد المؤمن عن دينه.

﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾؛ فالغاية قائمة، والاستطاعة هي القيد. وإذا لم يقدروا بالسلاح، قد يحاولون بالخوف أو الإغراء أو التشويه.

وهذا لا يبرر سوء الظن بكل مخالف، ولا يعفي المسلمين من العدل مع المسالمين؛ القرآن نفسه فرق بين المحارب وغيره. لكن السذاجة ليست خلقًا إسلاميًا. الرحمة لا تعني أن تغمض عينيك عن مشروع معلن يريد محو هويتك.

الأمة الوسط لا تطغى على الناس، لكنها لا تذوب فيمن يريد إلغاءها.

حبوط العمل عند الموت على الردة

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قيدت الآية المآل بقوله: **﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾**.

فالمرتد إذا تاب قبل موته وعاد إلى الله توبةً صادقة، قَبِل الله توبته. لكن من أغلق حياته على الكفر، حبط عمله.

والحبوط مأخوذ من انتفاخ بطن الدابة بسبب أكل سام ينتهي إلى هلاكها؛ مظهر امتلاء يخفي موتًا. وهكذا قد تبدو الأعمال كثيرةً في عين صاحبها، لكنها تفقد أصلها إذا مات على الكفر.

إن العمل لا يعيش منفصلًا عن العقيدة التي تمنحه وجهته. قد يصنع الإنسان خيرًا دنيويًا ينتفع به الناس ويُجازى عليه بما شاء الله في الدنيا، لكن ثواب الآخرة مرتبط بالإيمان بالله وابتغاء وجهه.

الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا يرجون الرحمة

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

إيمان، وهجرة، وجهاد؛ أعمال عظيمة كلفت أصحابها الوطن والمال والأمان. ومع ذلك لم يقل: أولئك يضمنون رحمة الله باستحقاقهم، بل: **﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾**.

كلما ازداد المؤمن عملًا ازداد افتقارًا، لا إدلالًا. يعلم أن العمل سبب، وأن النجاة فضل.

والرجاء ليس أمنيةً باردة؛ هؤلاء آمنوا وهاجروا وجاهدوا، ثم رجوا.
فالرجاء الصادق له قدمان تمشيان إلى الله، أما التمني فيجلس منتظرًا ثم يطالب بالنتيجة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قد تقع منهم أخطاء في الطريق، كما وقع في تقدير وقت القتال، لكن باب المغفرة مفتوح لمن صدق ورجع. لا تشترط الرسالة بشرًا لا يخطئون؛ تبني بشرًا إذا أخطؤوا تابوا وأصلحوا.

الخمر والميسر: منافع صغيرة وإثم كبير

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾

لم ينكر القرآن وجود منافع في الخمر والميسر. قد تكون في الخمر تجارة وربح أو لذة مؤقتة، وفي الميسر مكسب لبعض اللاعبين أو إعانات كانت توزع منه في عادات العرب.

هذه واقعية الحجة القرآنية: لا يحتاج الحق إلى إنكار كل منفعة في الشيء المحرم. الميزان ليس: هل فيه نفع ما؟ بل: ما حصيلة أثره؟ وهل إثمه وضرره أكبر؟

كم من شيء يملك منفعة جزئية ويهدم الإنسان في المجموع!

الخمر تمنح لحظة نسيان، لكنها تسلب العقل الذي به كُرم الإنسان، وقد تهدم صحةً وبيتًا ومالًا وكرامة. يهرب الشارب من ألمه ساعات، ثم يعود إليه وقد أضاف إليه ألمًا جديدًا.

والميسر يعد الناس بالثراء السريع، لكنه ينقل الأموال من غير إنتاج، ويزرع التعلق بالصدفة، ويجعل خسارة أحدهم شرطًا لربح الآخر. يدخل اللاعب طالبًا مخرجًا من فقره، وقد يخرج وقد باع ما بقي من بيته.

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

هذه مرحلة من مراحل تحريم الخمر، مهدت النفوس لإدراك فسادها، ثم جاء النهي عن الصلاة حال السكر، ثم التحريم القاطع في سورة المائدة.

والتدرج لم يكن ترددًا في الحكم عند الله، بل حكمةً في نقل مجتمع تعلقت حياته بالخمر إلى الترك الكامل. كان الله يعلم الحكم النهائي، وربّى الناس نحوه في مراحل.

التغيير العميق لا يكتفي بإصدار القرار؛ يبني في النفس القدرة على حمله.

ماذا ينفقون؟ العفو

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾

عاد السؤال عن مقدار الإنفاق، فجاء الجواب: **﴿الْعَفْوَ﴾**؛ الفضل الزائد عن الحاجة، أو ما سهل ولم يبلغ بصاحبه حد الإضرار بنفسه ومن يعول.

الإسلام لا يريد من الإنسان أن ينفق ماله كله ثم يصبح عالةً على الناس، ولا أن يجعل حاجاته مفتوحةً بلا حد حتى لا يبقى للفقير شيء. إنه يدعوه إلى ميزان بين واجب نفسه وحق غيره.

لكن تحديد «الزائد» امتحان أخلاقي؛ فالرغبات تستطيع أن تتوسع حتى تلتهم كل المال، ثم يقول صاحبها: لا فضل عندي. كلما دخل مال جديد اخترعت النفس له حاجةً جديدة.

العفو ليس ما بقي بعد إشباع كل شهوة، بل ما زاد عن الحاجة المعقولة في ميزان الشرع والمعروف.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

التفكر ينبغي أن يشمل الدارين. لا يحسب الإنسان حاجته اليوم وينسى حاجته غدًا، ولا ينفق بطريقة تدمر دنياه باسم الآخرة.

الإسلام لا يريد زهدًا يهدم مسؤوليات الحياة، ولا دنيا تبتلع الأبد. ينظر المؤمن إلى المال بعينين: ماذا يصنع هنا؟ وماذا يقدّم لي هناك؟

اليتيم: إصلاحٌ لا استعلاء

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾

لما نزل الوعيد الشديد في أكل أموال اليتامى، تحرج الصحابة حتى عزلوا طعام اليتيم وشرابه عن طعامهم، فوقع عليهم حرج ومشقة. فجاء البيان: **﴿إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾**.

المعيار ليس الفصل الشكلي، بل مصلحة اليتيم. قد تختلط أمواله بمال الوصي على وجه يحقق له النفع، وقد يكون الفصل أصلح؛ العبرة بالإصلاح والأمانة.

ثم قال: ﴿**فَإِخْوَانُكُمْ**﴾.

لم يقل: أعباؤكم أو صدقاتكم، بل إخوانكم. اليتيم لا يريد طعامًا فقط؛ يريد مكانًا في الأسرة وشعورًا بأنه ليس جسمًا زائدًا على المائدة.

قد تطعم يتيمًا وتؤذيه بنظرة منّة. وقد تسكنه بيتك وتظل تذكره أنه ليس من أهله. أما الأخوة فتعيد إليه جزءًا من الأمان الذي فقده.

الإصلاح ليس إدارة المال وحدها، بل حفظ الكرامة والنفس والتعليم والمستقبل.

والله يعلم المفسد من المصلح

﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**﴾.

قد يخلط شخص مال اليتيم بماله ويكون قصده الإصلاح، ويفصل آخر المال لكنه يجد طرقًا خفيةً لسرقته. الصور لا تكشف وحدها النيات.

الله يعلم مَن يخدم اليتيم، ومن يستخدم اسم خدمته للوصول إلى ماله.

وهذه الآية ترهب كل من يتولى ضعيفًا لا يستطيع محاسبته. قد تخدع الجهات المشرفة، وقد تصنع دفاتر منضبطة، لكن الله يعلم الفرق بين المصلح والمفسد.

إن قوة الإنسان على الضعيف امتحان للأمانة. واليتيم لا يملك أبًا يدافع عنه، فجعل الله نفسه شاهدًا على من يدير حقه.

ولو شاء الله لأعنتكم

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

كان يستطيع أن يكلفهم الفصل التام بين أموالهم وأموال اليتامى بكل ما فيه من مشقة، لكنه وسع عليهم وأباح المخالطة مع الإصلاح.

﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾؛ لأوقعكم في العنت والمشقة. لكنه لم يفعل، لأن التشريع صادر عن حكمة تعلم حاجات الحياة، لا عن رغبة في التعقيد.

﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

عزته تمنع أن يكون التخفيف لحاجة منه، وحكمته تضع التخفيف حيث يصلح الناس.

الزواج: ليس اجتماع جسدين فقط

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾

الآن تدخل السورة إلى البيت من بابه الأول: اختيار الزوج.

الزواج ليس مجرد إعجاب وجمال ومصلحة اجتماعية؛ إنه شركة تصنع بيتًا وتربي أبناء وتعيد تشكيل دين الإنسان وحياته.

ولهذا لا يمكن أن يكون الإيمان تفصيلًا هامشيًا في الاختيار.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾.

المراد المشركات الوثنيات، أما المحصنات من أهل الكتاب فقد جاء في سورة المائدة إباحة نكاحهن للرجل المسلم بشروطه، مع بقاء زواج المسلمة من غير المسلم محرمًا.

والحكم ليس احتقارًا للإنسان المخالف؛ له حق العدل والبر، لكنه إدراك لطبيعة الأسرة. الزوجان لا يتشاركان بيتًا فقط؛ يتشاركان معنى الوجود، وتربية الأطفال، والاحتفال والمخاوف والمرجع عند النزاع.

إذا اختلف المركز الأعلى للبيت، قد ينقسم أعمق مواضعه.

ثم قلبت الآية ميزان الجمال والمكانة: **﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾**.

قد تكون المشركة حرةً جميلةً ذات حسب، وتكون المؤمنة أمةً مملوكةً في نظام ذلك العصر؛ لكن الإيمان يرفعها في الميزان فوق زينة لا يحملها توحيد.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

القرآن لا ينكر قوة الإعجاب. قد يجذب الجمال والمكانة القلب، لكنه يقول: لا تجعل الإعجاب أعمى عن المآل.

العين ترى الوجه، والوحي يرى البيت الذي سيقوم خلف الوجه.

ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾

خاطب الأولياء والمجتمع: لا تزوجوا المسلمات للمشركين. فالقضية لا تتصل باختيار الفرد وحده؛ الأسرة والمجتمع مسؤولان عن حماية المرأة من عقد يضع عقيدتها وحريتها الدينية تحت سلطة زوج لا يؤمن بمرجعها.

ثم كرر قلب الميزان: **﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾**.

قد يعجبكم ماله أو سلطانه أو جماله، لكن المؤمن الفقير أو المستضعف خير منه في ميزان بناء البيت.

وهذا لا يعني إهمال الكفاءة النفسية والأخلاقية والقدرة على تحمل المسؤولية؛ فالإيمان الحقيقي يظهر في الخلق والأمانة. وإنما يعني أن هذه الصفات لا تعوّض أصلًا عقديًا مفقودًا.

الإيمان ليس بندًا يضاف بعد قائمة الجمال والمال؛ إنه الأرض التي تقف عليها القائمة كلها.

أولئك يدعون إلى النار

﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾

ليس المعنى أن كل مشرك يقف عند باب بيته ويقول لشريكه: ادخل النار. لكن نظام الاعتقاد الذي يعيش عليه يقود في النهاية بعيدًا عن الله، وقد يدعو إليه بالقول أو القدوة أو ضغط الحياة المشتركة.

والزوج داعية دائم بصمته وسلوكه. ما يقدسه، وما يستهين به، والطريقة التي يربي بها أبناءه؛ كلها دعوة يومية.

في المقابل: **﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾**.

اختيار الشريك ليس قرارًا للحظة العاطفة وحدها، بل استجابة لإحدى دعوتين تمتدان إلى المصير.

قد يكون الطريق إلى النار مزينًا بصورة جميلة، والطريق إلى الجنة يحتاج صبرًا على معيار لا يراه الناس. لكن المآلات لا تتغير بجمال البداية.

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الإنسان يعرف أحيانًا، لكنه عند الإعجاب ينسى. فجاء البيان ليعيد إلى القلب ما غطته العاطفة.

المحيض: أذى لا إهانة

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾

دخل القرآن إلى تفصيل شديد الخصوصية في العلاقة الزوجية، بلا حرج مصطنع ولا ابتذال.

﴿هُوَ أَذًى﴾.

وصف الحالة بأنها أذى جسدي، ولم يصف المرأة بأنها نجسة أو ملعونة. ففي بعض الثقافات كانت المرأة تُعزل وتُهان في زمن الحيض، فجاء الإسلام يميز بين وجود الأذى في حال معينة وبين كرامة الإنسان.

المرأة لا تفقد إنسانيتها ولا حقها في الصحبة والمودة. كان النبي ﷺ يباشر أهله دون الجماع، ويأكل ويشرب مع الحائض، ويعاملها كإنسانة كاملة.

كم يظلم الناس حين يحولون حكمًا متعلقًا بحالة جسدية إلى حكم على قيمة الشخص!

فاعتزلوا النساء في المحيض

﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾

الاعتزال هنا اعتزال الجماع في موضع الحيض، لا اعتزال المرأة في البيت والحياة. وقد بيّنت السنة ذلك بوضوح.

من الخطأ أن يتوسع الإنسان في المنع حتى يحول الرخصة والمودة إلى جفاء، كما أنه من الخطأ أن يستهين بالحد الذي وضعه الله.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾.

مرة أخرى تأتي حماية الحد قبل تجاوزه. العلاقة الزوجية، رغم كونها حلالًا، لها أوقات وأحكام. الحب لا يعني سقوط الحدود؛ بل إن احترام الجسد في موضع أذاه جزء من الحب.

ثم قال: **﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾**؛ بانقطاع الدم.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾؛ بالغسل على قول جمهور أهل العلم.

﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

الاستمتاع مشروع من الموضع الذي أباحه الله، لا من الطريق المحرم. فالزواج لا يحول الجسد إلى ملك مطلق لأحد الزوجين؛ يبقى كلاهما عبدًا لله، وتحكم العلاقةَ كرامةٌ وحدود.

إن الله يحب التوابين والمتطهرين

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

جمع بين طهارة الباطن وطهارة الظاهر.

التوابون يطهرون أرواحهم من أثر الذنب.

و**المتطهرون** ينظفون أجسادهم ويلتزمون أحكام الطهارة.

الإسلام لا يقيم خصومة بين الروح والجسد؛ يريد قلبًا نظيفًا وجسدًا نظيفًا، وتوبةً من الداخل واغتسالًا في الخارج.

وجاء التعبير بالمحبة؛ فالتوبة ليست عودة عبد مكروه يقف عند باب مغلق. الله يحب التوابين. قد يكره الذنب، لكن إذا رجع صاحبه صادقًا أحبه لتوبته.

ليس التواب من لم يذنب قط، بل من كلما ابتعد عاد، ولم يجعل السقوط وطنًا دائمًا.

نساؤكم حرث لكم

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾

الحرث موضع الإنبات؛ اختار القرآن صورة الأرض التي تُستودع فيها البذرة فتخرج حياة. الإشارة هنا إلى موضع الإنجاب المشروع، فيجوز للزوج أن يأتي زوجه في القبل على الهيئات المباحة، ويحرم إتيانها في الدبر.

وليست الآية إهانةً للمرأة أو اختزالًا لها في الإنجاب؛ سياقها يحدد حكم موضع الجماع، وقد وصفها قبل ذلك باللباس والسكن والمودة في مواضع القرآن. وإنما التشبيه متعلق بوظيفة الموضع الذي يكون منه النسل.

لكن صورة الحرث تفتح معنى المسؤولية. الزارع لا يعامل أرضه بالعنف والاحتقار، بل يرعاها وينتظر ثمرتها. والعلاقة الزوجية ليست اقتحامًا أنانيًا؛ هي مودة ورضا ومعروف وحفظ لكرامة الطرفين.

﴿**أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ ليس إذنًا بلا حدود، بل سعة داخل الموضع المشروع الذي بينته الآية والسنة. فكل سعة شرعية محاطة بسياج من الرحمة والكرامة.

وقدّموا لأنفسكم

﴿**وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ**﴾.

وسط الحديث عن العلاقة الخاصة يأتي الأمر بالتقديم للنفس. ويدخل فيه طلب الولد الصالح، والتسمية والدعاء قبل الجماع، وما يقدمه الزوجان من مودة ولطف، والعمل الصالح عمومًا.

لا تجعلوا اللذة مقطوعةً عن المسؤولية والمستقبل. قد تأتي منها نفس جديدة ستقف يومًا بين يدي الله، وتكون تربيتهما لها جزءًا مما قدّما لأنفسهما.

حتى أكثر لحظات الإنسان خصوصيةً يمكن أن تتصل بالآخرة بالنية والالتزام.

ثم قال: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ**﴾.

وجود العلاقة داخل البيت المغلق لا يخرجها من مراقبة الله. والتقوى مطلوبة في الموضع الذي لا يرى فيه الناس شيئًا: ألا يظلم أحد الزوجين الآخر، وألا يستعمل حاجته لإذلاله، وألا يكشف سره بعد ذلك.

﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

بشارة لمن جعل حتى شهوته داخل حدود الإيمان، فلم يرَ أمر الله عائقًا للمتعة، بل حارسًا لإنسانيتها.

لا تجعلوا اسم الله حاجزًا أمام الخير

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قد يحلف الإنسان ألا يساعد قريبًا، أو ألا يصالح زوجًا، أو ألا يكلم من غضب عليه، ثم يجعل قسمه بالله عذرًا للاستمرار في القطيعة.

تقول الآية: لا تجعلوا أيمانكم بالله حاجزًا يعترض طريق البر والتقوى والإصلاح.

اسم الله لا يُستعمل لمنع ما يحبه الله.

فإذا حلفت على ترك خير، فالواجب أن تفعل الخير وتكفر عن يمينك. كرامة القسم لا تكون بالإصرار على الشر، بل بتعظيم الله الذي شرع لك مخرجًا منه.

﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

جمعت الآية الخير الشخصي والتقوى والإصلاح الاجتماعي. قد يحدث خلاف أسري، فيحلف الرجل ألا يرجع، ويظن أن التراجع يهين كلمته. لكن الكلمة التي تهدم بيتًا ليست أكرم من الإصلاح.

أحيانًا يحتاج الإنسان إلى شجاعة التراجع أكثر من شجاعة الثبات. فليس كل ثبات وفاءً؛ قد يكون عنادًا ارتدى ثوب المبدأ.

لغو اليمين وما كسبته القلوب

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

لغو اليمين ما يجري على اللسان بلا قصد عقد اليمين، كقول الإنسان في عادته: لا والله، وبلى والله، أو ما حلف عليه يظنه كما قال ثم ظهر خلافه، على تفصيل أهل العلم.

رفع الله المؤاخذة عما لم يعقده القلب.

﴿وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

اللسان أداة، لكن محل القصد هو القلب. وقد تتشابه عبارتان، ويختلف حكمهما باختلاف ما وراءهما من نية.

إن الله لا يحاسبنا على الأصوات منفصلةً عن إرادتنا، ولا يضيع الفروق الدقيقة التي يعجز الناس عن رؤيتها.

لكن القلب **يكسب**؛ فالنية ليست شيئًا بلا أثر. ما يعقده الإنسان في داخله فعل أخلاقي، وإن لم يُرَ.

ثم قال: **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾**.

يغفر ما وقع من زلل، ويحلم فلا يعاجل بالعقوبة. ولو أخذ الناس بكل كلمة جرت بلا قصد، لضاقت الحياة، لكن الحليم يعلم ضعف اللسان ويفصل بين العادة والعقد.

حين يتحول الامتناع عن القرب إلى وسيلة أذى

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

الإيلاء أن يحلف الرجل على ترك جماع زوجته. وقد كان بعض أهل الجاهلية يستعمله لإيذاء المرأة؛ لا هي زوجة تتمتع بحقوق الزواج، ولا هي مطلقة تستطيع أن تبدأ حياةً جديدة.

فجاء التشريع بحد زمني: **﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾**.

لا تُترك المرأة معلقةً بلا نهاية. للزوج مدة يراجع فيها نفسه، ويهدأ غضبه، ويقرر: إما عودة إلى الحياة الزوجية، وإما إنهاء واضح.

إن من أقسى صور الظلم أن يحتفظ الإنسان بالآخر داخل العلاقة لا حبًا فيه، بل كي يمنعه من الخروج منها. لا يريد قربه، ولا يسمح له بالحرية.

الشريعة ترفض المنطقة التي يتحول فيها العقد إلى سجن.

﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾؛ رجعوا إلى زوجاتهم وإلى أداء حقهن.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فتح باب الرجوع، ولم يجعل اليمين صنمًا يمنع ترميم البيت. يغفر ما وقع من الهجر إذا عاد الزوج وأصلح وكفّر عن يمينه.

أما إذا أصر: **﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾**.

فلا يترك الزوجة في غموض ممتد. الفراق المؤلم أرحم من تعليق لا ينتهي.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يسمع اليمين وكلمات الخصام، ويعلم هل كان الامتناع طلبًا للإصلاح أم أداةً للانتقام. قد يقول الرجل إنه يؤدب زوجته، ويعلم الله أن قلبه يتلذذ بإيلامها.

ومن هنا ستدخل السورة إلى أحكام الطلاق؛ لا لتشجع على هدم البيوت، بل لأن بعض البيوت قد تصل إلى موضع لا يحفظ فيه الكرامة إلا فراق منظم.

فالقرآن لا ينظر إلى الطلاق بوصفه كلمةً عابرة يطلقها الغاضب، ولا بوصفه عارًا يجعل استمرار الأذى واجبًا. إنه جراحة قد تكون مؤلمة، لكنها حين تقع ينبغي أن تقع بأقصى ما يمكن من عدل ورحمة.

سيحدد العدة، ويحفظ حق الرجعة، ويمنع الإضرار، ويجعل حتى لحظة الفراق محكومةً بالمعروف.

ذلك لأن الإنسان قد يعجز عن استمرار الحب، لكنه لا يُعفى من استمرار الأخلاق.

الفصل السابع عشر

الأسرة: كيف يصون التشريع أرقَّ مواضع الإنسان

العِدَّة: زمنٌ يحمي القرار من عاصفة اللحظة

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾

لم يجعل القرآن الطلاق بابًا يُغلق في لحظة غضب ثم تنتهي خلفه الحياة المشتركة بكل ما فيها. وضع بعده زمنًا للتربص: ثلاثة قروء، أي ثلاث حيض على قول جمهور الفقهاء، وقال آخرون: ثلاثة أطهار.

والعدة ليست انتظارًا فارغًا؛ إنها مساحة بين القرار ومآله الأخير. يهدأ فيها الغضب، وتُراجع الذاكرة، ويظهر الحمل إن وجد، ويظل باب الرجوع مفتوحًا في الطلاق الرجعي.

كثير من القرارات التي نظنها نهائية لحظة الانفعال تتغير حين يمر عليها الزمن. والغضب يريد أن يحسم كل شيء الآن، أما الحكمة فتقول: انتظر حتى يعود العقل إلى مقعده.

إن التربص رحمة بالطرفين وبالأطفال وبالبيت الذي قد يكون في إمكانه أن ينجو من كلمة قيلت في ساعة اضطراب.

قال: ﴿**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ**﴾؛ في التعبير إشعار بأن المرأة ليست جسمًا تُدار أحكامه من الخارج بلا إرادة، بل هي مخاطبة بالتكليف، مؤتمنة على ما في رحمها، مشاركة في حفظ حدود الله.

أمانة الرحم

﴿**وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾

قد تكون المرأة حائضًا أو حاملًا، ويتعلق بذلك طول العدة وحق الزوج في الرجعة والنسب. فجعل الله ما في الرحم أمانة لا يجوز كتمانها.

﴿**مَا خَلَقَ اللَّهُ**﴾.

لم يقل: ما في أرحامهن فقط؛ نسب الجنين والحيض إلى خلق الله ليوقظ الشعور بحرمة التلاعب. فالمسألة ليست حيلةً في نزاع زوجي، بل شهادة على شيء خلقه الله في موضع لا يطلع عليه غالبًا إلا المرأة.

وهنا يمنح التشريع المرأة ثقةً ومسؤولية معًا. لا يستطيع المجتمع أن يراقب سر الرحم، فيستدعي الإيمان: ﴿**إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾.

حين تعجز الرقابة الخارجية، يتقدم ضمير الآخرة. قد تستطيع المرأة أن تخدع القاضي أو الزوج، لكنها لا تخدع من خلق ما في رحمها.

وهذه قاعدة المجتمع المؤمن: ليست كل الحقوق قابلةً للحماية بالكاميرات والوثائق؛ هناك مناطق لا يحرسها إلا الله في القلب.

الرجعة ليست حقًا للإيذاء

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾

للزوج في الطلاق الرجعي أن يراجع زوجته ما دامت في العدة، لكن القرآن لم يترك الحق بلا قيد أخلاقي: **﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾**.

الرجعة ليست وسيلةً لتمديد أذى المرأة، ولا حيلةً يمنع بها الزوج انتهاء عدتها ثم يطلقها مرة أخرى لتبدأ انتظارًا جديدًا. إنها حق شُرع لإنقاذ البيت، لا لتعليق الإنسان داخله.

وقد يملك المرء الحق من جهة الظاهر، ثم يأثم بطريقة استعماله. ليست كل ممارسة قانونية بريئةً أخلاقيًا؛ النية قد تحول الحق إلى عدوان.

ما أكثر ما يتخفى الظلم داخل عبارة: «هذا حقي»!

الحق لا ينفصل عن الغاية التي شُرع لها، ولا يسقط حق الآخر في الكرامة.

ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

هذه قاعدة من أوسع قواعد العلاقة الزوجية.

للمرأة حقوق مثلما عليها واجبات. ليست الأسرة طريقًا أحاديًا تتدفق فيه الخدمة من طرف إلى آخر، بل تبادل للحقوق والمسؤوليات.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

المعروف ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا سليمًا وعرفًا صحيحًا. فهو يترك مساحةً لاختلاف البيئات والأزمنة فيما لم يأت فيه تحديد، مع بقاء أصول العدل والرحمة.

قد تتغير صور إدارة البيت وتقسيم بعض المهام، لكن لا يتغير أن العلاقة ينبغي أن تقوم على المعروف، لا الإذلال والاستغلال.

وفي كلمة ﴿**مِثْلُ**﴾ معنى الموازنة، لا التطابق الحسابي في كل وظيفة. فالزوجان مختلفان في بعض الخصائص والمسؤوليات، لكن الاختلاف لا يعني أن طرفًا كامل الإنسانية والآخر تابع بلا حق.

العدل ليس أن نجعل المختلفين متطابقين في كل شيء، بل أن نعطي كل واحد حقه بلا بخس.

وللرجال عليهن درجة

﴿**وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾

الدرجة هنا ما جعله الله للرجل من القوامة ومسؤولية النفقة وقيادة الأسرة في إطار المعروف، وما له من حق الرجعة في العدة. وليست تصريحًا بالاستبداد أو إلغاء شخصية المرأة.

القوامة تكليف قبل أن تكون صلاحية؛ حمل زائد، لا تاج تفوق. من كانت عليه مسؤولية النفقة والحماية واتخاذ القرار عند تعذر الاتفاق، فعليه حساب أثقل في العدل.

والقيادة التي لا تحفظ كرامة من تقودهم ليست قوامةً شرعية، بل سلطة نفس لبست لفظًا دينيًا.

قد يستشهد الرجل بـ ﴿**دَرَجَةٌ**﴾ وينسى قبلها: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾. والقرآن لا يُقرأ بأن يأخذ الإنسان نصف الجملة الذي يمنحه حقًا، ويترك نصفها الذي يحمله واجبًا.

ثم خُتمت الآية: ﴿**وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

عزيز لا يحتاج إلى نظام البشر، حكيم وضع المسؤوليات بعلم كامل بطبيعتهم. ومن استعمل الحكم في الظلم فقد خالف الحكمة التي شُرع من أجلها.

الطلاق مرتان: وضع حد لفوضى التعليق

﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾

كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها، ويكرر ذلك بلا حد؛ فلا تستقر زوجةً ولا تنفصل حرةً. فجاء القرآن وحدد الطلاق الذي يملك بعده الرجعة بمرتين.

بعد كل مرة يقف الزوج أمام خيار أخلاقي واضح: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ**﴾.

إمساك يريد إصلاح الحياة، ويؤدي الحقوق، ويوقف الإهانة. لا عودة لأن الوحدة أخافته، ثم يستأنف الظلم حين تطمئن نفسه.

أو: ﴿**تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾.

يا لعظمة التعبير! حتى التسريح، وهو فراق، مأمور أن يكون بإحسان. لا تشهير، ولا ابتزاز، ولا تحويل الأسرار الزوجية إلى مادة انتقام، ولا استعمال الأبناء سلاحًا بين الطرفين.

إذا عجز الحب عن البقاء، فلتبقَ الأخلاق.

كثير من الناس يحسنون بداية العلاقة، لكن القرآن يريد منهم أن يحسنوا نهايتها أيضًا. فحقيقة الإنسان لا تظهر في طريقة اقترابه وحدها، بل في طريقته حين يغادر.

﴿**بِمَعْرُوفٍ**﴾ عند الإمساك، و ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ عند التسريح. فليس في البيت خيار ثالث اسمه الإبقاء بقصد التعذيب.

لا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا

﴿**وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا**﴾

المهر الذي دفعه الزوج صار حقًا للمرأة، فلا يجوز له أن يسترده لمجرد أنه اختار الطلاق.

إن العطاء الذي دخل ملك الآخر لا يبقى خيطًا في يدك تشده عند الخصومة. وبعض النفوس لا ترى الهبة هبةً كاملة؛ تحتفظ في باطنها بسجل، فإذا وقع الخلاف طالبت بكل ما أعطت.

لكن الكرم الذي يتحول عند الغضب إلى فاتورة لم يكن قد تحرر من المنّة.

قال: ﴿**شَيْئًا**﴾؛ نكرة في سياق النهي تشمل القليل والكثير. لا يضغط عليها لتتنازل، ولا يضيق عليها حتى تفتدي نفسها من الأذى.

الخُلع: حين تخشى المرأة ألا تقيم حدود الله

﴿**إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾

قد لا يكون الزوج ظالمًا، لكن المرأة تنفر منه نفورًا تخشى معه ألا تؤدي حقه أو تستقيم الحياة. هنا فتح الشرع باب الخلع؛ ترد إليه ما اتفقا عليه في الحدود المشروعة، ويفارقها.

الإسلام لا يحبس المرأة في زواج انهار معناه حتى أصبحت تخشى الوقوع في الظلم أو المعصية. لكنه أيضًا يحفظ حق الزوج الذي لم يكن منه إضرار، فيكون الفداء جبرًا لما دفعه.

﴿**أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**﴾.

المعيار ليس مجرد نزوة عابرة أو انزعاج يمكن علاجه، بل خوف حقيقي من تعذر إقامة الحياة الزوجية في حدود الله.

ولهذا ينبغي ألا يكون الطلاق ولا الخلع أول دواء لكل خلاف؛ فكل بيت يعرف التعب وسوء الفهم. لكنهما يظلان بابين مشروعين حين يصبح استمرار العقد اسمًا بلا سكن، أو طريقًا إلى ظلم مستمر.

تلك حدود الله فلا تعتدوها

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

في آيات الصيام قال: **﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾** عند حدود المحرمات، وهنا قال: **﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾**؛ لا تتجاوزوا ما رسمه الله من عدد الطلقات والحقوق والفداء.

الأسرة ليست منطقةً خاصةً خارج سلطان الشريعة. قد يظن الرجل أن ما يحدث خلف باب بيته شأن لا يحاسب عليه، لكن حدود الله تدخل البيت قبل أعين المجتمع.

ومن تجاوزها سماه الله **ظالمًا**، ولو كان في عرف الناس «صاحب البيت». الملكية المنزلية لا تمنح صاحبها حق الظلم.

إن أشد المظالم وجعًا ما يقع في المكان الذي كان ينبغي أن يكون سكنًا؛ لأن الضحية لا تفقد حقها وحده، بل تفقد شعورها بالأمان في أقرب موضع إليها.

الطلقة الثالثة: حين تنتهي مساحة التجربة

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾

إذا طلقها الطلقة الثالثة، انتهت الرجعة، ولا تحل له حتى تتزوج زواجًا صحيحًا حقيقيًا برجل آخر، ثم ينتهي الزواج الثاني بطلاق أو وفاة من غير تواطؤ.

الحكم يجعل الزوج يدرك أن الطلاق ليس كلمةً يكررها كلما غضب ثم يستعيد بها زوجته متى شاء. هناك حد تنتهي عنده الفرص.

ومن هنا تظهر خطورة الاستهانة بألفاظ الطلاق. الكلمة قد تخرج في ثانية، لكنها تهدم مسار سنوات. وليس من الرجولة أن يجعل الرجل مصير البيت معلقًا على لسان لا يضبطه.

أما ما يسمى «زواج التحليل» المتفق عليه لإعادتها إلى الزوج الأول، فهو محرم، وقد ورد لعن المحلِّل والمحلَّل له. لأن الزواج لا يُشرع مسرحيةً للتحايل على حدود الله.

المرأة ليست جسرًا يعبره رجل مؤقتًا ليعيدها إلى آخر؛ الزواج ميثاق، لا حيلة.

فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾

إذا انتهى الزواج الثاني بصورة طبيعية، جاز لها أن تتزوج الأول بعقد جديد، لكن بشرط: **﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾**.

لا يكفي الحنين. قد يشتاق الإنسان إلى ذاكرة العلاقة، لكنه يعود إلى الأسباب نفسها التي هدمتها. العبرة: هل نضج الطرفان؟ هل تغيرت الظروف؟ هل أصبحا قادرين على المعروف؟

العاطفة وحدها لا تبني بيتًا إذا بقي الظلم كما هو.

ثم قال: **﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**.

العلم هنا ليس حفظ عدد الطلقات فقط، بل فهم مقاصدها: منع العبث، وصيانة المرأة، وإتاحة فرصة الإصلاح، ووضع نهاية واضحة للعلاقة حين يتعذر استمرارها.

إذا بلغن أجلهن: قرارٌ بلا تعليق

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾

إذا قاربت المطلقة الرجعية نهاية عدتها، فلا بد من قرار صادق: رجعة بمعروف، أو ترك حتى تنقضي عدتها بمعروف.

تكررت كلمة المعروف؛ لأن لحظة الفراق لا تملك قواعد تفصيلية مكتوبةً لكل كلمة وتصرف، فاستدعى القرآن الضمير والعرف الصحيح.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾.

هذا نهي صريح عن المراجعة بقصد الإضرار. كان الرجل ينتظر قرب انتهاء العدة، ثم يراجع المرأة ليطيل حبسها، ثم يطلقها من جديد.

قد يستعمل الإنسان نصًا شرعيًا في صورة فعله، بينما يهدم مقصده بنيته. الرجعة مشروعة، لكن إذا صارت أداة ضرار أصبحت اعتداءً.

وهذه قاعدة كبرى: لا يكفي أن يكون الفعل في شكله داخل المباح؛ يجب ألا يُستخدم للوصول إلى محرم.

ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

هو يظن أنه يظلم المرأة وحدها، لكن القرآن يعيد الجريمة إلى صاحبها: لقد ظلم نفسه أيضًا.

شوّه قلبه، وعرّضه للعقاب، وحول نعمة القدرة إلى وثيقة اتهام.

الظالم يخسر قبل أن يشعر؛ قد يرى الآخر متألمًا فيظن أنه انتصر، لكن كل ألم أحدثه بغير حق عاد أثره إلى روحه وصحيفته.

لا تتخذوا آيات الله هزوا

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

حين يطلق الرجل ويراجع ويعبث بالأحكام كأنها أدوات في غضبه، فقد اتخذ آيات الله هزوًا. ليس الاستهزاء ضحكًا باللسان فقط؛ قد يكون تعاملًا مع الحكم بلا جدية.

أن تجعل كلمة الطلاق تهديدًا يوميًا.

وأن تستخدم الرجعة للإيذاء.

وأن تتحايل على الخلع أو العدة.

كل ذلك يفرغ التشريع من هيبته.

إن حدود الله ليست ألعابًا نفسية يدير بها أحد الزوجين الآخر. والبيت الذي تتكرر فيه كلمات الانفصال يفقد أمانه، حتى لو لم يقع الطلاق؛ يعيش الأبناء والزوجة على حافة الخوف.

واذكروا نعمة الله عليكم

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾

لماذا يأتي ذكر النعمة وسط أحكام الطلاق؟

لأن التشريع نفسه نعمة. لولا هذه الحدود لترك الغضب البيوت لفوضى الأقوى، ولضاعت المرأة بين رجعة وطلاق، ولتحول الأبناء إلى أدوات ثأر.

قد يرى الإنسان الحكم قيدًا، لكنه في الحقيقة سياج يحميه من أسوأ نسخة من نفسه عند الغضب.

﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

الأحكام ليست مواد قانونية باردة؛ فيها موعظة للقلب. القانون يقول لك ماذا تفعل، والموعظة تسألك: أي إنسان تصبح وأنت تفعل؟

ثم قال: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**.

يعلم هل كانت الرجعة إصلاحًا أم ضرارًا، وهل كان الفراق ضرورةً أم انتقامًا، وهل حفظت السر أم استخدمته سلاحًا.

في قضايا الأسرة قد يصعب على القاضي الوصول إلى حقيقة كل ما جرى؛ لأن معظم الحياة المشتركة تقع بلا شهود. لذلك تتكرر التقوى؛ فهي القاضي المقيم داخل البيت.

لا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

إذا انتهت عدة المرأة وأرادت أن تعود إلى زوجها السابق بعقد جديد، وتراضيا بالمعروف، فلا يجوز لوليها أن يمنعها بدافع الغضب أو الكِبر أو اعتبارات العائلة.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾؛ لا تضيقوا عليهن وتحولوا بينهن وبين الزواج المشروع.

قد يتصور الولي أنه يحمي كرامة الأسرة، بينما هو يصادر قرار المرأة في أمر أباحه الله لها. والولاية ليست ملكيةً للمرأة؛ هي رعاية لمصلحتها، فإذا تحولت إلى حجر على حقها خرجت عن مقصدها.

وقوله: **﴿إِذَا تَرَاضَوْا﴾** يثبت أن الرضا عنصر أصيل في الزواج. لا يُبنى الميثاق الغليظ بالإكراه؛ فكيف يكون سكنًا لمن دخلته مجبرة؟

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

قد تمنع العائلة الزواج باسم الكرامة، لكن الإيمان بالآخرة يضع الكرامة العائلية تحت حكم الله. ماذا ستقولون حين يُسأل كل ولي: لماذا منعت ما أحل الله؟

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

تركهما يتزوجان بالحلال أطهر من دفعهما إلى تعلق خفي أو علاقة محرمة. الشريعة لا تحكم المشاعر بالإنكار؛ تفتح لها الطريق النظيف إذا قامت شروطه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قد تظن الأسرة أن المنع أحفظ لسمعتها، ويعلم الله أن العودة أصلح. مرة أخرى تتراجع المعرفة البشرية المحدودة أمام العلم المحيط.

الرضاعة: حق الطفل بعد انقسام البيت

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾

بعد الطلاق لا يختفي الطفل. قد تنتهي الزوجية، لكن الأبوة والأمومة لا تنتهيان.

وهذه من أعظم عدالة القرآن: ينتقل من نزاع الرجل والمرأة إلى كائن لا يملك صوتًا في النزاع، لكنه قد يدفع أكبر أثمانه.

حدد تمام الرضاعة بحولين كاملين لمن أراد إتمامها. والأم تؤدي حق الرضاع بحسب الأحوال والأحكام، لكن العبء لا يقع عليها وحدها.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

على الأب نفقة المرضعة وكسوتها بالمعروف. فالطفل ثمرة مشتركة، ولا يصح أن يترك الأب الأم تواجه كلفة الرعاية وحدها.

سمّاه **﴿الْمَوْلُودِ لَهُ﴾** ليذكره أن الطفل الذي ينتسب إليه ويمنحه اسمه يحمّله مسؤولية النفقة.

الانتساب ليس شرفًا مجانيًا؛ وراءه واجبات.

لا تكلف نفس إلا وسعها

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

النفقة بالمعروف بحسب قدرة الأب وحاجة الأم والطفل. لا يُطالب الفقير بما يملك الغني، ولا يتخذ الغني كلمة «الوسع» ذريعةً للبخل.

الوسع لا يحدده ادعاء النفس وحده؛ فالإنسان قد يرى الكماليات ضرورةً، ثم يقول لا أستطيع نفقة ولده. المعروف والعدل يكشفان مقدار الطاقة.

والقاعدة أوسع من الرضاع: الله لا يكلف نفسًا ما يخرج عن قدرتها. لكنه أعلم بوسعنا منا؛ فقد نظن أننا لا نستطيع لأن الأمر يثقل على رغبتنا، لا لأنه يفوق قدرتنا.

لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾.

ما أدق معرفة القرآن بالنفس عند الطلاق! قد يتحول الطفل إلى أكثر الأسلحة إيلامًا: تمنع الأم الأب من رؤية ولده لتنتقم.

أو ينتزع الأب الطفل منها ليكسر قلبها.

أو يُضغط عليها بالرضاع فوق طاقتها.

أو يحرمها النفقة كي تتنازل.

فجاء النهي للطرفين. الطفل ليس رسالة تهديد متبادلة، ولا ملكًا لأحدهما وحده، بل إنسان له حق مستقل.

من يستعمل طفله لإيذاء الطرف الآخر يزرع الجرح في نفس الطفل نفسه. قد يظن أنه يعاقب زوجًا سابقًا، لكنه يعلّم ابنه أن الحب مشروط وأن الأمان قابل للمصادرة.

ثم قال: **﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾**؛ فعند غياب الأب أو موته تنتقل مسؤوليات النفقة في الرضاع إلى من يقرر الفقهاء وجوبها عليه من الورثة، بحسب أحكامها.

لا يُترك الطفل لأن أحد أطراف المسؤولية غاب؛ المجتمع العائلي يحمل ما بقي من الأمانة.

فصالٌ عن تراض وتشاور

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

يجوز فطام الطفل قبل الحولين إذا اتفق الأبوان ورأيا مصلحته.

جمعت الآية شرطين: **﴿تَرَاضٍ﴾**؛ فلا ينفرد أحدهما بالقرار استعلاءً.

﴿وَتَشَاوُرٍ﴾؛ فلا يكون الرضا سطحيًا بلا نظر في مصلحة الطفل.

التراضي يحفظ العلاقة، والتشاور يحفظ جودة القرار.

وقد انتهت الزوجية، لكن القرآن ما زال يطلب منهما أن يجلسا على طاولة واحدة من أجل الطفل. يستطيع الفراق أن ينهي السكن بينهما، لكنه لا ينبغي أن ينهي القدرة على التعاون في مسؤولية الأبوة.

إن النضج ليس أن يبقى الطرفان بلا ألم، بل أن يمنعا ألمهُما من أن يدير مستقبل الطفل.

الاسترضاع بلا حرج

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

إذا تعذر إرضاع الأم أو اختار الطرفان مرضعةً أخرى لمصلحة معتبرة، فلا حرج، بشرط أداء أجر المرضعة بالمعروف.

حتى أكثر العلاقات حنانًا تحتاج إلى وضوح مالي حين تدخلها أجرة، حتى لا يُستغل احتياج المرأة أو تعلق الأسرة بالطفل.

الشريعة لا ترى التعاقد منافيًا للرحمة؛ العقد العادل يحمي الرحمة من أن تُستنزف بالاستغلال.

ثم قال: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾.

يعلم مَن اختار المرضعة لمصلحة الطفل، ومن فعل ليضار الأم. الصورة الخارجية واحدة، لكن البصير يرى الباعث.

حين يدخل الموت البيت

﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾

بعد الفراق بالطلاق يأتي الفراق الذي لا يملك أحد الرجوع عنه: الموت.

عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام، إلا الحامل فعدتها حتى تضع حملها وفق آية سورة الطلاق.

هذه المدة تجمع حكمًا شرعيًا وحكمةً إنسانية: استبراء الرحم، وحفظ النسب، وإعطاء العلاقة السابقة زمنًا من الوفاء والحزن المنضبط.

المجتمع المتعجل قد يطلب من الأرملة أن تتجاوز حزنها سريعًا، أو يحبسها في الحزن سنوات باسم الوفاء. والشرع يضع حدًا يراعي الفقد ثم يعيد فتح باب الحياة.

الحزن حق، لكنه ليس حكمًا مؤبدًا.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

بعد انتهاء العدة يحق لهن أن يتزينّ ويتزوجن ويتصرفن في شؤونهن بالمعروف. لا يملك أهل الزوج المتوفى أن يجعلوا أرملته جزءًا من ميراثه، ولا أن يحرموا عليها حياةً جديدة.

الوفاء للميت لا يعني دفن الحي معه معنويًا.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

خبير بدقائق الحزن والضغط الاجتماعي، وبمن يحفظ الحق ومن يصادره باسم العادات.

التعريض بالخطبة في العدة

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾

يجوز التعريض بخطبة المعتدة من وفاة أو المطلقة طلاقًا بائنًا، دون تصريح ملزم أو عقد حتى تنتهي العدة، على التفصيل الفقهي.

والتعريض أن يقول الرجل كلامًا يفهم منه رغبته من غير تصريح: إنك لصاحبة خلق، أو إني أرغب في امرأة صالحة.

﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾.

ما يخفيه الإنسان من الرغبة لا يؤاخذ عليه ما لم يحوله إلى طريق محرم. فالشرع لا يحاسب القلب على مجرد خاطر لا يملكه، وإنما ينظم التعبير والفعل.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾.

يعترف الوحي بالطبيعة البشرية. المرأة قد تكون موضع رغبة في الزواج، والرجل قد يفكر فيها، فلا ينكر التشريع الواقع، بل يضع له لغةً وحدودًا.

الدين لا يبني الطهارة على التظاهر بأن الرغبات غير موجودة؛ يبنيها على إدارتها بصدق.

لا تواعدوهن سرًا

﴿وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

منع المواعدة السرية التي تتجاوز التعريض المشروع، لما فيها من انتهاك العدة وفتح أبواب العلاقة الخفية.

السر يغري بتجاوز الحدود؛ حين تختفي العلاقة عن أعين المجتمع، قد يعيد الطرفان تسمية المحظور، ويظنان أن صدق المشاعر يعفيهما من الطريق الصحيح.

لكن النية الطيبة لا تطهر الوسيلة المحرمة. من أراد بيتًا حلالًا فليأتِه من بابه، ولا يبدأ عهد الأمانة بخيانة حد الله.

﴿**قَوْلًا مَعْرُوفًا**﴾؛ كلامًا كريمًا لا ابتذال فيه ولا استغلال لضعف امرأة ما زالت في زمن الحزن.

لا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله

﴿**وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾

الزواج عقدة؛ رابطة موثقة تعقد حياتين. ولا يجوز إبرامها قبل انتهاء العدة.

﴿**حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾؛ حتى ينتهي الحكم المكتوب إلى موعده.

بعض الأشياء لا يصلح استعجالها، ولو كانت في أصلها حلالًا. فالوقت جزء من الحكم. الزواج حلال، لكنه داخل العدة حرام.

إن الإنسان قد يحب النتيجة الطيبة ويستعجلها بطريق فاسد، فيفسد ما أراد إصلاحه. والطاعة تعني احترام ميقات الشيء كما تحترم ذاته.

واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾.

بعد تنظيم الكلام والعقد ينتقل القرآن إلى الداخل. قد يلتزم الإنسان بالألفاظ الظاهرة، ويخطط في نفسه للتحايل على الحد.

الله يعلم ما أكنّه القلب: الرغبة البريئة، والنية الفاسدة، والمواعدة التي أُخفيت، والعزم الذي ينتظر فرصة.

﴿**فَاحْذَرُوهُ**﴾؛ احذروا علمه وحسابه، ولا تجعلوا خفاء الخاطر عن الناس دليل أمان.

ثم حتى لا يتحول الحذر إلى يأس: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾.

يعلم ضعف النفس، ويغفر لمن تاب، ويحلم فلا يعاجل. جمع الحذر والرجاء في آية واحدة؛ فلا يغتر القلب بالحلم، ولا ييأس بسبب العلم المحيط.

طلاق قبل المسيس

﴿**لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾

قد يعقد الرجل على امرأة ثم يتبين قبل الدخول أن استمرار الزواج غير مناسب. لم يجعل الشرع الطلاق هنا إثمًا لمجرد وقوعه؛ فقد يكون إنهاء العلاقة مبكرًا أقل ألمًا من إدخالها في بيت يعلم أنه لن يقوم.

لكن سقوط الإثم لا يعني سقوط الأخلاق.

﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ**﴾.

امنحوهن مالًا أو كسوةً تطييبًا لخاطرهن وجبرًا لأثر الفراق، إذا لم يكن المهر قد سُمي، على قدر الاستطاعة: ﴿**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**﴾.

لم يساو بين الغني والفقير في المقدار، لكنه ساوى بينهما في أصل المسؤولية. الغني لا يبخل بحجة عدم وجود رقم محدد، والفقير لا يُحمّل ما لا يطيق.

﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

قد لا يكون الفراق ظلمًا، لكن الإحسان يطلب جبر القلب بقدر الممكن. ليس كل ما لا يوجبه القضاء ساقطًا من ميزان المروءة.

نصف المهر والعفو أقرب للتقوى

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾

إذا سُمي المهر ثم وقع الطلاق قبل الدخول، فللمرأة نصفه.

هذا حق واضح يمنع النزاع، فلا يأخذ الرجل المهر كله لمجرد أن الحياة لم تبدأ، ولا تأخذ المرأة كامله مع عدم الدخول.

ثم فتح باب الفضل: **﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾**.

للمرأة أن تعفو عن نصفها، وللزوج أن يعفو فيدفع المهر كاملًا، وهو الأظهر في معنى الذي بيده عقدة النكاح.

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

عند الفراق يحرص كل طرف على آخر ما يستطيع أخذه. يأتي القرآن ليقول: ليس كل ما تملكه بحقك لازمًا أن تستوفيه إذا كان العفو أصلح وأكرم.

العفو لا يكون واجبًا هنا، ولا ينبغي الضغط على الضعيف ليتنازل باسم التقوى؛ إنما هو فضل يختاره صاحب الحق بحرية.

﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

هذه من أجمل كلمات القرآن في نهاية العلاقات. لا تجعل لحظة الخلاف تمحو كل معروف سابق. كان بينكما مودة ووعد وأيام طيبة، فلا تعيدا كتابة التاريخ كله بلون الجرح الأخير.

قد ينتهي العقد، لكن لا يلزم أن تنتهي المروءة.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يرى من تنازل كرمًا، ومن أخذ حقه دون ظلم، ومن استغل حزن الآخر، ومن حفظ الفضل رغم الفراق.

حافظوا على الصلوات: مركز الروح وسط اضطراب البيت

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

وسط أحكام الطلاق والعدة والمهر تظهر الصلاة.

قد يبدو موقعها مفاجئًا، لكنه عميق الدلالة. فالأسرة في أوقات النزاع تحتاج إلى قلب مرتبط بالله، وإلا تحولت الأحكام إلى أدوات مكر.

الصلاة تعيد الإنسان من غضبه إلى عبوديته، ومن روايته الخاصة للقصة إلى علم الله الكامل بها.

﴿حَافِظُوا﴾.

كأن الصلاة شيء ثمين مهدد بالضياع وسط مشاغل الحياة. لا يكفي أن تؤدى أحيانًا؛ تحتاج إلى حراسة في أوقاتها وخشوعها وحدودها.

والصلاة الوسطى هي صلاة العصر على الراجح من دلالة السنة. تأتي في قلب الانشغال اليومي حين يبلغ العمل والسوق ذروته، فيُطلب من الإنسان أن يقطع تيار الدنيا ويعود إلى الله.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

قيام خضوع وسكون وطاعة. لا تقوموا للعادة ولا لنظر الناس، بل لله.

ومن وقف قانتًا بين يدي الله خمس مرات، ينبغي أن يستحيي أن يعود فيظلم زوجًا أو يأكل مهرًا أو يستعمل طفلًا للإضرار.

إذا لم تدخل الصلاة غرفة الخصومة، فقد بقي منها في المسجد شيء ولم يدخل البيت.

الصلاة في الخوف

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

حتى في حال الخوف الشديد والحرب لا تسقط الصلاة، لكنها تتكيف مع القدرة: مشاةً أو راكبين، إلى القبلة أو غيرها بحسب الضرورة وتفصيل الأحكام.

الله الذي أمر بالمحافظة لم يجعل صورة الصلاة واحدةً في كل ظرف. ثبت الأصل، وتغيرت الهيئة مع الخوف.

وهذا من جمال الشريعة: لا تسقط الصلة بالله عند الأزمة، ولا تتجاهل الأزمة في طريقة أداء الصلة.

قد لا تستطيع أن تمنح الصلاة هدوء الظروف العادية، لكن لا تتركها. صل بما تقدر، فالله يعلم الاضطراب الذي حولك.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

حين يعود الأمن، تعود الصلاة إلى هيئتها الكاملة، ويعود الذكر شكرًا على النجاة والتعليم.

الأمن ليس حالةً محايدة؛ نعمة ينبغي أن تظهر في العبادة. وقد يعرف الخائف قيمة الصلاة حين يصعب عليه أداؤها، ثم إذا أمن عاد إلى الغفلة.

إن من شكر السعة أن تستعملها فيما حُرمت منه زمن الضيق.

وصية المتوفى لزوجه

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

كان من الحكم أولًا أن يوصي الرجل لزوجته بالسكن والنفقة إلى حول كامل دون إخراج، ثم نُسخ وجوب ذلك بأحكام المواريث وعدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا، وبقي في الآية شاهد على عناية التشريع بحق الأرملة وتدرجه في تنظيمه.

قبل اكتمال نظام المواريث، كان ينبغي ألا تُطرد الزوجة من بيتها فور موت زوجها، كأن صلتها بالبيت انتهت بانقطاع الرجل. منحها الحكم سكنًا ومتاعًا يحفظها من الصدمة الاجتماعية والمادية.

ثم جاء النظام النهائي ففرض لها نصيبًا معلومًا في الميراث وحدد عدتها.

والنسخ هنا انتقال من حماية مؤقتة إلى نظام أدق وأبقى. لم تتغير عناية الشريعة بالمرأة؛ تغيرت صورة الحماية مع اكتمال التشريع.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾.

في الحكم الأول كان لهن خيار الخروج، فلا إثم على الأولياء في تصرفهن المشروع. ليست الأرملة ملكًا لعائلة زوجها، ولا تُحبس لتكون نصبًا دائمًا لذكراه.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

عزيز يحمي من لا قوة لها بعد موت معيلها، حكيم ينقل الأحكام إلى ما يحقق المصلحة الأتم.

للمطلقات متاع بالمعروف

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

لا يريد القرآن أن تخرج المرأة من الزواج محملةً بجرح الفراق فقط. لها متاع بالمعروف على ما يقرره الفقه في أحوال الطلاق، جبرًا لخاطرها وحفظًا لكرامتها.

قد يقول الرجل: أعطيتها حقها القانوني، ولا شأن لي بما تشعر. لكن التقوى لا تقف دائمًا عند أدنى حد يمكن أن تحكم به المحكمة.

﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

المتقون يفهمون أن المرأة التي دخلت البيت بعهد لا ينبغي أن تخرج منه كأنها لم تكن شيئًا. حتى إذا تعذر استمرارها زوجةً، لا تتعذر معاملتها إنسانةً لها كرامة.

ثم ختم المقطع: **﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**.

أحكام الأسرة ليست تفاصيل بعيدة عن العقل، بل حماية من فوضى العاطفة والسلطة والمال. وكلما تدبرها الإنسان رأى أن وراء الأعداد والعدد روحًا واحدة:

لا تظلموا حين تحبون.

ولا تظلموا حين تبغضون.

ولا تجعلوا العقد ملكيةً للإنسان.

ولا تجعلوا الفراق رخصةً للإهانة.

ولا تنسوا الأطفال حين تنقسمون.

ولا تنسوا الفضل حين تنتهي المودة.

هكذا يصون القرآن أرق مواضع الإنسان: لا يعده بأن كل بيت سيبقى، لكنه يطلب أن يبقى العدل حتى إذا انهار البيت.

فالزواج قد ينتهي، لكن العهد مع الله لا ينتهي. والزوج قد يغيب، لكن رقابة الله لا تغيب. والناس قد يسمعون روايةً واحدة، لكن الله يعلم القصة كلها.

ومن هنا ستنتقل السورة إلى مشاهد الموت والحياة والملك والقتال؛ لتعيد تعليم الأمة أن الحماية لا تكون بالعاطفة وحدها، وأن القوة نفسها تحتاج إلى قلب لا يفسده امتلاكها.

وسيظهر طالوت وجالوت، وسنرى كيف تُهزم الكثرة حين تعبد مقاييسها، وكيف تعبر القلة النهر فلا تنجو كلها من فتنة العطش، وكيف يحمل اليقين قومًا يقولون: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾.

بين الموت والملك

حين تتعلم الأمة أن النجاة ليست في كثرة العدد

الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾

بعد أحكام الأسرة التي تحفظ الحياة من التفكك، تعرض السورة مشهدًا لجماعة خرجت من ديارها طلبًا لحفظ حياتها نفسها.

كانوا ألوفًا؛ عددًا كبيرًا يمنح أصحابه شعورًا بالقوة. خرجوا فرارًا من الموت، قيل من وباء، وقيل من قتال، والمقصود الذي يثبت من الآية أنهم غادروا ديارهم ﴿**حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾.

ظنوا أن النجاة تسكن في مكان آخر، وأن المسافة التي يقطعونها بعيدًا عن الخطر ستقطعهم عن القدر.

فقال لهم الله: ﴿**مُوتُوا**﴾.

جاءهم ما فروا منه في الموضع الذي ظنوا أنه موضع الأمان.

إن الحذر مشروع، والأخذ بالأسباب واجب، والفرار من الوباء قد يكون من الأسباب المشروعة وفق هدي النبوة، لكن السبب لا يستقل بصناعة المصير. يمكن للإنسان أن يحكم إغلاق الأبواب كلها، ويبقى الباب الذي يدخل منه قدر الله خارج حسابه.

المشكلة ليست في أنهم تحركوا لطلب السلامة فحسب، بل في أن اعتمادهم استقر على الحركة كأنها تملك الحياة والموت.

الأسباب أبواب، لكنها ليست آلهة.

ثم قال: ﴿**ثُمَّ أَحْيَاهُمْ**﴾.

الذي أماتهم بكلمة أعادهم إلى الحياة. لم تنقذهم كثرتهم من الموت، ولم يمنع موتهم قدرتَه على إحيائهم.

هذا المشهد يقتلع من القلب وهمين: وهم أن الموت يمكن الهرب منه هربًا مطلقًا.

ووهم أن الموت إذا وقع صار نهايةً تعجز القدرة عن تجاوزها.

إن الله مالك اللحظتين؛ لا يحفظ الحي سببٌ إلا بإذنه، ولا يعجزه جسد مات وتفرق.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

الحياة الأولى فضل، والإحياء بعد الموت فضل، وإمهال الإنسان ليتعلم فضل. نحن نفتح أعيننا كل صباح كأن الأمر عادي، مع أن كل استيقاظ عودة مصغرة من غياب لم نكن نملك أثناءه لأنفسنا شيئًا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

لا يشكرون نعمة الحياة لأن دوامها أخفى عنهم غرابتها. ربما لا يعرف المرء أن التنفس نعمة حتى يضيق صدره، ولا يعرف أن مشيه فضل حتى تخذله قدمه.

الشكر هو أن تستعيد الأشياء اليومية دهشتها الأولى.

قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

بعد قصة قوم فروا حذر الموت جاء الأمر بالقتال. والترتيب بالغ الدلالة: من عرف أن الفرار لا يؤخر الأجل إذا جاء، أصبح أقدر على أداء الواجب دون أن يستعبده الخوف.

ليس المعنى أن يلقي الإنسان بنفسه في الهلاك أو يحتقر وسائل الحماية، بل ألا يجعل حب الحياة حاجزًا يمنعه من نصرة الحق حين يتعين عليه الموقف.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

كل قطرة دم تحتاج إلى هذا القيد. فالقتال من أجل العصبية أو الملك أو الانتقام ليس في سبيل الله، وإن زخرفت الراية بخطاب مقدس.

ثم قال:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يسمع ما يقول المقاتل عن غايته، ويعلم ما أخفاه قلبه: أخرج لله، أم ليقال شجاع؟ يدافع عن مظلوم، أم يبحث عن غنيمة؟ يلتزم الحد، أم ينتظر لحظة ينتقم فيها؟

في ضوضاء الحرب قد تضيع الفروق عند الناس، لكن السميع العليم لا تختلط عليه النيات.

من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا؟

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

بعد بذل النفس يأتي بذل المال. فالمعارك والرسالات لا تقوم بالحماسة وحدها؛ تحتاج إلى من يفتح يده كما يحتاج الحق إلى من يثبت بقدمه.

سمّى الله الإنفاق في سبيله **قرضًا**، وهو الغني عن العالمين. لم يحتج إلى مالنا، لكنه خاطبنا بلغة التجارة التي تطمئن النفس: ما تعطيه لن يضيع، بل هو دين مضمون عند أكرم من وفى.

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.

حسنًا في مصدره؛ من مال حلال.

وحسنًا في نيته؛ بلا رياء.

وحسنًا في طريقته؛ بلا منٍّ ولا أذى.

وحسنًا في موضعه؛ حيث تكون الحاجة والحق.

قد يعطي المرء مالًا كثيرًا، لكنه يفسده بإهانة من أخذه. وقد يعطي قليلًا، ويحمله قلب صادق، فيكون القليل عند الله كبيرًا.

﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

لا يعيده بمقداره فقط. حبة خرجت من اليد، فعادت سنابل لا يحيط العبد بعددها. إن حساب الله لا يشبه حساب السوق؛ الفضل يدخل في المعادلة.

لكن لماذا يمسك الناس؟

لأنهم يخافون النقص. فجاء الجواب: **﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾**.

هو الذي يضيق الرزق ويوسعه بحكمته. إمساكك لا يضمن البسط، وإنفاقك في طاعته لا يعني الضياع.

قد يكون المال كثيرًا، لكن البركة مقبوضة، فيعيش صاحبه فقير الطمأنينة. وقد يكون قليلًا، لكن الله يبسط أثره حتى يكفي ويغني القلب.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

سيبقى المال وراءك، ويأتي معك ما قدمت منه. والمفارقة أن ما أمسكتَه يفارقك، وما أنفقتَه لله تجده أمامك.

بنو إسرائيل يطلبون القتال ثم يتراجعون

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

كانوا قد ذاقوا الذل والتشرد، وغلبهم عدوهم، فسألوا نبيًا لهم أن يعيّن لهم ملكًا يجمع شتاتهم وينظم قتالهم.

قالوا: ﴿**نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.

العبارة عظيمة، والحماسة ظاهرة. لكن القائد النبي يعرف أن الكلمات التي تقال في مجلس الألم قد تتغير حين يقترب ثمنها.

فقال: ﴿**هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا**﴾.

هل يحتمل أن تطلبوا التكليف، فإذا صار فرضًا تراجعتم؟

إن الإنسان قد يتمنى البطولة ما دامت مشهدًا في خياله. يرى نفسه ثابتًا في الموقف الذي لم يقع، ويمنح ذاته يقينًا لم يُختبر.

لكن الشجاعة المتخيلة لا تدفع ألمًا ولا تخسر مالًا. فإذا جاءت ساعة الفعل ظهر الفارق بين صورة الإنسان عن نفسه وحقيقته.

قالوا مؤكدين: ﴿**وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**﴾.

لديهم أسباب قوية: أُخرجوا من الوطن وفُصلوا عن الأبناء. والمظلومية تمنح المشاعر طاقةً كبيرة، لكنها لا تضمن الثبات. قد يعرف الإنسان لماذا يجب أن يقاوم، ثم ينهار أمام كلفة المقاومة.

﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ**﴾.

بين «ابعث لنا» و«كُتب عليهم» سقطت الأكثرية.

كان القتال مرغوبًا وهو اقتراح، فلما صار تكليفًا أصبح ثقيلًا. وما أكثر الأفكار التي يحبها الناس ما دامت تطالب غيرهم بالتضحية!

يكتب الإنسان عن الشجاعة، ثم إذا اقترب الخطر من موقعه أعاد تعريف الحكمة. يطالب الناس بالبذل، فإذا جاء الدور إلى ماله تكاثرت الأعذار.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

سمّى التولي ظلمًا؛ لأنهم ظلموا عهدهم، وظلموا القلة التي ثبتت، وربما ظلموا المقهورين الذين علقوا آمالهم على نصرتهم.

طالوت: القائد الذي لم تختَرْه المقاييس الاجتماعية

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾

طلبوا ملكًا، فلما اختاره الله لهم لم يعجبهم الاختيار.

قالوا: **﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾.**

كان معيارهم: النسب والمال. كيف يقودنا رجل ليس من البيت الذي اعتدنا خروج الملوك منه، وليس واسع الثراء؟

طلبوا قائدًا ينقذهم، لكنهم أرادوه على صورتهم الاجتماعية، لا على الصفات التي تحتاجها المعركة.

وهنا يظهر مرض قديم: يظن الناس أن الثروة دليل كفاءة، وأن صاحب الاسم الكبير أحق بالقيادة، وإن خلا من العلم والقوة. يتحول المنصب إلى ميراث طبقي بدل أن يكون أمانةً للأجدر.

قال النبي: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ**﴾.

أنتم طلبتم من الله أن يبعث ملكًا، فلما اختار رفضتم اختياره. كأنهم أرادوا من الوحي أن يصدّق مرشحهم، لا أن يختار لهم.

﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾.

هذه مؤهلات القيادة في ذلك المقام:

علم يرى به الطريق ويدير الرجال ويقدر المآلات.

وقوة جسم تعينه على أعباء الحرب.

لم يقل: زاده مالًا؛ لأن الملك لا يحتاج أن يملك الأمة، بل أن يملك كفاءة خدمتها.

العلم بلا قوة قد يعرف ما ينبغي ولا يقدر على تنفيذه، والقوة بلا علم قد تسرع إلى الهلاك. واجتماعهما يصنع أهلية القيادة، إذا صح معهما الدين والأمانة.

﴿**وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**﴾.

الملك لله، يمنحه بحكمته، وليس حكرًا على طبقة. ومن نازع الاختيار لمجرد أن المختار أقل مالًا، فقد جعل مقياس السوق فوق مقياس المهمة.

﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

واسع الفضل لا تنحصر مواهبه في الأسر المعروفة، عليم بمَن يصلح لما حمّله.

قد يخرج القائد الذي تحتاجه الأمة من هامش لم تلتفت إليه؛ لأن المواهب لا تستأذن الطبقات قبل أن تولد.

التابوت: سكينة تحمل ذاكرة النبوة

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾

طلبت نفوسهم آيةً تطمئن بها إلى ملك طالوت، فجاءهم التابوت الذي فقدوه، تحمله الملائكة على الوجه الذي أراده الله.

كان في التابوت سكينة وبقية من آثار آل موسى وهارون، مما يربط حاضرهم بتاريخ الوحي.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

السكينة ليست مجرد هدوء الظروف؛ قد تكون قوة داخلية تنزل والقوة الخارجية ما زالت مخيفة. يرى الإنسان العدو نفسه، لكن قلبه لم يعد يرتجف بالطريقة ذاتها.

ونسبها إلى الرب؛ لأنها تربية خاصة للقلب في وقت الاضطراب.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾.

للآثار قيمة حين تصل الإنسان بمعنى النبوة، لا حين تتحول إلى أصنام أو بدائل عن العمل. كانت البقية تذكيرًا بالعهد والمسيرة، لكنها لن تقاتل بدلهم.

التاريخ يمنح السكينة، لكنه لا يعفي الحاضر من الحركة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الآية لا تؤثر إلا في قلب مستعد للإيمان. أما المتعنت فقد يطلب آيةً، فإذا جاءته طلب أخرى؛ لأن المشكلة لم تكن في الدليل.

النهر: الامتحان الذي اختصر الجيش

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾

تحرك الجيش أخيرًا. لكن قبل مواجهة جالوت كان عليه أن يواجه نفسه عند نهر.

كم يبدو الامتحان بسيطًا بجانب الحرب! ماء وجيش عطشان، وأمر بالامتناع. لكن القدرة على مواجهة العدو تبدأ من القدرة على مواجهة الرغبة.

قال طالوت:

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾.

أباح لهم غرفةً باليد تدفع شدة العطش، ومنع الاسترسال في الشرب. لم يكن المطلوب تعذيب الجيش، بل اختبار الانضباط.

القائد لا يحتاج في ساعة الخطر إلى كثيرين لا يملكون أنفسهم؛ يحتاج إلى رجال يستطيعون الوقوف عند أمر يبدو شاقًا.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

تكرر القليل. قليل ثبت عند كتابة القتال، وقليل ثبت عند النهر.

كل مرحلة من الطريق تصفي الصف. في البداية تكون الحشود واسعة لأن الشعار لا يكلف كثيرًا، ثم يأتي المال، والخوف، والتعب، والرغبة، فيبقى الذين صدقوا.

ليست كثرة العدد دليل قوة إذا كان أول نهر قادرًا على تفكيكها.

والنهر هنا أعمق من واقعة تاريخية؛ لكل مشروع نهره. موضع صغير يختبر هل يستطيع أصحابه ضبط مصالحهم وشهواتهم، أم أنهم سيشربون حتى يفقدوا أهلية العبور.

قد تنجو الجماعة من قمع العدو، ثم تسقط عند نهر المال أو المنصب أو الشهرة. لا يهزمها جالوت؛ يهزمها الماء الذي لم تستطع أن تكتفي منه بغرفة.

لا طاقة لنا اليوم بجالوت

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾

حتى الذين عبروا النهر لم يكونوا على درجة واحدة من اليقين. رأى بعضهم جيش جالوت وضخامته، فقاس القوة بالعدد والعدة وقال: **﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾**.

وربما كان تقديرهم العسكري في ظاهر الأسباب مفهومًا؛ فالعدو أكثر وأقوى. لكن الخطأ أن تتحول قراءة الأسباب إلى حكم نهائي يلغي ما وراءها.

الإيمان لا ينكر تفوق العدو المادي. يرى السلاح والعدد والخبرة، لكنه لا يقول إن هذه العناصر تملك النتيجة مستقلةً عن الله.

الذين يظنون أنهم ملاقو الله

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الذين ثبتوا أمام مشهد الكثرة هم الذين استحضروا لقاء الله.

الآخرة هنا تصنع شجاعةً في الدنيا. مَن عرف أنه ملاقي الله لم يعد الموت في سبيل الحق نهايةً مخيفة، ولم يعد بقاء الجسد أغلى من بقاء العهد.

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾.

التاريخ ليس دائمًا انتصار الأكثر. قد تملك القلة وضوح الغاية وانضباط الصف وقوة اليقين، فتغلب كثرةً تملأها المصالح والتردد.

لكن الآية لا تمجد القلة لذاتها. قد تكون القلة مبطلة والكثرة محقة. العامل الحاسم هنا: **﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**.

فلا يقول القليل: نحن ننتصر لأننا قليلون أو لأن إيماننا يفرض على الله نتيجةً معينة. يبذلون السبب، ويصبرون، ويعلمون أن النصر بإذنه.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

لم تقل: مع الأكثر عددًا، ولا مع الأعلى صوتًا. المعية الخاصة للصابرين الذين ثبتوا على أمره.

ربنا أفرغ علينا صبرًا

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

حين ظهرت الصفوف وجهًا لوجه، لم يتغنوا بشجاعتهم، بل دعوا.

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

صوّر الصبر كالماء يُصب عليهم حتى يغمرهم. لم يطلبوا جرعةً قليلة؛ العدو كبير، والمقام يحتاج صبرًا يملأ الجسد والقلب.

والصبر يسبق ثبات القدم: **﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾**.

فإن انهزم القلب تحركت القدم قبل أن يصل إليها العدو. الثبات الخارجي يبدأ من سكينة داخلية.

ثم: **﴿وَانْصُرْنَا﴾**.

بذلوا ما يقدرون، ثم نسبوا النتيجة إلى الله. لا تناقض بين التخطيط والدعاء؛ التخطيط استعمال لما وهب الله، والدعاء اعتراف بأن الأدوات لا تستقل.

وترتيب الدعاء عجيب: صبر في الداخل.

وثبات في الميدان.

ونصر في النتيجة.

فقد يطلب الإنسان النصر، بينما نفسه لا تزال عاجزة عن حمل متطلباته. والقرآن يعلمنا أن نسأل أولًا عن الإنسان الذي يستحق أن ينصر.

فهزموهم بإذن الله

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

جاءت النتيجة مختصرةً بعد الطريق الطويل. الجيش الذي قال بعض أفراده: لا طاقة لنا، هزم القوة الأكبر.

لكن القرآن لم ينسب النصر إلى عبقرية طالوت وحدها ولا شجاعة الجيش وحدها: **﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**.

الأسباب حقيقية، والجنود قاتلوا، لكن الإذن هو الذي منح الأسباب أثرها. وهذا يحفظ المنتصر من الغرور.

الهزيمة قد ترد الإنسان إلى الله، أما النصر فقد يبعده إذا قال: إنما أوتيته بمهارتي. ولذلك يحتاج المؤمن بعد الفتح إلى توحيد أشد مما احتاج قبل المعركة.

داود: فتى في الصف يغير مسار التاريخ

﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾.

يظهر داود عليه السلام في جملة قصيرة، فتى لم يكن في ظاهر المشهد مركز الجيش، لكنه قتل قائد العدو.

قد يضع الله النصر على يد شخص لم تحسبه المقاييس. ففي الصفوف رجال لا يعرف التاريخ أسماءهم بعد، لكنهم يحملون قدرات تنتظر لحظة التكليف.

وهذا درس للقيادات: لا تحتقروا المغمورين. ربما كان في آخر الصف من يحمل مفتاح المرحلة المقبلة.

وقتل داود جالوت لا يصنع بطولته الشخصية فقط؛ بسقوط رمز القوة انهار ما حوله. أحيانًا يتركز خوف الناس في صورة رجل أو نظام، فإذا سقط الرمز اكتشفوا أن الجدار كان أضعف مما صنعه الخيال.

الملك والحكمة بعد العمل

﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾

بعد أن أدى داود دوره في الميدان، آتاه الله الملك والنبوة والحكمة والعلم.

لم يطلب الموقع أولًا؛ قام بالواجب، فجاءه الموقع.

وهذا فرق بين من يبحث عن المسؤولية ليخدم الرسالة، ومن يستخدم الرسالة ليصل إلى المسؤولية. قد يتشابه كلامهما في البداية، لكن أحدهما مستعد للعمل ولو لم يُذكر اسمه، والآخر يبرد حين لا يكون في المقدمة.

﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

الملك بلا حكمة قد يتحول إلى بطش، والحكمة بلا قدرة تنفيذ قد تبقى موعظة. جمع الله له السلطان الذي ينفذ، والحكمة التي تضبطه.

ثم: **﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾**.

مهما بلغ علم داود، فهو «مما يشاء» الله، جزء من عطاء لا يحيط بعلم المعطي.

لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

هذه قاعدة في حركة التاريخ. لو تُرك الطغيان بلا مقاومة، لابتلع الأرض. فجعل الله من سننه أن يدفع قوةً بقوة، وظالمًا بمن يقف في وجهه، وانحرافًا بمصلح يجاهده.

السلام لا يُحفظ دائمًا بغياب القوة، بل أحيانًا بتوازن يمنع المعتدي من الانفراد. والأرض لا تعمر بالمواعظ وحدها إذا كان المفسد يحمل سلاحًا ويهدم الحياة.

لكن هذا الدفع ليس تفويضًا لكل جماعة أن تزعم أنها أداة الله ثم تفسد. يُعرف الدفع المشروع بعدالة الغاية والوسيلة والتزام حدود الله.

﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾.

فالوقوف أمام الظلم ليس شأن المظلوم وحده؛ هو حماية لنظام الحياة. إذا أُكل حق فرد وسكت الجميع، لم تبق الجريمة في حدوده؛ أُرسل إلى الظالمين جميعًا خبر أن الطريق مفتوح.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ومن فضله أن يبعث في كل زمن من يدفع الفساد، وأن يمنع الشر من أن يملك العالم كله، وأن يُخرج من صف صغير داودًا يقلب موازين القوة.

تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

ليست قصة طالوت وجالوت أسطورةً لتسلية المنهزمين، بل آيات تُتلى بالحق. تكشف قوانين في النفس والقيادة والتاريخ:

أن الحماسة لا تساوي الثبات.

وأن القيادة كفاءة وأمانة، لا مال ونسب.

وأن الجيوش قد تسقط عند نهر قبل أن تصل إلى العدو.

وأن القلة لا يضرها عددها إذا صح يقينها وأخذت بأسبابها.

وأن الشجاعة تبدأ من الصبر.

وأن النصر من الله، ولو جرى على أيدي البشر.

وأن الفتى المغمور قد يحمل مستقبل الأمة.

وأن القوة إذا انفصلت عن الحكمة أفسدت، وإذا اجتمعت بها أقامت العدل.

ثم شهد الله لنبيه ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾.

فهذا الخبر الذي لم يشهده، ويأتيه على وجه الحق، شاهد على مصدر رسالته.

وهكذا انتقلت السورة من بيت يحميه المعروف إلى أمة يحميها الدفع، ومن طفل لا يجوز استعماله في الخصومة إلى شعب لا يجوز تركه للطغيان، ومن ضبط الغضب عند الطلاق إلى ضبط العطش عند النهر.

فالإنسان واحد في كل هذه المواقف: قد يهزمه غضبه في البيت، أو شهوته عند الماء، أو خوفه عند العدو. والقرآن يبنيه في المواضع كلها حتى يكون حرًا لله.

والآن، بعد الحديث عن الملك والقوة والنصر، ستفتح السورة أفقًا أعلى من كل ملك أرضي. ستذكر الرسل، ثم تضعنا أمام آية لا يشبه مقامها مقامًا: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾.

بعد طالوت الذي مُنح الملك، وداود الذي آتاه الله الملك والحكمة، سنقف أمام **مالك الملك كله**.

وبعد جيوش تحتاج إلى الصبر والماء والعدد، سنقف أمام القيوم الذي تقوم به السماوات والأرض ولا تأخذه سنة ولا نوم.

الفصل الثامن عشر

آية الكرسي: حين تقف اللغة في مقام السجود أمام عظمة الله

رسلٌ جمعهم المصدر وفاضل بينهم المقام

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

بعد أن ختمت قصة طالوت وداود بالشهادة لمحمد ﷺ بأنه من المرسلين، اتسع المشهد ليضم موكب الرسل كله.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾.

إشارة فيها تعظيم، كأن النبوات قمم مرتفعة يشار إليها من بعيد. إنهم جميعًا رسل الله، اجتمعوا في أصل الاصطفاء والوحي، لكن الله فاضل بينهم في الخصائص والمنازل.

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

المساواة في أصل النبوة لا تعني التطابق في كل مقام. فالله سبحانه يختار من عباده ويمنح كل رسول من الخصائص ما تقتضيه حكمته.

وهذا يعلمنا أن الاعتراف بالتفاضل لا يلزم منه الانتقاص. يمكن أن تحب الأنبياء جميعًا، وتؤمن بهم جميعًا، ثم تثبت ما فضّل الله به بعضهم على بعض.

﴿**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**﴾؛ وهو موسى عليه السلام، كلمه الله تكليمًا حقيقيًا يليق بجلاله، من غير أن يشبه كلامه كلام المخلوقين.

﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾؛ ويدخل في ذلك نبينا محمد ﷺ بما خصه الله من عموم الرسالة وختم النبوة والقرآن والمقام المحمود، وسائر ما رفعه به.

ثم ذكر عيسى عليه السلام: ﴿**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ**﴾.

نسبه إلى أمه تأكيدًا لبشريته وميلاده المعجز، وآتاه الآيات الواضحة التي تشهد بصدق رسالته.

﴿**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾؛ جبريل عليه السلام. لم تكن معجزاته ألوهيةً فيه، بل بينات آتاه الله إياها، وتأييدًا من ربه.

يتكرر الفعل الإلهي: **فضّلنا، آتينا، أيدنا**؛ حتى يبقى فضل الرسل عائدًا إلى الواهب، ولا يتحول تعظيمهم إلى غلو يرفع المخلوق فوق منزلته.

الرسل أنفسهم دلائل على الله، فلا يجوز أن يتحول الدليل إلى حاجز عن المدلول.

ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم

﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ**﴾

جاء الرسل بالبينات، لكن أتباعهم من بعدهم اختلفوا واقتتلوا.

وقد يقع السؤال: إذا كان الله قادرًا على منع القتال، فلماذا وقع؟

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾.

كل ما يقع في الكون داخل مشيئته الكونية، فلا يخرج شيء عن ملكه. لكنه شاء أن يجعل للإنسان إرادةً واختيارًا، وأن يجري عليه الابتلاء، ولم يشأ شرعًا الكفر والظلم والاقتتال المحرم، بل نهى عنها.

فالمشيئة الكونية لا تعني المحبة والرضا. قد يقع ما لا يحبه الله لحكمة يعلمها؛ امتحانًا وكشفًا واستدراجًا وإقامةً للحجة.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

لم يولد الاقتتال من نقص الدليل دائمًا، بل من اختلاف الإرادات بعد وضوحه. فالحقيقة الواحدة قد تصل إلى قوم، ثم تدخل عليها المصالح والعصبيات، فيحمل كل فريق جزءًا منها ويقاتل به الآخرين.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾.

لم يجعل القرآن الاختلاف كله تنوعًا بريئًا؛ بعضه إيمان وبعضه كفر. فالقول إن الجميع على حق لمجرد أنهم مختلفون يلغي وظيفة الوحي في التمييز.

لكن الحكم على العقائد لا يبيح الظلم لأصحابها؛ يبقى العدل واجبًا، والحساب النهائي لله.

ثم كرر: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾**.

لا يقع في ملكه ما يكرهه قهرًا عنه، ولا تعجزه الفتن التي يراها الناس. يفعل ما يريد بحكمة كاملة، وإن خفي علينا وجه من وجوهها.

إن الإنسان يرى الدم في لحظته، أما الله فيعلم التاريخ كله، ويعلم ما سيخرج من الفتنة، وما ستكشفه من نفوس، وما سيترتب عليها في الدنيا والآخرة.

ولا يعني هذا تبرير الدم أو القعود عن منعه؛ فنحن مكلفون بالعدل والإصلاح. لكننا نعلم ونحن نقاوم الشر أنه لم يفلت من سلطان الله.

أنفقوا قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

بعد الحديث عن القتال، يأتي الإنفاق؛ لأن المال جزء من قوة الأمة، ولأن الإيمان بالغيب ينبغي أن يظهر في طريقة تعامل الإنسان مع ما في يده.

﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

لا يطلب الله منك شيئًا خلقته استقلالًا، بل بعض ما رزقك. أنت تنفق من مال سبقك إليه فضل الله: صحة عملت بها، وعقل أدرت به، وفرصة فُتحت، وأرض أنبتت.

إن نسبة المال إلى الرزق تقتلع شيئًا من المنّة. كيف تتعالى بما أعطيته من شيء أعطاكه الله أولًا؟

ثم حدد وقت العمل: **﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾**.

الإنفاق ممكن الآن، لكنه لن يبقى ممكنًا إلى الأبد. سيأتي يوم يحمل الإنسان فيه ندمًا واسعًا ويدًا لا تستطيع أن تقدم شيئًا.

﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ لا صفقة يشتري بها النجاة.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾؛ لا صداقة مستقلة عن إذن الله تحمل عنه الحساب.

﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾؛ أي لا شفاعة يملكها أحد بذاته، أما الشفاعة الثابتة بإذن الله ورضاه فقد أثبتها القرآن في آية الكرسي نفسها.

الدنيا سوق العمل، والآخرة موضع ظهور النتائج. من أمسك المال هنا لن يستطيع أن يفتح خزانته هناك؛ ستكون الخزانة قد انتقلت إلى الورثة، وبقي الحساب عند صاحبها.

الله لا إله إلا هو

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

هنا تبدأ آية الكرسي.

لا مقدمة قبل الاسم الأعظم في مقامه: **الله**.

كأن الكلمات كلها تتراجع ليظهر الاسم الذي تدور حوله السورة والكون والحياة.

بدأت الآية بالتوحيد؛ لأن كل ما بعدها من صفات العظمة قائم على حقيقة أن المستحق للعبادة واحد.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

تنفي الكلمة الألوهية عما سواه، ثم تثبتها له وحده. تهدم عروشًا داخل القلب قبل أن تهدم أصنام الحجر.

لا إله للرزق غيره، فلا تذل نفسك لمخلوق.

ولا إله للنصر غيره، فلا تعبد قوتك.

ولا إله للمصير غيره، فلا تجعل رضا الناس جنةً وسخطهم نارًا.

إنها كلمة تحرير كاملة. كلما خرج من القلب ندٌّ، اتسعت فيه الحرية.

لكن التوحيد ليس أن تقول: لا أعبد صنمًا، ثم يكون مالك هو الذي يحدد حلالك وحرامك، أو يكون خوفك من البشر أقوى من أمر الله. الإله هو من تمنحه غاية الحب والخضوع والطاعة.

ولهذا لا تنتهي «لا إله إلا الله» عند اللسان؛ تبدأ منه ثم تطوف في الحياة كلها.

الحي: حياة لم يسبقها عدم ولا يلحقها فناء

﴿الْحَيُّ﴾

كل حي في الوجود سبقت حياته لحظة لم يكن فيها، وسينتهي إلى موت.
حياته مستعارة، تحتاج إلى أسباب لا يملكها كاملة.

أما الله فهو **الحي** حياةً كاملةً أزليةً أبديةً، لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، ولا يدخلها نقص.

نحن أحياء به، وهو حي بذاته.

نحتاج إلى الهواء والماء والغذاء والنوم، وهو الغني عن كل شيء.

تضعف الحياة فينا مع العمر، وحياته سبحانه لا يعتريها تغير.

كل محبوب بشري مهدد بالفقد؛ لأن الموت مكتوب عليه. ولهذا لا يجد القلب أمنه الكامل إلا إذا تعلق بالحي الذي لا يموت.

حين يموت السند، يبقى الحي.

وحين يغيب الصديق، يبقى الحي.

وحين يشعر الإنسان أن الحياة تتسرب من جسده، فهو ذاهب إلى الحي الذي وهبه الحياة أول مرة.

ليس في إثبات حياته مشابهة لحياة المخلوق؛ حياته تليق بجلاله، كما أن ذاته لا تشبه الذوات. نثبت ما أثبته لنفسه دون تكييف ولا تمثيل.

القيوم: الذي يقوم به كل شيء

﴿الْقَيُّومُ﴾

القيوم القائم بنفسه، المقيم لغيره. لا يحتاج في قيامه إلى شيء، ويحتاج كل شيء إليه في أصل وجوده وبقائه وتدبيره.

السماوات قائمة به.

والأرض مستقرة بأمره.

والقلب ينبض بإذنه.

والذرة تمسك نظامها بتقديره.

لو وكّل الوجود إلى نفسه لحظةً، لانفرط؛ لأنه لا يحمل سبب بقائه في ذاته.

نحن لا نعيش في كون خلقه الله ثم تركه يعمل بعيدًا عنه؛ نحن في كل لحظة داخل قيوميته. ليست نعمة الله حادثةً قديمة اسمها الخلق فقط، بل إمدادًا متجددًا لا ينقطع.

أنت محتاج إلى الله الآن كما احتجت إليه في أول لحظة من وجودك، وإن حجبتك الأسباب.

فالطبيب سبب، والدواء سبب، والعمل سبب، لكن القيوم هو الذي يقيم السبب ويمنحه أثره.

وحين يدرك المؤمن معنى القيومية، تخف عنه أوهام السيطرة. يأخذ بالأسباب بجدية، لكنه لا ينهار إذا انكسرت؛ لأنه يعلم أن الله لم يكن واحدًا منها، بل كان مقيمها جميعًا.

الناس يتعبون من حملك، أما القيوم فلا يثقله حمل السماوات والأرض.

لا تأخذه سنة ولا نوم

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

السِّنة أول النعاس، والنوم ذهاب الإدراك المعروف في المخلوق. نفى الله الأدنى والأعلى: لا يغلبه نعاس، فضلًا عن النوم.

المخلوق مهما بلغ من القوة يحتاج إلى أن ينسحب من العالم ساعات، يغمض عينيه ويترك ما يحرسه. الملك ينام، والحارس ينام، والأم التي تسهر على طفلها يغلبها التعب.

أما الله فلا تأخذه سنة ولا نوم. لا تمر لحظة يكون فيها العالم بلا حفظ، ولا تنزل دمعة في ساعة غفلة، ولا يتحرك ظالم خارج رقابته لأنه ظن أن الليل ستره.

كم في هذه الجملة من طمأنينة للمؤمن الذي ينام خائفًا! تستطيع أن تغلق عينيك لأن ربك لا ينام. لست أنت الحارس الأخير لنفسك ولا لأحبتك.

وقد يطول البلاء، فيتوهم القلب أن الله غفل عنه. فتأتي الآية: لم تأخذه سنة، فكيف غاب ألمك عن علمه؟

التأخير ليس غفلة، والصمت ليس نومًا، والتدبير يعمل وإن لم تره.

له ما في السماوات وما في الأرض

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

بعد الحياة والقيومية يأتي الملك.

كل ما في السماوات والأرض له خلقًا وملكًا وتدبيرًا. لم يقل: له السماوات والأرض فقط، بل **ما فيهما**؛ كل مَلَك وإنسان وذرة ونجم.

أنت لله.

وما تملك لله.

ومن تحب لله.

وهذه الحقيقة لا تسلب الأشياء قيمتها، بل تحرر علاقتك بها من وهم الملك المطلق. حين تفقد شيئًا تقول: أخذ المالك ما له. وحين تُعطى شيئًا تقول: ائتمنني المالك عليه.

الظالم يعتدي في ملك الله على عبد لله بأداة من خلق الله؛ فأين يذهب بجريمته؟

والغني يمنع مال الله عن حق فرضه الله؛ فكيف يزعم الاستقلال؟

وإذا كان كل شيء له، فلا يملك مخلوق أن يتصرف في ملكه إلا بإذنه.

من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

سؤال يهدم كل وساطة متوهمة. من يجرؤ أن يتقدم بين يدي الله بكلمة لم يأذن بها؟

الشفاعة ثابتة للأنبياء والملائكة ومن يأذن الله لهم، لكنها ليست ملكًا مستقلًا للشافع. لا يشفع إلا بإذن الله، ولا تكون إلا لمن ارتضى.

وهذا يطهر الشفاعة من التصورات الوثنية التي تجعل لله شركاء يضغطون عليه أو يغيرون حكمه كما يفعل المقربون عند ملوك الأرض.

الله لا يحتاج إلى من يعرّفه بحال عبد؛ هو أعلم به. ولا يخاف من شافع، ولا يجامل صاحب مقام. إنما يأذن بالشفاعة رحمةً بالمشفوع له وتكريمًا للشافع.

فحتى أعظم الخلق واقف عند كلمة: **بإذنه**.

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

يعلم ما تقدم من أمرهم وما تأخر، وما أمامهم وما وراءهم، وما ظهر وما خفي. أحاط علمه بالأزمنة والجهات.

الإنسان يرى اللحظة الحاضرة من زاوية واحدة. يحمل ذاكرةً ناقصةً عن الماضي، وظنونًا قلقةً عن المستقبل.

أما الله فيعلم القصة كاملةً قبل بدايتها وبعد نهايتها.

قد تسأل عن منعٍ وقع اليوم، ولا تعلم الشر الذي كان ينتظرك لو أُعطيت.

وقد تحزن لشيء مضى، ولا تعلم الخير الذي خرج من شقوقه.

نحن نحاكم التدبير بمشهد ناقص، بينما المدبر يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا.

وفي الآية أيضًا رهبة: يعلم ما قدمت، وما أخفيت، وما ستؤول إليه خطواتك. لا تستطيع أن تضع جزءًا من حياتك خارج علمه.

ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾

لا يحيط الخلق بشيء من علم الله إلا بما أطلعهم عليه أو مكّنهم من اكتشافه.

قال: **﴿بِشَيْءٍ﴾**؛ حتى الشيء المحدود لا يحيطون به استقلالًا عن مشيئته.

كل اكتشاف علمي فتح لنا نافذة، لكنه يفتح وراءها أسئلةً جديدة. كلما اتسعت دائرة المعرفة، اتسعت حافتها الملامسة للمجهول.

والعلم البشري عظيم في مجاله، لكنه يظل محدودًا. المشكلة ليست في محدوديته؛ فهذا طبع المخلوق. المشكلة أن يتحول بعض ما عرفه إلى كِبر يجعله ينكر كل ما لم يدخل مختبره.

إن اعتراف العالم بحدود أدواته ليس هزيمةً للعلم، بل أمانة علمية.

﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

هو الذي علّم آدم الأسماء، وعلّم داود مما يشاء، وعلّم الإنسان ما لم يعلم. فكل معرفة تفتح للإنسان بابًا إلى التواضع إن تذكر مصدر القابلية والكون الذي يدرسه.

لا يعني ذلك ترك البحث وانتظار العلم بلا جهد؛ لقد أمرنا بالنظر والسير والتفكر. نحن نسعى لأن الله شاء أن يجعل السعي بابًا، ونشكره إذا فُتح لنا.

وسع كرسيه السماوات والأرض

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

نثبت الكرسي كما أثبته الله، على حقيقته اللائقة بما أخبر، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا نحوله إلى صورة بشرية. وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسيره بأنه موضع القدمين، والعرش أعظم منه، وكل ذلك من الغيب الذي نقف فيه عند النص.

﴿وَسِعَ﴾.

السماوات التي يعجز الخيال عن تصور أبعادها، والأرض بما فيها، داخلة في سعة الكرسي.

فأين الإنسان الذي يتكبر بقطعة أرض، أو كرسي سلطة، أو بيت صغير على ذرة تدور في هذا الملك؟

كل كراسي البشر مؤقتة؛ يجلس عليها الواحد زمنًا، ثم يقوم منها ولا يعود. أما ذكر الكرسي هنا فيهدم وهم العظمة المصطنعة، ويرد السلطة إلى حجمها.

حين يعرف الحاكم سعة ملك الله، ينبغي أن يصغر في عينه كرسيه، فيراه أمانةً لا عرش ألوهية.

ولا يؤوده حفظهما

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾

لا يثقله ولا يشق عليه حفظ السماوات والأرض.

المخلوق يتعب من إدارة بيت صغير، ويضيق من تداخل حاجات عدد محدود من الناس. أما الله فيحفظ المجرات والبحار والذرات والقلوب، ولا يثقله شيء.

لا يشغله صوت عن صوت.

ولا دعاء عن دعاء.

ولا رزق مخلوق عن رزق آخر.

حين يرفع الملايين أيديهم في اللحظة نفسها، يسمع كل واحد كأنه الداعي الوحيد، دون أن يختلط عليه لسان أو حاجة.

فلا تقل: إن همي صغير بين هموم العالم. عند الله لا تزاحم الحاجات بعضها بعضًا. الذي لا يؤوده حفظ السماوات لا يثقله شأنك.

وليس معنى ذلك أن يعطيك كل ما تريد؛ لكنه يسمع ويعلم ويدبر، ولا يكون المنع لعجز أو غفلة.

وهو العلي العظيم

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

تختم الآية بالعلو والعظمة.

الله **العلي** بذاته فوق خلقه، وعليٌّ بقدره وقهره، على وجه يليق بجلاله، من غير إحاطة ولا تمثيل.

وهو **العظيم** الذي لا تدرك العقول كنه عظمته، وكل عظمة سواه مخلوقة محدودة.

بعد أن طافت الآية في الحياة والقيومية والملك والعلم والكرسي والحفظ، تعود الكلمات فتسجد عند اسمين: **العلي العظيم**.

إنها آية ترفع القلب من ضيق الأشياء إلى سعة الله. يبدأها الإنسان مثقلًا بقوة مخلوق، فإذا وصل إلى نهايتها أدرك أن كل ما يخيفه صغير تحت ملك العلي.

ويقرؤها وهو يخشى فقدان الحفظ، فتقول له: لا يؤوده حفظ السماوات والأرض.

ويقرؤها وهو قلق من الغد، فتقول: يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

ويقرؤها وقد تعلق بشفيع أو صاحب نفوذ، فتقول: من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟

ويقرؤها وقد أعجب بعلمه، فتقول: ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

آية الكرسي لا تمنح القلب معلومةً واحدة؛ تعيد ترتيب العالم كله في داخله. تضع الله في مقام التعظيم الذي يليق به، ثم تعيد كل مخلوق إلى موضع العبودية.

ولهذا كانت أعظم آية في كتاب الله.

لا إكراه في الدين

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

بعد آية العظمة يأتي نفي الإكراه. كأن التوحيد الذي أعلن كمال الله وغناه لا يحتاج إلى قلوب تساق إليه بالسلاسل.

الإيمان عمل القلب، والقلب لا يؤمن بالقوة. يمكن أن تُكره اليد على حركة، واللسان على كلمة، لكن لا يمكنك أن تخلق يقينًا بالعنف.

﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

الطريق واضح بالحجة، فلا حاجة إلى إكراه الناس على الاعتقاد. وظيفة الدعوة البيان، وليس امتلاك الضمائر.

ولا تتعارض الآية مع أحكام القتال السابقة؛ فالقتال شُرع لدفع العدوان والفتنة وحماية الجماعة والدعوة، لا لإجبار قلب فرد على اعتقاد لا يريده.

حرية الاعتقاد لا تعني أن العقائد كلها متساوية في الحق؛ فقد بيّن القرآن الرشد من الغي. يقرر الحقيقة، ويقيم الحجة، ويترك للإنسان مسؤولية اختياره أمام الله.

الإكراه يُنتج منافقًا لا مؤمنًا، والرسالة تريد قلبًا يقول: أسلمت، لا لسانًا يقولها والسيف فوقه.

الطاغوت: كل ما تجاوز حد العبودية

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾

الإيمان يبدأ بكفرٍ من نوع خاص: الكفر بالطاغوت.

الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده فَعُبد أو أُطيع في معصية الله أو اتُّبع في الباطل راضيًا بذلك، ويدخل فيه الشيطان ورؤوس الضلال والأصنام.

لا يكفي أن تؤمن بالله وتترك في قلبك عروشًا أخرى. لا بد من خلع الطواغيت، ظاهرها وباطنها.

وتقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله في العبارة؛ لأن الأرض لا تستقبل البناء الجديد حتى تزال منها الأنقاض. لا تجتمع عبودية الله مع خضوع مطلق لبشر.

ثم جاءت الصورة: ﴿**اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ**﴾.

كأن الإنسان في مكان يخشى فيه السقوط، فوجد حلقةً بالغة القوة وأمسك بها. والتوحيد ليس فكرةً تزين العقل، بل عروة نجاة يتعلق بها الوجود كله.

﴿**لَا انْفِصَامَ لَهَا**﴾.

لا تنكسر من جهة قوتها. قد تضعف يد الممسك، لكن العروة ثابتة. وكلما اشتدت الفتن احتاج القلب إلى أن يجدد قبضته عليها.

﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

يسمع كلمة الإيمان، ويعلم صدقها في القلب. قد يعلن الإنسان الكفر بالطاغوت، ثم يبقى خاضعًا له في السر، والله يعلم.

الله ولي الذين آمنوا

﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾

الولاية قرب ونصرة وتدبير وهداية على الوجه الذي يليق بالله.

لم يقل: أخرجهم مرةً وانتهى، بل ﴿**يُخْرِجُهُمْ**﴾ بصيغة متجددة. فالمؤمن يحتاج طوال حياته إلى إخراج: من ظلمة جهل إلى نور علم، ومن ظلمة شهوة إلى نور عفة، ومن ظلمة خوف إلى نور توكل.

الظلمات جمع، والنور مفرد. طرق الباطل كثيرة متفرقة، أما الحق فواحد يجمع الإنسان.

قد يخرج المرء من ظلمة ويبقى في أخرى؛ يؤمن في عقيدته، لكن في ماله بقية جاهلية، وفي علاقته بالضعيف ظلمة استعلاء. وولاية الله تربيه حتى يتسع النور في جهاته.

والإخراج حركة؛ لا يبقى المؤمن حيث كان. إذا مر عليه الزمن ولم يخرج الوحي شيئًا من ظلماته، فعليه أن يسأل عن صدق استجابته.

أولياء الكافرين يخرجونهم من النور إلى الظلمات

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾

حتى الكافر لا يعيش بلا ولاية؛ إذا رفض ولاية الله وقعت نفسه تحت ولايات أخرى. الطاغوت لا يترك تابعه مستقلًا كما يوهمه، بل ينقله من بقايا نور الفطرة والبيان إلى ظلمات متراكمة.

قال: **﴿مِنَ النُّورِ﴾**؛ لأن الإنسان خلق على فطرة، وجاءته آيات، لكن الطواغيت تجره بعيدًا عنها.

والطاغوت قد يعد أتباعه بالحرية، ثم يجعلهم أشد الناس خضوعًا: يخافون صورته، ويكررون لغته، ويدافعون عن ظلمه، ويعادون من أجله من لم يظلمهم.

من لم يعبد الله بوعي قد يعبد شيئًا دونه دون أن يسميه عبادة.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

اختاروا ولاية تقود إلى النار، فصاروا أصحابها إذا ماتوا على الكفر.

ملكٌ حاجَّ إبراهيم لأن آتاه الله الملك

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾

تنتقل الآيات من ولاية الله إلى نموذج الطاغوت: ملك جادل إبراهيم في ربه، وكان سبب طغيانه أن الله آتاه الملك.

النعمة التي كان ينبغي أن تصنع شكرًا صنعت استكبارًا؛ لا لعيب فيها، بل لفساد المستقبِل.

﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾.

يا للمفارقة! استعمل ما أعطاه الله لينازع الله. اليد التي مكنته كانت من الله، والعرش والأرض والناس، ثم جعل العطاء حجةً على الاستقلال.

كم من إنسان تمنحه النعمة قدرةً على الطاعة، فيستخدمها في البعد: عقل يجادل به الوحي، ومال يحارب به الحق، وسلطة يظلم بها عباد الله.

ربي الذي يحيي ويميت

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

بدأ إبراهيم بأوضح حقيقة في سلطان الله: الحياة والموت.

الملك قد يسجن ويطلق، ويأمر بالقتل، لكنه لا يخلق حياةً من عدم، ولا يرد روحًا غادرت.

فقال الطاغية: **﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾**.

قيل إنه أتى برجلين محكوم عليهما، فقتل أحدهما وعفا عن الآخر، وسمى العفو إحياءً والقتل إماتة.

إنها مراوغة لفظية لا مواجهة للحجة. لم يخلق حياة المعفوعنه، ولم يكن حكمه سبب وجوده. لكنه نقل الكلمة من معناها الحقيقي إلى استعمال سياسي حتى يوهم الجمهور أنه أجاب.

الطغاة لا يهزمون الحقيقة دائمًا؛ يعيدون تعريف الكلمات. يسمون العفو حياةً يهبونها، كأن حياة الناس ملكهم، ويسمون القتل قانونًا، والعبودية أمنًا.

فإن الله يأتي بالشمس من المشرق

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾

لم يدخل إبراهيم في جدل طويل حول تلاعبه. انتقل إلى حجة لا يستطيع الطاغية أن يقلدها أمام الجمهور.

إن كنت تزعم مشاركةً في الربوبية، فهذا نظام كوني ظاهر: الشمس تأتي كل يوم من المشرق، فغيّر اتجاهها وأت بها من المغرب.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

انقطع وسكت، لا لأنه آمن، بل لأنه لم يجد منفذًا لفظيًا جديدًا.

وقد تُهزم الحجة ولا يهتدي القلب؛ فالمشكلة في بعض المجادلين ليست أنهم ينتظرون البرهان، بل أنهم يريدون ألا يخسروا مقامهم.

إبراهيم لم يكثر الكلام. اختار الدليل الذي يقطع الطريق على المراوغة. وهذه حكمة في الحوار: ليس النجاح في عدد الحجج، بل في معرفة الحجة التي تمس أصل الدعوى.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

حين يتحول الظلم إلى هوية وإصرار، يُحرم صاحبه توفيق الهداية جزاءً لخياره. لم يضل لأنه عجز عن فهم مثال الشمس، بل لأن سلطانه كان أحب إليه من الاعتراف.

قرية خاوية على عروشها

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

يمر رجل صالح — قيل هو عزير، ولا يثبت الاسم في نص الآية — على قرية دمرت، سقطت سقوفها ثم انهارت جدرانها عليها. لا حركة، ولا صوت، ولا علامة قريبة على عودة الحياة.

قال: **﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾**.

لم يكن إنكارًا لقدرة الله، بل تعجبًا وطلبًا لمعرفة الكيفية أمام مشهد استولى عليه الخراب.

قد يؤمن الإنسان بالحقيقة في أصلها، ثم يقف أمام حجم الدمار فيسأل: كيف تعود الحياة من هنا؟

وهذا السؤال لا يخص القرى الميتة وحدها. قد ينظر المرء إلى وطن تهدم، أو مشروع انطفأ، أو قلب أكلته الخسارات، فيقول: أنّى تحيا هذه الأشياء بعد موتها؟

مئة عام بين الموت والبعث

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾.

حوّله الله نفسه إلى جزء من الجواب. بدل أن يرى برهان الإحياء خارجه فقط، عاش الموت ثم أُعيد.

مئة عام مرت على العالم، ولم يشعر بها. الزمن الذي يبتلع أعمار الأحياء لم يكن في شعوره إلا لحظة غياب.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

قاس الزمن بإحساسه، لا بحقيقته. وهكذا يتبين أن الشعور البشري ليس مقياسًا مطلقًا للزمن. قد تمر ساعة ألم كأنها سنة، وسنة غفلة كأنها يوم.

﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

الحقيقة خارج إحساسه كانت أوسع. وكثير مما نظنه يقينًا ليس إلا تقديرًا صنعته حدود تجربتنا.

طعام لم يتسنه وحمار صار عظامًا

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾.

حفظ الله طعامه وشرابه من التغير مئة عام، بينما مات حماره وبلي. في موضع واحد جرت سنّتان مختلفتان: شيء بقي، وشيء تحلل.

ليست القوانين الطبيعية قوةً مستقلة تفرض نفسها على الله؛ هو خالقها، يجريها عادةً، ويخرقها آيةً حين يشاء.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾.

لم يعد طالب جواب فحسب؛ صار هو نفسه جوابًا يمشي بين الناس. بعض المعرفة يدخل حياتك حتى تتحول أنت إلى شاهد عليها.

وانظر إلى العظام كيف ننشزها

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

أراه الله عظام حماره وهي تُرفع ويضم بعضها إلى بعض، ثم تكسى لحمًا، ثم تعود إليها الحياة.

العظام التي بدت بلا علاقة بالحركة تجمعت، واللحم الذي تلاشى عاد، والحياة دخلت الجسد بأمر الله.

ما نراه نهايةً ليس نهايةً في قدرة الله. التحلل يغير صورة المادة، لكنه لا يخرج ذراتها من علم الخالق.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

كان يعلم قدرة الله إيمانًا، ثم صار يعلمها مشاهدةً في هذا الوجه. المعرفة درجات؛ خبر، ودليل، ومعاينة.

والآية لا تذم انتقاله إلى مزيد من اليقين، بل تجعل تجربته آية. ليس السؤال الصادق عدو الإيمان؛ قد يكون طريقًا إلى عمقه.

إبراهيم يسأل: كيف تحيي الموتى؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾

إبراهيم الذي حاج الملك بالإحياء والإماتة يسأل الآن عن **الكيفية**.

لم يقل: هل تحيي الموتى؟ فهو مؤمن بالقدرة. قال: **كيف**؛ يريد انتقال العلم من يقين الخبر إلى طمأنينة المشاهدة.

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾.

سؤال يظهر الفرق بين الشك في أصل الحقيقة وطلب زيادة الطمأنينة.

قال إبراهيم: **﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**.

الإيمان موجود، لكن القلب يطلب سكونًا أعمق. فاليقين ليس درجةً واحدة، وقد يزداد المؤمن إيمانًا مع أنه كان مؤمنًا قبل الزيادة.

في هذا تكريم لحاجة القلب إلى الطمأنينة. ليس كل طلب للبرهان مرضًا، ولا كل سؤال علامة شك. العبرة بباعثه: هل يسأل ليهرب من الحق، أم ليزداد قربًا منه؟

بنو إسرائيل قالوا: ﴿**لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾، فجعلوا الإيمان مشروطًا بما اقترحوه. أما إبراهيم فقال: ﴿**بَلَىٰ**﴾ أولًا، ثم طلب أن يرى كيف.

الفرق بين السؤالين هو الفرق بين قلب يطلب حجةً ليرفض، وقلب مؤمن يطلب نورًا ليطمئن.

أربعة من الطير

﴿**قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾

أمره الله أن يأخذ أربعة طيور، ويضمهن إليه ويعرفهن، ثم يقطعهن ويجعل أجزاءهن على جبال متفرقة، ثم يدعوهن.

تفرقت الأجزاء، لكن النداء الإلهي جمع كل جزء إلى صاحبه، وعادت الطيور تسعى إلى إبراهيم.

الذي لا تختلط عليه أجزاء الطيور المتفرقة لا تختلط عليه أجساد البشر إذا صارت ترابًا في الأرض والبحر.

نحن نعجز عن إعادة ورقة تمزقت واختلطت بآلاف الأوراق، لأن علمنا محدود وقدرتنا محدودة. أما الله فيعلم كل ذرة أين ذهبت، ولمن كانت، وكيف يعيدها.

﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

لم تعد الطيور حياةً بطيئة مترددة، بل جاءت مسرعة. القدرة التي أنشأتها أول مرة أعادتها بلا عناء.

ثم قال: **﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**.

عزيز لا يعجزه جمع المتفرق، حكيم لم يجعل المشهد استعراضًا للقوة، بل تعليمًا يضع الطمأنينة في قلب خليله ويقيم الحجة للأجيال.

من آية الكرسي إلى طمأنينة إبراهيم

بدأ هذا الفصل بذكر الرسل، ثم ارتفع إلى آية الكرسي، ثم عاد إلى مشاهد بشرية تواجه قضايا الملك والموت والبعث.

وهذا البناء ليس متفرقًا: الملك جادل إبراهيم لأن النعمة أوهمته أنه يملك الحياة.

فكشفت آية الكرسي أن **له ما في السماوات وما في الأرض**.

والرجل رأى قريةً ميتةً فاستبعدت عينُه طريق عودتها.

فكشفت الآية أن الله **الحي القيوم**.

وإبراهيم طلب طمأنينة القلب في كيفية البعث.

فأراه الذي **لا يؤوده حفظهما** أن جمع الأجزاء لا يثقله.

كل المشاهد تعود إلى المركز نفسه: الله وحده هو الحقيقة التي تقوم بها بقية الحقائق.

إذا عرفه القلب حيًا قيومًا، لم يعبد قوةً زائلة.

وإذا عرف علمه المحيط، لم يستبعد جمع المتفرق.

وإذا عرف ملكه، لم يجعل لوساطة مخلوق سلطانًا مستقلًا.

وإذا عرف علوه وعظمته، عاد كل خوف بشري إلى حجمه.

لكن المعرفة بالله لا ينبغي أن تبقى رهبةً في القلب وحده. ستظهر الآن في المال. فالذي يؤمن بأن الله حي قيوم، وأن له ما في السماوات والأرض، وأن إليه الرجوع؛ ماذا يصنع بما في يده؟

هل يمسكه خوفًا من الفقر، أم يضعه في يد المحتاج واثقًا أن ما عند الله لا يضيع؟

سيأتي المثل: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ**﴾.

فبعد أن رأينا الطيور الميتة تعود إلى الحياة، سنرى المال الخارج من اليد يُدفن كالحبة، ثم يعود سنابل مضاعفة.

إن يد الله التي تحيي الموتى هي نفسها التي تنمي الصدقات.

الفصل التاسع عشر

الصدقة: حين تتحول الحبة الواحدة إلى بستان

المال الذي يخرج من اليد ولا يخرج من الملك

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

لا يبدأ القرآن حديث الإنفاق بصورة الفقد، بل بصورة الزرع.

فالمال الذي يخرج في سبيل الله لا يُلقى في فراغ، بل يوضع في تربة الغيب كحبة. قد تختفي الحبة تحت التراب، فيظن من لا يعرف قوانين الزرع أنها ضاعت، بينما تكون في الخفاء قد بدأت رحلة التكاثر.

هكذا الصدقة: تراها العين نقصًا في الرصيد، ويراها الإيمان ميلادًا لرصيد آخر.

﴿حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾.

لم تعد الحبة حبتين، بل تحولت إلى سبع سنابل.

﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾.

سبعمائة ضعف، ثم لا يقف الفضل عند هذا العدد: **﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**.

فالأرقام تقرّب المعنى، لكن فضل الله أوسع من أن تحصره آلة الحساب. قد يضاعف بحسب إخلاص القلب، وحاجة الفقير، وطيب المال، وخفاء الصدقة، ووقت الشدة، وأثر العطاء الذي يمتد إلى غير صاحبه.

درهم يخرج في وقت لا يملك فيه صاحبه إلا القليل قد يزن مالًا كثيرًا خرج من فائض لا يشعر به الغني.

والإنفاق ﴿**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾؛ فهذا هو الذي يمنح الحبة تربتها الصالحة. ليس كل مال يُدفع صدقةً مقبولة؛ قد يُنفق للسمعة أو العصبية أو تقوية الباطل.

ثم ختمت الآية باسمين: ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

واسع الفضل، فلا تخف أن تنفد خزائنه.

عليم بالنية، فلا تظن أن ضخامة العطاء تحجب فساد الباعث.

الناس يرون حجم الحبة، والله يعلم سرها.

المنّ: اليد التي تسترد ما أعطت بالكلمة

﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾

لم تكتف الآية بسلامة لحظة العطاء، بل راقبت ما يأتي **بعدها**: ﴿**ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ**﴾.

قد تنجو الصدقة ساعة خروجها، ثم يلاحقها صاحبها بالمن حتى يجرحها. يظل يذكر الفقير بما فعل، أو يحدث الناس عنه، أو يطالبه بولاء دائم مقابل مساعدة انتهت.

إن بعض العطاء يحرر المحتاج من حاجة يوم، ثم يستعبده لصاحبه أعوامًا.

والمنّ أن يرى المعطي أن له يدًا عاليةً على الآخذ، فيضخم عطيتَه حتى تصغر كرامة المحتاج أمامها. وقد نسي أن الله هو الذي منّ عليه بالمال وبالتوفيق إلى الإنفاق.

مَن صاحب المنّة الحقيقي؟ أنت الذي نقلت جزءًا مما رُزقت، أم الله الذي أعطاك الأصل والقدرة والفرصة؟

﴿وَلَا أَذًى﴾.

الأذى أوسع من المنّ: كلمة جارحة، أو نظرة احتقار، أو كشف لحاجة الفقير، أو تصويره في لحظة ضعفه، أو إلزامه بإظهار الشكر أمام الناس.

قد يحتاج الفقير إلى المال، لكنه لا يحتاج أن يدفع كرامته ثمنًا له.

وكم تكون الصدقة قاسيةً حين تتحول معاناة المحتاج إلى مشهد دعائي للمعطي! يريد أن يستر جوعه، فيأتي من يطعمه ثم يكشفه لآلاف العيون.

القرآن يريد مالًا يصل إليه، وستارًا يبقى عليه.

ثم يأتي الوعد: **﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**.

ما دامت الصدقة لم تُسترد بالمن، فهي محفوظة عند الرب.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أنفقوا مما يخاف الناس فقده، فأمنهم الله من الخوف والحزن. كأن الصدقة لم تأخذ من أمنهم، بل نقلته من المال المتقلب إلى وعد الله الثابت.

كلمة طيبة خير من مال يجرح

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

قد لا تملك أن تعطي السائل، لكنك تملك ألا تكسره.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾؛ اعتذار رقيق، أو دعاء صادق، أو توجيه إلى باب آخر، أو كلمة تحفظ ماء الوجه.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾؛ ستر وتجاوز عما قد يصدر من السائل من إلحاح أو خشونة سببتها الحاجة.

إن المحتاج لا يأتيك دائمًا في أجمل حالاته النفسية. قد يكون الجوع قد أضعف صبره، أو أذله تكرار الرفض. فلا تجعل سوء عبارته مبررًا لإهانته.

ثم يعلن القرآن مقياسًا مدهشًا: الكلمة الطيبة بلا مال خير من مال يتبعه أذى.

ليس المال خيرًا بذاته مهما فعل بصاحبه. إذا اشترى رغيفًا وحطم روحًا، فقد أنقذ الجسد لحظةً وأصاب الكرامة بجرح.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

غني عن صدقة يفسدها صاحبها، فلا يظن المعطي أنه دعم ملك الله. وحليم لا يعجل على من أساء، فليتعلم العبد من حلم ربه، ولا يبطش بالسائل لأنه قدر على رده.

لا تبطلوا صدقاتكم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

نسب الصدقات إليهم: **﴿صَدَقَاتِكُمْ﴾**، ثم حذرهم من إبطال ما تعبوا في إخراجه.

العمل قد يقع ثم يبطل أجره. ليس كل ما انتهى في الظاهر قد نجا في الميزان؛ قد تأتي كلمة بعده فتحرقه.

والمنّ والأذى يشبهان الرياء في أن مركز العمل ينتقل من الله إلى الذات. المانّ يريد أن يظل العطاء شاهدًا على عظمته، والمرائي يقدمه ابتداءً ليصنع صورةً في عيون الناس.

﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾.

لم يُنفق لأن المحتاج إنسان، ولا لأن الله أمر، بل لأن عيونًا ستراه. الجمهور هو إله اللحظة الذي يريد رضاه.

وقد يصنع الرياء أعمالًا ضخمة؛ فليس دليله صغر الفعل، بل خلوص الوجهة. وربما بنى صاحبه مستشفى، لكنه كان يبني في الوقت نفسه تمثالًا لاسمه داخل الذاكرة العامة.

الناس ينتفعون بالبناء، لكن صاحبه قد لا يجد عند الله ما ظنه، إن خلا قلبه من الإيمان والإخلاص.

صفوان عليه تراب فأصابه وابل

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

يرسم القرآن مشهدًا دقيقًا: حجر أملس غطته طبقة خفيفة من التراب. بدا للناظر أرضًا تصلح للزرع، لكن تحت التراب صخر لا يحتفظ بجذر.

نزل مطر غزير، وكان المتوقع أن يحيي الأرض، فإذا به يجرف التراب ويكشف الحقيقة: **﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾**؛ أملس عاريًا لا شيء عليه.

الصدقة المرائية تشبه ذلك التراب. لها هيئة العمل الصالح، لكنها لا تجد في القلب تربة إخلاص تمسكها. فإذا جاء يوم الحساب انكشف الحجر.

المطر الذي ينبت الأرض الخصبة هو نفسه الذي يكشف الصخر. وكذلك الوحي والابتلاء: يزيدان القلب الصادق حياةً، ويكشفان ما أخفاه القلب الخالي.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

سمّاه كسبًا في الظاهر، لكنهم لا يملكون من ثوابه شيئًا. أنفقوا المال، ونالوا ربما مدح الناس، ثم انتهى الأجر عند الحد الذي قصدوه.

مَن عمل للناس أخذ منهم ما استطاعوا إعطاءه؛ كلمة إعجاب أو صورة مكانة. لكنهم لا يملكون أن ينقلوا معه شيئًا إلى الآخرة.

جنة بربوة أصابها وابل

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾

في مقابل الحجر الأملس بستان مرتفع.

﴿بِرَبْوَةٍ﴾؛ أرض عالية جيدة التهوية والتعرض للشمس والمطر، مستعدة للإنبات.

هذه تربة القلب المخلص.

﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾؛ هذه وجهته.

﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ ينفقون عن يقين وبصيرة، ويثبتون أنفسهم على الطاعة، لا يدفعون المال ثم تظل قلوبهم مترددةً نادمة.

الصدقة لا تطهر المحتاج من الفقر وحده؛ تطهر المعطي من شح النفس. كل مرة يفتح يده يثبت في داخله أن الله أحب إليه من المال، وأن الآخرة أصدق من الخوف العاجل.

جاء المطر الغزير: ﴿**فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**﴾.

تربة صالحة وماء غزير، فجاء الثمر مضاعفًا. الإخلاص يجعل العمل قابلًا للنماء، والفضل الإلهي ينزل عليه فيحمل فوق حجمه.

ثم قال: ﴿**فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾.

حتى المطر الخفيف يكفيها؛ لأنها أرض خصبة. وكذلك المؤمن المخلص: إن لم يملك الكثير، نفعه القليل. لا يحتاج عمله إلى ضخامة ظاهرة حتى يثمر؛ قد تكفي ابتسامة أو شق تمرة أو كلمة صادقة.

القلب الصالح يجعل القليل كثير الأثر.

﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾.

يرى الصخرة تحت التراب، والجنة فوق الربوة. لا تخدعه هيئة العمل، ولا يخفى عليه سر الإخلاص.

شيخٌ احترق بستانه حين اشتدت حاجته إليه

﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**﴾

هذه ليست صورة خسارة مال فحسب، بل خسارته في أسوأ وقت ممكن.

رجل له جنة عامرة بالنخيل والأعناب، والماء يجري تحتها، وفيها من كل الثمرات. ثم بلغ الكبر، وضعفت قدرته على العمل، وله أطفال أو ذرية ضعفاء يعتمدون عليه.

في هذه اللحظة التي صار البستان فيها حياته ومستقبل أبنائه، جاء إعصار يحمل نارًا فأحرقه.

كيف يكون شعوره؟

هذه هي حسرة من يأتي يوم القيامة بأعمال ظنها بساتين، ثم يجد أن الرياء والمنّ والأذى أحرقتها، في وقت لا يستطيع أن يعود فيه ليزرع من جديد.

في الدنيا يمكن أن تحترق تجارة ثم يبدأ الإنسان أخرى، أما احتراق العمل في الآخرة فيقع بعد انتهاء موسم الزرع.

كلنا ذلك الشيخ من جهة ما: سنأتي يومًا ضعفاء لا نملك أن نضيف حسنةً واحدةً بأنفسنا، ونحتاج إلى كل عمل قدمناه. فكيف إذا وصلنا فوجدنا ما زرعناه رمادًا؟

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

لا يريد القرآن أن يخيفنا من العمل، بل أن يحمينا من النار التي نضعها داخله بأيدينا. التفكر قبل الإنفاق يحفظ الحديقة من الإعصار.

أنفقوا من طيبات ما كسبتم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾

لا يكفي أن تعطي؛ ينبغي أن تنظر إلى ما تعطيه.

﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

من المال الحلال الجيد الذي ترضونه لأنفسكم، لا من الرديء الذي تريدون إخراجه من بيوتكم.

وذكر الكسب؛ لأن الإنسان يتعلق بما تعب فيه أكثر، فيكون الإنفاق منه امتحانًا أصدق.

ثم قال: **﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾**.

نسب الكسب إليهم في الأول، والإخراج إلى الله في الثاني، ليجمع بين جهد الإنسان وفضل ربه. أنت حرثت وزرعت، لكن من أنبت؟ ومن حمل البذرة على أن تنشق؟ ومن أنزل الماء؟

لا يلغي الوحي كسبك، لكنه يمنعه من أن يحجب عنك المنعم.

لا تيمموا الخبيث منه تنفقون

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾

لا تقصدوا الرديء من المال والثمر فتجعلوه نصيب الفقير.

قد يقول الإنسان: أعطيت، لكن ما أعطاه كان شيئًا لا يريد الاحتفاظ به أصلًا. حوّل المحتاج إلى مستودع يتخلص فيه من فضلاته، ثم طلب ثواب الكرم.

يضع القرآن أمامه مرآةً بسيطة:

هل كنت ستأخذ هذا الشيء لو قُدم لك وفاءً بحقك؟

﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾؛ إلا أن تتساهلوا عن عيبه حياءً أو تنزلًا.

فلماذا ترضون لله وللفقير ما لا ترضونه لأنفسكم؟

المحتاج لا يفقد ذوقه لأنه فقير، ولا تتحول كرامته إلى شيء زائد عن حاجته. قد يأخذ الرديء لأنه مضطر، لكن اضطراره لا يجعل فعلك جميلًا.

ثم قال: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾**.

غني عن الرديء والجيد وعن إنفاقكم كله، حميد مستحق للحمد في ذاته وأفعاله. إنما يعود نفع الصدقة إليكم.

حين تختار الخبيث للصدقة، فأنت لا تنقص خزائن الله؛ تكشف مقدار تعظيمك له.

الشيطان يعدكم الفقر

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾

قبل الصدقة يبدأ صراع داخلي. تمسك يدك المال، ويأتيك صوت: ماذا لو احتجت؟ ماذا لو نقص دخلك؟ ماذا لو لم يعوضك أحد؟

سمّى القرآن ذلك **وعدًا** من الشيطان. هو لا يخبرك فقط باحتمال، بل يصنع في خيالك مستقبلًا مخيفًا كأنه واقع حتمي.

الشيطان لا يملك خزائن الغد، لكنه يتحدث عنها بثقة كي يمسك يدك.

ولا يعني هذا أن التخطيط للمستقبل مذموم؛ الادخار للأهل والحاجات مشروع. الفرق بين التخطيط والخوف الشيطاني أن الأول يوازن الحقوق، والثاني يضخم احتمال الفقر حتى يلغي حق الله وحق المحتاج.

﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

ومن الفحشاء الشح والبخل وسائر المعاصي. يبدأ بوعد الفقر، ثم يأمر بالمنع، وربما يقود الإنسان إلى الكسب الحرام بحجة تأمين المستقبل.

الخوف إذا لم يهده الإيمان قد يصنع الجريمة التي أراد صاحبها أن يحمي نفسه منها.

والله يعدكم مغفرةً منه وفضلًا

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

أمام وعد الشيطان وعد الله.

الشيطان يعدك الفقر إذا أعطيت.

والله يعدك المغفرة والفضل إذا صدقت.

لكن أي الوعدين يملك صاحبه الغد؟

﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾؛ تمحو الذنوب التي هي أفقر ما يأتي به الإنسان إلى الآخرة.

﴿وَفَضْلًا﴾؛ زيادة في الدنيا أو الآخرة على الوجه الذي يختاره الله. وليس وعد الفضل معناه أن كل متصدق سيسترد المال فورًا بالمقدار نفسه؛ فقد يكون الفضل بركةً، أو دفع بلاء، أو غنى قلب، أو أجرًا مدخرًا.

المؤمن لا يتعامل مع الصدقة كصفقة مالية عاجلة يجرب بها الله، بل يثق أن الوعد حق، ويترك صورة الوفاء لحكمة الواعد.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

واسع فلا يضيق عطاؤه بما أعطاك، وعليم بما تحتاج إليه فعلًا، لا بما تظنه أنت وحده حاجتك.

الحكمة: الخير الكثير الذي لا يلمع كالأموال

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

وسط آيات المال تأتي الحكمة؛ لأن الإنسان لا يحسن الإنفاق بالمال وحده. يحتاج إلى معرفة أين يعطي، ومتى، وكم، وكيف يحفظ كرامة المحتاج، وكيف يوازن بين الحقوق.

وقد يفسد مال كثير بسبب قلة الحكمة، وينفع مال قليل وضعته بصيرة في موضعه.

الحكمة علم نافع وفهم في الدين ووضع للشيء في موضعه، وهي من أعظم عطايا الله.

﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ربما لا يملك الحكيم ثروةً ضخمة، لكن الله سماه صاحب خير كثير. فالخير لا يُقاس بما في الخزانة فقط؛ فكرة صائبة قد تنقذ عمرًا، وكلمة في وقتها قد تمنع بيتًا من الانهيار، وقرار حكيم قد يحمي أمةً من فتنة.

المال يشتري أدوات، والحكمة تعرف ما ينبغي أن يُفعل بها.

كم من غني يملك الوسائل ولا يعرف الغاية، وكم من صاحب علم يعرف الطريق وإن قل ما في يده!

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

العقل الخالص يدرك أن الحكمة خير من المال المجرد؛ لأن المال بلا حكمة قد يمول هلاك صاحبه.

كل نفقة ونذر في علم الله

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

لا تضيع نفقة صغيرة ولا كبيرة. ويعلم الله النذر الذي ألزمه الإنسان نفسه بطاعة مشروعة، فيجب عليه الوفاء بنذر الطاعة، مع أن ابتداء النذر مكروه عند كثير من أهل العلم؛ لأنه لا يأتي بخير لم يُقدره الله، وقد يحمّل الإنسان نفسه ما يعجز عنه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

مرة أخرى يجعل العلم موضع الجزاء والرقابة. يعلم مقدار المال، ومصدره، والنية، والطريقة، وما إذا كان المنفق قد وفى أو تراجع.

أما الظالمون الذين يمنعون الحقوق أو ينفقون رياءً أو ينذرون المعصية:

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

المال الذي ظنوا أنه ناصرهم لن يجدوه نصيرًا حين يحتاجون إليه.

إن تبدوا الصدقات فنعما هي

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾

إظهار الصدقة قد يكون حسنًا إذا قصد صاحبه تشجيع الناس، أو كان في الإعلان مصلحة للمشروع، أو كانت زكاةً ظاهرةً تحفظ النظام والثقة.

ليس كل إعلان رياءً؛ الأعمال بالنيات. قد يخفي إنسان صدقته وهو معجب بإخفائه، ويعلن آخر صدقته وقلبه مخلص يريد أن يفتح بابًا يقتدي به الناس.

الظاهر لا يحكم وحده على الباطن.

﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾؛ أثنى على الصدقة المعلنة في موضعها، حتى لا يجعل الناس الإخفاء صنمًا جديدًا يظنون أن كل ما عداه باطل.

وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم

﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

في صدقة التطوع يكون الإخفاء غالبًا أقرب إلى الإخلاص وأحفظ لكرامة الفقير.

الصدقة السرية تحرر المعطي من انتظار الثناء، وتحرر الآخذ من نظر المجتمع. يلتقيان لحظةً تحت ستر الله؛ يد تعطي، ويد تأخذ، ولا يصنع المشهد طبقةً من العار.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

الصدقة لا تزيد الحسنات فقط؛ تمحو من السيئات بفضل الله. كأن المال الخارج يحمل معه شيئًا من أوزار القلب.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

خبير بالصدقة التي لم يرها أحد، وبالسبب الذي جعلك تعلن الأخرى، وبالرياء الذي قد يختبئ حتى داخل هيئة الإخفاء.

ليست عليك هداهم

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

كان بعض المسلمين يتحرجون من الصدقة على أقاربهم غير المسلمين، أو يربطون العطاء بإسلام المحتاج، فنزل البيان: ليس عليك أن تجعل الهداية ثمنًا للطعام.

الصدقة ليست أداة ابتزاز عقدي: آمن أولًا ثم نطعمك. فالفقير إنسان له حاجته، والهداية بيد الله.

النبي ﷺ عليه البلاغ، لا امتلاك القلوب.

وفي الآية تحرير للعطاء من محاولة السيطرة. قد يعطي الإنسان فقيرًا، ثم يطالبه أن يتبنى رأيه وموقفه وجماعته. لم يعد المال رحمةً عندئذ، بل صار حبلًا يشد به إرادة الآخذ.

أعطِ لله، لا لتشتري إنسانًا.

وما تنفقوا من خير فلأنفسكم

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾.

مرة أخرى يقلب القرآن صورة الاتجاه. المال يذهب إلى الآخر، لكن الخير يعود إليك.

أنت لا تنقذ الفقير وحده؛ تنقذ قلبك من الشح.

ولا تسد حاجته فقط؛ تبني لنفسك ظلًا يوم لا ظل إلا ما شاء الله.

ولا تقلل رصيدك؛ تنقله من دار معرضة للفقد إلى دار البقاء.

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾.

هذا خبر بمعنى التوجيه للمؤمنين: ينبغي ألا تنفقوا إلا طلبًا لوجه الله. ونثبت لله وجهًا يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تكييف، كما أثبته لنفسه.

ابتغاء وجه الله يحرر الصدقة من كل غاية أدنى. لا تحتاج أن يحبك الفقير، ولا أن يعلن شكرك، ولا أن يبقى تابعًا لك.

يكفي أن الله قبل.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

يوفى إليكم كاملًا مع المضاعفة، ولا ينقص من أجركم شيء. قد ينسى الفقير اسمك، لكن الله لا ينسى. وقد يسيء إليك بعد عطائك، لكن أجر ما أخلصت فيه لم يكن معلقًا بأخلاقه.

فقراء أحصروا في سبيل الله

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾

تلفت الآية إلى فقراء تفرغوا للجهاد أو العلم والطاعة، أو منعتهم ظروفهم من السفر والتكسب.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لا يقدرون على الانتشار في طلب الرزق، لا كسلًا بالضرورة، بل لحبس مشروع أو عجز معتبر.

الفقر ليس دائمًا نتيجة تقصير. قد يكون الإنسان مجتهدًا، لكن الحرب أو المرض أو خدمة عامة منعته من فرص الكسب. والمجتمع العادل لا يهين الفقير بتفسير أخلاقي جاهز لمعاناته.

قبل أن تقول له: اعمل، اسأل: هل الطريق إلى العمل مفتوح له أصلًا؟

يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾

هناك فقر يصرخ، وفقر يصمت حتى يظنه الناس غنى.

يتعفف صاحبه عن السؤال، ويحفظ مظهره، وربما يبتسم في المجلس بينما يعود إلى بيت لا يجد فيه كفايته.

سمّى من لا يعرف حالهم **جاهلًا**؛ ليس ذمًا أخلاقيًا بالضرورة، بل لأنه جهل باطنهم بسبب تعففهم.

وهؤلاء أشد احتياجًا إلى بصيرة المجتمع. المحتاج الذي يسأل يصل صوته، أما المتعفف فقد يسقط بين فجوات نظام الصدقة لأنه لا يمد يده.

المجتمع الرحيم لا ينتظر دائمًا أن يأتيه الجوع معلنًا نفسه؛ يبحث عنه في البيوت المستورة.

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾.

للفقر علامات يقرأها صاحب البصيرة: ثوب يتكرر، واعتذار دائم عن المناسبات، وتعب يخفيه الوجه، وحذر شديد في المصروف.

لا يقتحم سترهم ولا يتجسس، لكنه ينتبه.

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

لا يلحون في السؤال، وقد لا يسألون أصلًا. كرامتهم تمنعهم، لكن كرامتهم لا ينبغي أن تحرمهم من حقهم.

خير العطاء ما يصل إلى المتعفف قبل أن يضطر إلى كسر صمته.

الليل والنهار، السر والعلانية

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

تُختم رحلة الصدقة بإحاطة الأزمنة والأحوال:

بالليل والنهار؛ كل وقت يمكن أن يكون وقت خير.

سرًا وعلانيةً؛ كل طريقة مشروعة بحسب الحكمة والنية.

ليس الكرم موسمًا يزور الإنسان ثم يغادر. يصبح الإنفاق خُلُقًا جاريًا، يستجيب للحاجة حين تظهر، لا حين تأتي مناسبة التصوير.

والمنفق الحكيم لا يتعصب لصورة واحدة. يخفي حيث الإخفاء أحفظ، ويعلن حيث الإعلان أنفع. المهم أن يبقى القلب لله.

ثم يعود الوعد للمرة الثالثة:

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

في أول المقطع أُعطي هذا الوعد لمن أنفق بلا من ولا أذى، وفي ختامه لمن جعل الإنفاق ممتدًا في الليل والنهار.

أنفقوا مالًا كانوا يخشون عليه، فأعطاهم الله أمانًا من خوف المستقبل وحزن الماضي.

هكذا تعيد الصدقة بناء معنى الملكية. لم يعد المال جدارًا يحمي الإنسان من الفقر، بل أمانة يفتح بها أبواب الأمان الحقيقي.

لكن في الطرف المقابل من حركة المال يقف نظام آخر: لا يعطي المحتاج، بل يقرضه ثم يجعل حاجته سلّمًا إلى زيادة مضمونة. لا يرى في ضيقه موضع رحمة، بل فرصة ربح.

إنه **الربا**.

الصدقة تقول للمحتاج: خذ لأن ألمك وصل إليّ.

والربا يقول له: سأعطيك، لكن ألمك سيجعلني أملك من غدك أكثر.

الصدقة تنمّي المال عند الله وهي ترفق بالإنسان.

والربا يزيد الرقم في الأرض وهو يمحق البركة والرحمة.

ومن هنا ستنتقل السورة من صورة الجنة التي تنبت ضعفَين إلى صورة الإنسان الذي يقوم يوم القيامة كمن يتخبطه الشيطان من المس.

الفصل العشرون

الربا: حين تتحول حاجة الإنسان إلى سلعة

القيام المضطرب بعد حياةٍ اختل فيها الميزان

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾

لم يقل القرآن: الذين يأخذون الربا فقط، بل قال: ﴿**يَأْكُلُونَ**﴾.

لأن المال الربوي لا يبقى رقمًا في السجلات؛ يتحول إلى طعام ولباس ومسكن، ويدخل في تكوين حياة صاحبه. كأن الإنسان لا يأكل خبزًا فحسب، بل يأكل من تعب المدين وحاجته وقلقه.

والربا زيادة مشروطة على الدَّين في مقابل الزمن، أو ما ورد النص بتحريمه في مبادلة الأموال الربوية. وفي جوهره الأخلاقي يتحول احتياج الإنسان إلى فرصة يضمن بها صاحب المال لنفسه زيادةً من غير مشاركة حقيقية في احتمال الخسارة.

المدين يتحمل خطر الحياة.

والدائن الربوي يطالب بالزيادة سواء نجح المدين أو فشل.

فإذا تعثر، زاد عليه الزمن دينًا فوق دين، حتى يصبح المستقبل كله مرهونًا لمبلغ أخذه في لحظة حاجة.

ثم يرسم القرآن مآل آكل الربا: ﴿**لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾.

يقومون يوم القيامة قيامًا مضطربًا مختلًا، كحال المصروع الذي لا تستقيم له حركة. ونثبت ما أثبته القرآن من مس الشيطان على الوجه الذي دل عليه، من غير مبالغة ولا رد للحقيقة.

هذا القيام المضطرب يناسب حياةً اقتصادية أقيمت على اضطراب أخلاقي. فقد أراد المرابي زيادةً مضمونةً لا تهتز، فجاء يوم القيامة بلا قدرة على القيام المستقيم.

إن الربا لا يربك حياة فرد واحد؛ حين يتحول إلى نظام، يربط الاقتصاد كله بديون تتكاثر، ويجعل المال يلد مالًا بعيدًا عن إنتاج حقيقي، وينقل الثروة من المحتاجين إلى مَن يملكون أصلًا قدرة الإقراض.

تزداد الأرقام، لكن التوازن الإنساني يختل.

إنما البيع مثل الربا

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾

لم يقولوا: الربا مثل البيع، بل قلبوا القياس: **﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾**.

جعلوا الربا أصلًا مألوفًا، ثم قاسوا البيع عليه. وهذه علامة على انقلاب المعيار؛ يصبح الانحراف من شدة الاعتياد مركزًا يُقاس به الصحيح.

قالوا: كلاهما يحقق زيادةً في المال، فلماذا يُباح ربح التجارة ويحرم ربح الدين؟

نظروا إلى النتيجة الرقمية، وتركوا طبيعة العلاقة.

في البيع سلعة أو منفعة، وتراضٍ، واحتمال ربح وخسارة، وحركة حقيقية في الاقتصاد. يشتري التاجر ويتحمل خطر الكساد والتلف وتغير السعر، ويقدم للمشتري شيئًا ينتفع به.

أما في الربا المحرم، فالزيادة مشروطة على أصل الدَّين لمجرد الأجل، ويتحمل المدين غالبًا العبء الأكبر، ويظل رأس المال يطالب بالنماء ولو لم يُنتج المدين شيئًا.

ليس كل ارتفاع في الرقم سواءً، كما أن جرح الجراح ليس كجرح المعتدي لمجرد أن الدم خرج في الحالتين. الأخلاق تنظر إلى الطريق، لا إلى الصورة النهائية وحدها.

وأحل الله البيع وحرم الربا

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

جاء الرد مختصرًا حاسمًا.

الله هو المالك والحكيم، وقد فرّق بينهما. وما فرّق الله بينه لا يجمعه تشابه سطحي في بعض النتائج.

﴿أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾.

الإسلام لا يحارب التجارة ولا الربح. السوق في ذاته ليس موضع رجس، بل يمكن أن يكون ساحة أمانة وعمران ورزق.

و﴿حَرَّمَ الرِّبَا﴾.

فالحرية الاقتصادية ليست حقًا في أن يفعل المال كل ما يستطيع فعله. حين تتحول قوة المال إلى أداة تستنزف الضعيف، يتدخل الوحي ليضع الحد.

إن التحريم لا يصدر عن عداء للثراء، بل عن حماية الإنسان من أن يصبح المال إلهًا يشرع لنفسه.

وقد تتغير أسماء العقود، لكن العبرة بحقائقها. لا يصير الربا حلالًا لأن الورقة سمته رسمًا أو عائدًا أو فائدة، كما لا يصير البيع حرامًا لمجرد وجود ربح.

الفقه ينظر في حقيقة المعاملة: ما الذي جرى؟ وما المقابل؟ ومن يتحمل الخطر؟ وهل الزيادة ناتجة من عقد مشروع أم من قرض جر نفعًا مشروطًا؟

ولهذا تحتاج المعاملات المالية المعاصرة إلى فقه دقيق، لا إلى أحكام مرتجلة من تشابه الأسماء، ويُرجع فيها إلى أهل العلم المتخصصين بالفقه والاقتصاد.

فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾

لم يغلق القرآن الباب في وجه من تعامل بالربا قبل بلوغ التحريم أو قبل علمه به. إذا جاءته الموعظة فانتهى، فله ما سبق قبضه قبل التحريم أو قبل التوبة على ما تدل عليه الآية، ولا يطالب برد ما مضى في تلك الحال، وأمره إلى الله.

﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

حتى التحريم موعظة من الرب؛ ليس مادة قانونية باردة، بل نداء يريد إنقاذ القلب والمجتمع.

﴿فَانْتَهَىٰ﴾.

العلامة الصادقة لوصول الموعظة هي التوقف. ليست المعرفة أن يقتنع الإنسان بحرمة الربا ثم يبقى يبحث عن اسم آخر للعقد نفسه.

قد يقول: فهمت الحكم، لكن ظروفي مختلفة. فإن كانت ضرورةً حقيقية أو معاملةً مشتبهة فلها بحثها عند العلماء، أما أن تتحول «الظروف» إلى باب دائم لتجاوز كل حكم، فالموعظة لم تبلغ موضع القرار.

﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾.

الشريعة لا تريد أن تفتح بالتوبة فوضىً لا تنتهي في العقود الماضية التي سبقت البيان، وإنما تقطع طريق الربا من اللحظة التي جاء فيها الحكم.

﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

لا نزكي باطنه لمجرد أنه أعلن التوقف؛ الله يعلم صدق توبته وما بقي في نفسه من تعلق.

ومن عاد فأولئك أصحاب النار

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

من عاد مستحلًا للربا مكذبًا بحكم الله بعد البيان استحق هذا الوعيد بالخلود، أما المسلم الذي يقع في الربا مع اعترافه بالتحريم فهو مرتكب لكبيرة عظيمة تحت مشيئة الله، لا يُحكم بخلوده في النار ما دام على التوحيد.

وهذا التفصيل يحفظ أصل عقيدة أهل السنة: لا نهوّن الكبيرة، ولا نكفّر المسلم بكل ذنب.

لكن مجرد بقاء صاحبه في دائرة الإسلام لا يجعل الربا أمرًا صغيرًا. يكفي أن الله توعد عليه بما لم يتوعد به على كثير من المعاصي.

فالإنسان قد يبقى مسلمًا في الاسم، لكنه يحمل في صحيفته حربًا أعلنها عليه ربه إن لم يتب.

يمحق الله الربا ويربي الصدقات

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾

المحق إزالة الشيء ونقص بركته حتى يتلاشى أثره.

في الظاهر، الربا يزيد، والصدقة تنقص. يخرج من يد المتصدق مال، ويدخل إلى حساب المرابي مال إضافي.

لكن الميزان الإلهي يقلب الصورة:

الربا ممحوق.

والصدقة نامية.

قد يكثر المال الربوي رقمًا ويأتي معه قلق ومرض وعداوات وتفكك وفقد للبركة. وقد ينتقل بين الورثة فيكون سبب خصام أو هلاك.

وليس المحق محصورًا في صورة واحدة نراها فورًا؛ قد يؤخر الله أثره، وقد يظهر في الدنيا أو يُستوفى في الآخرة.

أما الصدقة فيربيها الله؛ ينمي أجرها، ويبارك في الباقي، ويحفظ بها قلب صاحبها، وقد يدفع عنه من البلاء ما لا يعلمه.

﴿**يُرْبِي**﴾ من النماء؛ وهو المعنى الذي طلبه المرابي بطريقة محرمة. أراد الزيادة، لكنه اختار الطريق الذي يمحقها. والمتصدق اختار النقص الظاهر، فدخل طريق النماء الحقيقي.

ما أكثر ما يخطئ الإنسان حين يحكم على الأشياء من لحظة الحساب الأولى!

والله لا يحب كل كفار أثيم

﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾

﴿**كَفَّارٍ**﴾ شديد الكفر والجحود، و﴿**أَثِيمٍ**﴾ كثير الإثم.

المرابي يجحد نعمة المال حين يستعملها في استغلال المحتاج، ويتمادى في الإثم حين يجعل زيادة ماله مقدمةً على رحمة الناس وحدود الله.

والله لا يحب هذا الوصف وأهله ما داموا مقيمين عليه. لكن باب التوبة الذي فتحته الآية السابقة قائم؛ فمن تاب خرج من وصف الإصرار وأقبل على رحمة الله.

الإيمان والعمل والصلاة والزكاة

﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾

في مقابل الربا الذي يستنزف المجتمع، تأتي الزكاة التي تعيد إليه التوازن.

إيمان في القلب.

وعمل صالح في الحياة.

وصلاة تصل العبد بالله.

وزكاة تصل الغني بالفقير.

ليس الاقتصاد في القرآن عالمًا منفصلًا عن العبادة. الرجل الذي يقف في الصف ثم يعود إلى مكتبه فيضاعف ديون المحتاجين لم يترك محرابه خارج السوق؛ لقد ترك أثره قبل أن يدخل السوق.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

المرابي يطلب عائدًا مضمونًا عند المدين، والمؤمن يضع عمله عند ربه. الأول يخشى أن يعجز الإنسان عن الوفاء، والثاني يثق بمن لا يخلف الميعاد.

ويتكرر الأمان: **﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

الربا يُبنى ظاهريًا على الخوف من نقص المال، أما الزكاة فتقود إلى الأمان من الخوف والحزن. أي النظامين أكثر أمنًا في الحقيقة؟

اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

لم يقل: لا تعقدوا عقودًا ربوية جديدة فقط، بل: **﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ﴾**.

قد تكون لهم زيادات ربوية مستحقة بعقود سابقة، فأمروا بتركها. التوبة لا تكون مع إبقاء الثمرة المحرمة في الطريق.

إن من أسهل صور التوبة أن يقول المرء: لن أفعل هذا مستقبلًا، مع احتفاظه بكل مكاسب الماضي. لكن بعض التوبات لها كلفة مالية؛ لا تصدق حتى يتنازل الإنسان عن حق موهوم كان القانون أو العرف يمنحه إياه.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ربط ترك الربا بحقيقة الإيمان؛ لأن المال من أشد المواضع التي تظهر فيها سلطة الله على القلب.

من السهل أن تقول إن الله هو الرازق، لكن هل تترك زيادةً مضمونةً حين يقول الله إنها حرام؟

عند المال تخرج العقيدة من الكتب إلى الحسابات.

فأذنوا بحرب من الله ورسوله

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

هذا من أشد الوعيد في القرآن.

من أصر على الربا بعد البيان فليعلم أنه دخل حربًا مع الله ورسوله. وأي طرف يملك الوقوف في هذه الحرب؟

الربا ليس مخالفةً فرديةً محدودة الأثر؛ إنه نظام يحارب الرحمة والعدل، ويجعل المال متسلطًا على الإنسان. لذلك جاء الوعيد بحجم فساده.

لا يعني النص أن الأفراد يشنون حربًا على من وقع في معاملة ربوية، ولا يبيح الاعتداء عليه؛ الأحكام والعقوبات من شأن السلطة الشرعية والقضاء. إنما هو وعيد إلهي يصف خطورة الذنب.

وقد يعيش المرابي في ظاهر النعمة، فلا يرى آثار الحرب فورًا. لكن عدم رؤيته لا يعني أنها لم تبدأ. قد تكون في قلب لا يشبع، أو بركة تُنزع، أو مجتمع تتسع فيه الفجوة حتى يحمل أسباب انفجاره.

ومَن كان الله خصمه، فما الذي يحميه ولو كثرت ممتلكاته؟

وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾.

حتى بعد هذا الوعيد بقي باب التوبة مفتوحًا.

لا تطالبكم الشريعة بالتخلي عن أصل المال الذي أقرضتموه؛ لكم رأس المال، لا زيادة الربا.

وهنا يظهر العدل مع الطرفين:

لا يظلم الدائن بحرمانه من أصل حقه.

ولا يظلم المدين بتحميله الزيادة المحرمة.

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

هذه هي قاعدة الاقتصاد الأخلاقية في جملة قصيرة. لا يأكل الغني حاجة الفقير، ولا يُصادر حق الغني باسم الرحمة.

العدل لا يبني نصرة الضعيف على ظلم صاحب المال، بل يحفظ رأس المال ويمنع الاستغلال.

وقد يطالب بعض الناس بإلغاء حقوق الدائن كلها باسم مكافحة الربا، وهذا ليس ما تقول الآية. الفرق واضح بين أصل الدَّين والزيادة المحرمة.

وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾

هنا تبلغ الرحمة المالية مقامًا عاليًا. إذا عجز المدين عجزًا حقيقيًا، لا يُضغط عليه بما لا يطيق، بل يُمهل حتى تتيسر حاله.

لم يقل: إن كان مدينًا، بل **﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾**. فالمماطل القادر ظالم، ويجوز مطالبته وإلزامه. أما المعسر فلا يجوز معاملته كالمماطل.

العدل يميز بين من لا يريد أن يدفع ومن لا يستطيع أن يدفع. وقد تخلط المؤسسات بينهما لأن الأرقام لا ترى الإنسان خلف الملف.

﴿فَنَظِرَةٌ﴾؛ أي فإمهال واجب إلى وقت الميسرة.

الزمن الذي كان في الربا سببًا لزيادة الدَّين يصبح في الرحمة مساحةً لاستعادة القدرة. هناك يقول المرابي: كلما تأخرتَ زدتُ عليك. وهنا يقول القرآن: إن عجزتَ أمهلتُك.

يا للمسافة بين النظامين!

وأن تصدقوا خير لكم

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

فوق واجب الإمهال يأتي مقام الفضل: أن يسقط الدائن بعض الدَّين أو كله عن المعسر.

ليس هذا واجبًا في كل حال؛ فرأس المال حقه. لكنه **خير** إذا قدر عليه وكان المدين مستحقًا.

قد ينظر الدائن إلى إسقاط الدَّين فيراه خسارة، لكن القرآن يقول: **خير لكم**. ما تركته لله لم يخرج من مصلحتك؛ انتقل إلى مصلحة أعمق وأبقى.

وربما أعاد إسقاط الدَّين إنسانًا إلى الحياة، وأنقذ بيتًا من الانهيار، ومنع مريضًا من ترك علاجه. ما تسميه الأرقام دينًا قد يكون في حياة المدين جدارًا يسد عليه الهواء.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لو علمتم مقدار ما يدخره الله، وما يصنعه العفو في المجتمع، لرأيتم التنازل ربحًا.

اليوم الذي توفى فيه كل نفس ما كسبت

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

تُنقل هذه الآية في قول مشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها من آخر ما نزل من القرآن، وقيل هي آخر آية نزولًا. وما أليقها أن تكون من خواتيم التنزيل: رجوع، وحساب، وعدل.

بعد المال والربا والدَّين، ترفع السورة النظر إلى اليوم الذي ستُقفل فيه جميع الحسابات الأرضية.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾.

اليوم لا يُتقى في ذاته، بل ما يقع فيه من حساب وعذاب. اجعلوا بينكم وبين سوء مصيره وقايةً بالإيمان ورد الحقوق.

﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

قد كان المدين يرجع إلى الدائن، والخصوم يرجعون إلى القاضي، لكن الجميع سيرجع إلى الله. هناك لا يستطيع صاحب نفوذ أن يشتري الحكم، ولا المدين أن يخفي قدرته، ولا الدائن أن يضيف ورقةً مزورة.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾.

التوفية إعطاء كامل بلا نقص. الخير يعود كاملًا، والشر يعود بقدره، إلا أن يعفو الله.

ولم يقل: ما ادعت أو ما كتبت في حساباتها، بل ﴿**مَا كَسَبَتْ**﴾؛ الحقيقة الفعلية للعمل.

﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾.

هذا هو الأمان الأكبر في يوم الخوف: القاضي هو العدل الذي لا ينسى ولا يحابي ولا يخطئ.

قد يهاب الإنسان انكشاف أعماله، لكنه لا يخاف ظلمًا في الحكم. كل حق ضاع في الأرض موجود، وكل حسنة نُسيت محفوظة، وكل دمعة لم يفهمها أحد معلومة.

الربا والصدقة: رؤيتان للإنسان

ليس الفرق بين الربا والصدقة فرقًا بين معاملتين ماليتين فقط؛ بل بين رؤيتين للوجود.

الصدقة ترى المال رزقًا من الله، والفقير أخًا، والحاجة بابًا للرحمة، والزيادة الحقيقية عند الله.

والربا يرى المال قوةً مستقلة، والمحتاج فرصة، والزمن سلعة، والزيادة رقمًا ينبغي أن يتحقق ولو انهار الإنسان تحته.

الصدقة تقول: أعطيتُك لأننا سنقف معًا أمام الله.

والربا يقول: أعطيتُك لأن ضعفك سيعود عليَّ بزيادة.

الصدقة تبني الثقة بين طبقات المجتمع.

والربا يزرع خوفًا صامتًا؛ يشعر المحتاج أن النظام كله ينتظر عثرته لينتزع منه ما بقي.

ولهذا لم يقل القرآن إن الربا مجرد مال حرام، بل أعلن عليه حربًا. إنه يبدل وظيفة المال: من وسيلة للعمران إلى أداة لاستعباد المستقبل.

لكن الشريعة لا تكتفي بتحريم الربا؛ تبني بدائل أخلاقية: بيعًا حلالًا، وقرضًا حسنًا، وإنظارًا للمعسر، وصدقةً تسقط الدَّين، وزكاةً تمنع تراكم الحاجة.

إنها لا تقول لصاحب المال: لا تربح؛ بل تقول له: اربح من طريق يشارك في إنتاج النفع، ولا تجعل مجرد احتياج أخيك ماكينةً تلد لك الزيادة.

وبعد أن وضعت الآيات قاعدة الدَّين والرحمة بالمعسر، ستأتي أطول آية في القرآن لتكتب تفاصيل التعامل المالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

فالرحمة لا تعني ترك الحقوق بلا توثيق، وحسن الظن لا يغني عن الكتابة. قد يكون الطرفان صالحين اليوم، ثم تنسى الذاكرة، أو يموت أحدهما، أو تتغير النفوس.

وسيعلّمنا القرآن أن كتابة الدَّين ليست شكًا في الأخوة، بل حماية لها من أن تفسدها الذاكرة المتنازعة.

الفصل الحادي والعشرون

آية الدَّين: حين صارت كتابة الحق عبادة

أطول آية لأمر يراه الناس صغيرًا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾

أطول آية في القرآن ليست في وصف الجنة، ولا في قصة نبي، ولا في مشهد من مشاهد القيامة؛ إنها في **توثيق الدَّين**.

وكأن طولها يقول: إن الإيمان الذي حلق بك في آية الكرسي إلى عظمة السماوات لا يتركك حين تجلس إلى طاولة صغيرة لتقرض رجلًا مبلغًا من المال.

الله الذي وسع كرسيه السماوات والأرض يحفظ أيضًا حقًا محدودًا بين شخصين.

فليس في الدين شأن كبير يستحق عناية الله وشأن دنيوي صغير لا يدخل تحت هدايته. العقيدة التي لا تنزل إلى العقود تبقى معنىً معلقًا فوق الحياة.

بدأت الآية بنداء الإيمان: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

توثيق الدَّين ليس عملًا إداريًا منفصلًا عن التقوى، بل من مقتضى الإيمان. المؤمن يحفظ حقه وحق أخيه، ولا يضع العلاقة تحت رحمة الذاكرة المتغيرة.

﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾.

لم يحرّم القرآن الاقتراض في ذاته؛ فالناس يحتاج بعضهم إلى بعض، وقد يضيق المال عن حاجة طارئة. لكنه نقل الدَّين من مجال المجاملة الغامضة إلى نظام واضح.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

لا يكفي أن يقول المدين: سأدفع لاحقًا. لا بد من موعد معروف يقطع النزاع ويمنح الطرفين قدرةً على ترتيب شؤونهما.

الغموض يبدو أحيانًا مريحًا عند بداية العلاقة؛ لا يريد أحد أن يظهر شديد الحساب. لكنه قد يصبح بعد ذلك بذرةً للخصومة. الدائن يظن أن الأجل شهر، والمدين يظنه عامًا، وكل واحد يتهم الآخر بسوء النية.

الوضوح في البداية رحمة بالنهاية.

﴿فَاكْتُبُوهُ﴾.

كلمة حاسمة تحول الاتفاق الشفهي إلى وثيقة. وليس في الكتابة سوء ظن؛ فقد يصدق الطرفان ثم ينسى أحدهما، أو يموت، أو يتغير تقديره.

إن الاعتماد الكامل على الذاكرة تحميل لها ما لم تُخلق له. والكتابة لا تهين الثقة، بل تحميها من ضعف الإنسان.

قد يقول لك شخص: ألا تثق بي؟ والجواب: أثق بك، لكنني لا أزعم لك ولا لنفسي العصمة من النسيان.

وليكتب بينكم كاتب بالعدل

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾

لم يقل: وليكتب للدائن، ولا للمدين؛ بل **﴿بَيْنَكُمْ﴾**. الكاتب يقف في المسافة الفاصلة بين الطرفين، لا في جيب أحدهما.

﴿بِالْعَدْلِ﴾.

يكتب ما اتفقا عليه، لا ما يمليه الأقوى، ولا ما يضمن له أجرًا أكبر. والكلمة المكتوبة قد تنقل بيتًا من مالك إلى آخر، أو تحبس بريئًا، أو تبرئ ظالمًا؛ ولذلك كانت أمانة القلم ثقيلة.

الكاتب ليس آلةً محايدةً إذا علم أنه يثبت ظلمًا. خطه شهادة، وصياغته قد تفتح بابًا أو تغلقه.

وقد يأتي الظلم من عبارة غامضة لا يفهمها الضعيف، بينما يعرف الطرف الأقوى كيف يستخدمها لاحقًا. العدل في الكتابة ليس صحة الأرقام وحدها، بل وضوح الشروط وعدم دس ما لم يرض به الطرفان.

إن اللغة القانونية حين تتعمد الغموض تصبح أداة قوة، لا وسيلة عدل.

ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾

من علّمه الله الكتابة لا ينبغي أن يبخل بعلمه إذا دُعي إلى حفظ حقوق الناس، على الوجه الذي لا يلحق به ضررًا.

﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

قد يظن الكاتب أن مهارته ملك شخصي كامل، لكن القرآن يردها إلى أصلها: الله علّمك، فاجعل من شكر العلم أن تيسره للعدل.

المعرفة ليست زينة لصاحبها؛ هي قدرة تحمل واجبًا. وكلما كان المجتمع محتاجًا إلى مهارة شخص، كان امتناعه من غير عذر أشد أثرًا.

ثم كرر: **﴿فَلْيَكْتُبْ﴾**.

توكيد حتى لا تظل الكفاءة واقفةً عند باب المسؤولية. بعض الناس يحب مكانة العالم والخبير، لكنه يضيق حين تتحول المعرفة إلى خدمة فعلية.

وقد يكتب الإنسان عقودًا كثيرةً لقاء الأجر، ثم يتكاسل عن كتابة حق فقير لا يملك أن يدفع. هنا يُمتحن شكر العلم.

وليملل الذي عليه الحق

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾

جعل القرآن الإملاء على المدين؛ لأنه صاحب الالتزام، وهو الذي يقر بما عليه. فإذا أملى بنفسه قامت الحجة أوضح، ولم يستطع أن يقول: كتبوا عليّ ما لم ألتزم به.

لكن الدائن غالبًا أقوى؛ هو صاحب المال، وقد يستطيع فرض الصياغة. فجعل القرآن صوت المدين حاضرًا في كتابة الحق.

الشريعة لا تلغي حق الدائن، لكنها لا تترك المحتاج بلا صوت لأنه جاء طالبًا للمال.

إن الحاجة قد تجعل الإنسان يقبل شروطًا لم يكن ليقبلها لو كان في سعة. وهنا يأتي العدل ليمنع الطرف الأقوى من تحويل ضيق الآخر إلى فرصة لفرض ما يشاء.

وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾

المدين هو الذي يملي، وقد يستطيع أن ينقص مبلغًا أو شرطًا مستفيدًا من غفلة الدائن، فاستدعى القرآن رقابة التقوى.

﴿رَبَّهُ﴾.

الذي يقرضه المال إنسان، لكن الذي يراقب إملاءه رب يربيه ويحاسبه. فلا يجعل حاجة الأمس مبررًا لخيانة اليوم.

﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾.

لا ينقص القليل ولا الكثير. قد يستخف الإنسان بجزء يسير ويقول: لن يؤثر فيه، لكن الحق لا يقاس بثراء صاحبه. ما ليس لك يظل حرامًا، ولو كان صاحبه لا يشعر بفقده.

والبخس قد يقع في الرقم، أو في وصف السلعة، أو في الأجل، أو في شرط اتفق عليه. كل حذف متعمد يغير الحق لون من أكل المال بالباطل.

حين لا يستطيع صاحب الحق أن يملي

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾

لم تبن الآية حكمها على إنسان مثالي قادر دائمًا على فهم العقود. هناك:

سفيه لا يحسن التصرف في المال.

و**ضعيف** لصغر أو عجز عقلي أو نحوه.

ومَن **لا يستطيع أن يمل** لعجز في النطق أو اللغة أو غير ذلك.

لم تسقط حقوقهم لأنهم لا يحسنون التعبير عنها، بل أقامت لهم وليًا يتولى الإملاء.

قوة المجتمع الأخلاقية تُقاس بالطريقة التي يحمي بها مَن لا يستطيع حماية نفسه.

لكن الولي نفسه قد يتحول إلى مصدر الخطر؛ لذلك قال:

﴿بِالْعَدْلِ﴾.

الولاية ليست تفويضًا مفتوحًا، بل نيابة محكومة بمصلحة صاحب الحق. من تولى ضعيفًا لا يملك أن يعيد تعريف مصلحته وفق ما ينفعه هو.

كم من ضعيف أُكل حقه باسم الوصاية عليه!

القرآن يضع العدل بين الولي والمال حتى لا تتحول الحماية إلى استيلاء.

واستشهدوا شهيدين من رجالكم

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾

إلى جوار الكتابة تأتي الشهادة. فالوثيقة قد تضيع أو يُطعن فيها، والشهود يزيدون الحق ثباتًا.

اختيار الشاهد ليس مسألةً اجتماعية؛ لا يُختار لأنه قريب أو صاحب نفوذ، بل لأنه أهل للشهادة.

ثم قال: **﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾**.

في توثيق الديون، إذا لم يتيسر رجلان، يكون رجل وامرأتان ممن تُرضى عدالتهم. والآية في هذا السياق المالي المحدد، لا حكمًا بأن المرأة نصف

إنسان، ولا أن شهادتها في كل الأبواب على صورة واحدة؛ فأبواب الشهادات والبينات تختلف فيها الأحكام بحسب موضوعها وطبيعة العلم به.

وقد تقبل شهادة المرأة منفردةً في أمور تختص النساء بمعرفتها، وتثبت بعض الحقوق بوسائل أخرى. فالتشريع ينظم الإثبات بحسب مجاله، لا بحسب قيمة الإنسان عند الله؛ وميزان الكرامة هو التقوى.

ثم بينت الحكمة في هذا المقام: ﴿**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ**﴾.

أي إن نسيت إحداهما أو أخطأت في ضبط تفاصيل المعاملة ذكرتها الأخرى. وقد كان المجال المالي العام يومئذ أقرب إلى خبرة الرجال غالبًا، فجاء الاحتياط لحفظ الحق.

المقصود ليس اتهام المرأة بالكذب؛ فالآية قالت التذكير، لا الرقابة الأخلاقية. والرجال أنفسهم اشترطت فيهم العدالة والرضا، وقد يخطئون أو يكذبون.

ممن ترضون من الشهداء

﴿**مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**﴾.

الشهادة ليست حقًا لكل من حضر. لا بد من عدالة وأمانة وضبط يجعل المجتمع يطمئن إلى قوله.

وقد يكون الإنسان صالحًا في عبادته، لكنه ضعيف الذاكرة في التفاصيل المالية، فلا يكون كل صالح مناسبًا لكل شهادة. الأمانة وحدها لا تغني عن الكفاءة، والكفاءة بلا أمانة خطر.

﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾.

الشهادة هنا تعاون على حفظ الحقيقة، لا منافسة في الظهور. مَن نسي لا ينبغي أن يستكبر عن التذكير، ومَن تذكر لا ينبغي أن يحول تصحيح الآخر إلى إهانة.

الحقيقة أكبر من صورة الشاهد عن نفسه.

ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾

إذا دُعي الشاهد لتحمل الشهادة أو أدائها حيث تعينت، فلا يمتنع بغير عذر. شهادته قد تكون الجسر الوحيد الذي يعبر عليه الحق إلى صاحبه.

قد يهرب الإنسان من الشهادة طلبًا للراحة، ويقول: لا أريد الدخول بين الناس. لكن حياده الظاهري قد يترك المظلوم وحيدًا أمام منكر قوي.

في بعض المواقف لا يكون الصمت سلامةً؛ يكون تركًا للحق بلا نصير.

ومع ذلك لا يُكلّف الشاهد بما يضره ضررًا غير معتاد، كما سيأتي. المسؤولية لا تعني استباحة حياته، لكنها تمنعه من جعل الراحة الشخصية أعلى من حقوق الناس.

لا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾

قد يقول الطرفان: المبلغ صغير، لا يستحق عقدًا. لكن الخصومات الكبيرة قد تولد من حقوق صغيرة؛ ليس لقيمة المال وحدها، بل لما يتركه إنكاره من شعور بالخيانة.

﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾.

الحق لا يفقد حقه في الحفظ لصغر حجمه. والإنسان الذي يتساهل في القليل قد يتدرب على التلاعب بالكثير.

ثم: **﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾**.

اكتبوا المقدار والموعد؛ لأن الوثيقة التي تثبت الدين ولا تثبت أجله تترك نصف النزاع قائمًا.

وقد يمل الناس من الإجراءات، لكن القرآن يعلّمهم أن دقائق الوقاية أخف من سنوات الخصومة. صفحة تُكتب اليوم قد تحفظ أسرةً غدًا.

ذلكم أقسط عند الله

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾

ذكرت الآية ثلاث ثمرات للكتابة والشهادة: **﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾**؛ أعدل.

﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾؛ أعون على ضبطها وإقامتها صحيحة.

﴿**وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا**﴾؛ أقرب إلى إزالة الشك.

وهكذا لا يحفظ التوثيق المال وحده؛ يحفظ القلوب من سوء الظن. حين توجد وثيقة واضحة، لا يضطر كل طرف إلى تفسير نسيان الآخر على أنه خيانة.

كم من علاقة تهدمت لا لأن أحد الطرفين تعمد الظلم، بل لأن الذاكرة رسمت لكل منهما قصةً مختلفة!

الكتابة ذاكرة مشتركة لا تنحاز إلى أحد.

التجارة الحاضرة: حين تخف الحاجة إلى الكتابة

﴿**إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا**﴾

إذا كانت المعاملة ناجزةً؛ سلعة حاضرة وثمن مقبوض، فلا حرج في ترك الكتابة. لأن سبب النزاع أقل، ولأن إلزام الناس بتوثيق كل شراء يومي يجلب مشقة.

هذا استثناء يكشف مرونة التشريع. لا يحول السوق إلى غابة بلا إثبات، ولا يحوله إلى مكتب بيروقراطي يعجز الناس عن الحركة فيه.

لكل معاملة مقدار من التوثيق يناسب خطرها.

أما في عصرنا، فقد تكون فواتير التجارة الحاضرة ووسائل الدفع الإلكترونية مفيدةً لحفظ الحقوق والضمان والضرائب المشروعة ونحوها، وإن لم تكن الكتابة واجبةً في كل شراء يسير.

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

أمر بالإشهاد في البيع على جهة الإرشاد والتأكيد عند جمهور من العلماء، ولا سيما فيما قد يقع فيه نزاع. فالمقصد دائمًا حماية الحق بما يناسب الحال.

لا يضار كاتب ولا شهيد

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾

من جمال العدالة القرآنية أنها لا تحمي طرفي العقد على حساب من يخدم توثيقه.

لا يجوز الضغط على الكاتب أو الشاهد، واستدعاؤهما في أوقات تلحق بهما ضررًا بلا ضرورة، أو تحميلهما ما ليس في الشهادة، أو تهديدهما كي يغيرا الحقيقة.

ويُقرأ الفعل أيضًا بمعنى: لا يَضُرّ الكاتب ولا الشاهد غيرهما؛ فلا يحرف الكاتب، ولا يكتم الشاهد، ولا يستعملان موقعهما لإفساد الحق.

وهكذا تحفظ الآية الجميع من الجميع:

الدائن من إنكار المدين.

والمدين من زيادة الدائن.

والضعيف من وليه.

والطرفين من خطأ الكاتب.

والكاتب والشاهد من أذى الطرفين.

إن العدل ليس خطًا بين شخصين فقط، بل شبكة تحمي كل من دخل المعاملة.

﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

الإضرار ليس مخالفة إجرائية صغيرة؛ سماه الله فسوقًا، خروجًا عن الطاعة. لأن العبث بالتوثيق يضرب الثقة التي يقوم عليها المجتمع.

واتقوا الله ويعلمكم الله

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

بعد كل التفاصيل: الكاتب، والمدين، والولي، والشهود، والمبلغ، والأجل؛ تعود الآية إلى التقوى.

القوانين مهما دقت لا تستطيع إغلاق كل ثغرة إذا كان الإنسان مصممًا على الخيانة. سيجد توقيعًا مزورًا أو شاهدًا مشتَرى أو صياغةً ملتوية. لذلك لا بد من حارس داخلي.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

لا تجعلوا براعتكم القانونية طريقًا إلى أكل الحق.

ثم: **﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾**.

ليست الجملة على معنى أن كل من اتقى صار مستغنيًا عن التعلم والأسباب، وإنما يمتن الله عليهم بتعليمه هذه الأحكام، والتقوى سبب للانتفاع بالعلم وفتح أبواب الفهم.

قد يحمل الإنسان معلومات كثيرة، لكن الهوى يمنعه من رؤية دلالتها. وحين يتقي الله، يصبح قلبه أقدر على استعمال العلم في موضعه.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يعلم ما لم تكتبه الوثيقة، وما قصده المتعاقدان، والثغرة التي دُسّت، والحق الذي نُقص بمقدار لا يراه المحاسب.

إذا كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾

قد تقع الحاجة إلى الدَّين في السفر، ولا يتيسر كاتب ولا وثيقة. لم تسقط حماية الحق، بل انتقلت إلى وسيلة أخرى: الرهن المقبوض.

الرهن مال يوضع ضمانًا للدين حتى يطمئن الدائن إلى استيفاء حقه.

وهذا يبين أن الشريعة تقر الضمانات المشروعة. التوكل وحسن الظن لا يعنيان أن يطلب من صاحب المال أن يغامر بحقوقه بلا حماية.

وقد رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي في طعام اشتراه لأهله، مما يدل على مشروعية الرهن في الحضر أيضًا؛ فالآية ذكرت السفر بوصفه موضع الحاجة الغالبة عند تعذر الكتابة، لا حصرًا للحكم.

في هذا المشهد نبي مرهون الدرع عند غير مسلم، فتسقط أوهام كثيرة: المعاملة العادلة ممكنة مع المخالف، والاقتراض للحاجة ليس عارًا، والضمان لا يناقض الثقة.

فإن أمن بعضكم بعضًا

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾

قد تقوم بين الطرفين ثقة تجعل الدائن يترك الكتابة والرهن. فيجوز ذلك، لكن الحق ينتقل بالكامل إلى ضمير المدين.

﴿اؤْتُمِنَ﴾.

لم يعد تحت ضغط وثيقة أو رهن، وإنما تحت ثقل الأمانة. وكلما خفت الرقابة الخارجية زادت مسؤولية الداخلية.

﴿فَلْيُؤَدِّ... أَمَانَتَهُ﴾.

لم يسم الدين هنا مجرد مال، بل أمانة. فالتأخير من القادر أو الإنكار ليس خللًا ماليًا فقط؛ خيانة لشخص فتح لك قلبه ويده.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾.

أضاف الرب إليه؛ الذي يراك وأنت محتاج ففتح لك باب القرض، يراك الآن وأنت قادر على الوفاء. لا تجعل تحسن حالك سببًا لنسيان ساعة ضعفك.

لا تكتموا الشهادة

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾.

كما حذرت السورة علماء أهل الكتاب من كتمان الوحي، تحذر هنا الشاهد من كتمان حق مالي. الكتمان واحد في روحه: تملك حقيقةً يحتاج إليها الناس، ثم تمنعها لمصلحة أو خوف.

﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

نسب الإثم إلى القلب؛ لأن الكتمان قرار داخلي قبل أن يكون صمتًا خارجيًا. القلب عرف الحق واختار ألا ينصره.

وهذه عبارة شديدة: قد يبدو الشاهد صامتًا بلا فعل، لكن قلبه يمارس إثمًا كاملًا. فترك الواجب فعل أخلاقي، وإن لم تتحرك الجوارح.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

سمّى الكتمان عملًا. الصمت في موضع الشهادة ليس فراغًا، بل عمل له أثر وحساب.

الوثيقة ليست نقيض الأخوة

قد يظن بعض الناس أن كتابة الدَّين تفسد صفاء العلاقة: نحن إخوة، ولا نحتاج إلى ورق.

لكن القرآن يريد للأخوة أن تعيش بعد المال، لا أن تموت بسببه.

الوثيقة لا تقول: أنا أتهمك.

إنها تقول: نحن بشر؛ ننسى، ونموت، وتتغير ظروفنا، وقد يختلف ورثتنا. فلنحمِ مودتنا من ضعفنا.

كم من صديقين دخلا معاملة بلا كتابة حياءً، ثم خرجا منها عدوين لأن كل واحد تذكر الاتفاق على صورة أخرى! لو كتبا، لبقي الورق باردًا وبقيت القلوب دافئة.

إن النظام ليس عدو الروح؛ قد يكون حارسها.

وأطول آية في القرآن تعيد تشكيل مفهوم التدين: ليس المتدين من يكثر الكلام عن الأمانة ثم يترك الحقوق سائبة، بل من يكتب، ويحدد الأجل، ويختار الشاهد العدل، ولا يبخس شيئًا، ويؤدي إذا اؤتمن.

هنا يلتقي القلم بالمحراب.

والتوقيع بالتقوى.

والعقد بعلم الله.

وفي نهاية كل هذه التفاصيل، تستعد السورة لأن تطوي رحلتها. ستعود من الحقوق المكتوبة في الأرض إلى الملك المطلق في السماء والأرض، ومن علم الكاتب والشاهد إلى علم الله بما في النفوس، ومن إقرار المدين بما عليه إلى إقرار المؤمنين بكل ما أنزل الله: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾.

لكن قبل هذه الخاتمة سيقف القلب أمام آية ترتعد لها السرائر: ﴿**وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**﴾.

بعد أن حفظ القرآن حقوق الناس في السطور، يذكّرنا أن هناك كتابًا آخر لا يحتاج إلى قلم بشري: علم الله الذي يقرأ ما لم تكتبه الأيدي، وما لم تنطق به الألسنة.

قد تستطيع أن تخفي دَينًا عن القاضي، وأن تنكر عهدًا أمام الناس، وأن تتقن ترتيب الأدلة حول براءتك؛ لكنك لا تستطيع أن تحجب عن الله الخاطر الذي سبق الفعل، ولا النية التي اختبأت خلف الكلمة، ولا الرغبة التي ارتدت ثياب الفضيلة.

إن الناس يحاكمون ظاهر العمل، أما الله فيعلم المنبع الذي خرج منه.

قد تتشابه يدان في الصدقة، وبين القلبين ما بين السماء والأرض: يد أعطت ابتغاء وجه الله، ويد أعطت لتصنع لنفسها وجهًا في أعين الناس. وقد يصمت رجلان عن الإساءة، فيكون صمت أحدهما حلمًا، وصمت الآخر عجزًا ينتظر فرصة الانتقام.

لذلك لم تكن تزكية النفس ترفًا زائدًا عن الشريعة؛ لأن باطن الإنسان هو الورشة الخفية التي تُصنع فيها أفعاله قبل أن يراها العالم.

لكن الصحابة، وهم أصدق الناس قلوبًا وأشدهم خوفًا من الله، وجدوا في الآية حملًا عظيمًا. فالإنسان قد يملك لسانه ويده، لكنه لا يملك كل خاطر يعبر في

نفسه. وقد تطرق القلب وساوس لا يحبها، وتقتحمه معانٍ يكره وجودها، فكيف ينجو إذا كان سيحاسب على كل ما يمر في داخله؟

جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقد ثقلت عليهم الآية. وهنا كان الامتحان الأخير في سورة البقرة: هل يستقبل المؤمن حكم الله بالجدل الذي استقبل به بنو إسرائيل أمر البقرة، أم يستقبله بالتسليم؟

قال لهم النبي ﷺ ما معناه: أتريدون أن تقولوا كما قالت الأمم من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا:

سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير.

لم يُطلب منهم أولًا أن يفهموا كيف سيُرفع عنهم الحرج، بل طُلب منهم أن يثبتوا صدق العبودية. فالعبد لا يشترط على ربه أن تنكشف له الحكمة كلها قبل أن يطمئن؛ وإنما يطمئن إلى حكمة الله، ثم ينتظر انكشافها.

فلما ذلت بها ألسنتهم، وخضعت لها قلوبهم، جاء الفرج.

آمن الرسول

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

بدأت السورة بوصف المتقين: **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾**،

وتنتهي الآن بمشهد الإيمان وقد صار موكبًا: الرسول في مقدمته، والمؤمنون من خلفه، والكتاب فوقهم نورًا، والطريق أمامهم ممتدًا إلى الله.

لم يقل: آمن الرسول بما اكتشفه عقله، بل: ﴿**بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**﴾.

إنه إيمان يستقبل الوحي بوصفه خطابًا من الرب؛ ولذلك لا يكون موقفه انتقاء ما يوافق المزاج وترك ما يخالفه. فالذي يؤمن ببعض الوحي لأنه وافق هواه قد يكون مؤمنًا بهواه أكثر من إيمانه بالوحي.

أما الرسول ﷺ والمؤمنون فقال الله عنهم: ﴿**كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾.

إيمان كامل البنيان، لا يأخذ من الغيب ما يستسيغه ويهدم ما سواه. فالحقيقة التي جاءت من عند الله واحدة، والرسل حلقات في سلسلة الهداية، والكتب السماوية في أصولها أنوار خرجت من مشكاة واحدة.

ولهذا قالوا: ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾.

لقد عرضت السورة طويلًا تاريخ بني إسرائيل، لا لتزرع خصومة عرقية، ولا لتمنح أحدًا حق احتقار أحد، بل لتكشف مرضًا يمكن أن يصيب كل أمة: أن تتحول علاقتها بالوحي إلى انتقاء، فتؤمن بما يخدم امتيازها، وترفض ما يهدد كبرياءها.

ومن هنا تعلن الأمة الجديدة أنها لا تبني إيمانها على العصبية للرجال، بل على التصديق بجميع رسل الله. إنها تحب موسى وعيسى وإبراهيم ومحمدًا، عليهم الصلاة والسلام، لأن محبتها تنبع من عبوديتها لله، لا من انغلاقها داخل اسم أو نسب.

سمعنا وأطعنا

ثم جاءت الكلمة التي تلخص السورة كلها: ﴿**وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾.

يا لها من مسافة هائلة بين هذه الكلمة وبين قول بني إسرائيل: ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾.

إن السورة لم تذكر تاريخهم لتقص علينا حكاية مضت؛ بل وضعت أمام الأمة مرآتين. في الأولى وجه إنسان يسمع الوحي ثم يراوغه، ويسأل لا ليهتدي بل ليتفلت، ويعرف ثم يؤجل، ويعاهد ثم ينقض. وفي الثانية وجه المؤمن الذي يسمع، فيفتح للوحي باب القلب، ثم يمنحه سلطان الحركة.

وليست الطاعة ألا تشعر بثقل التكليف؛ فقد يكون التكليف شاقًا، وتبقى الطاعة صادقة. وليست الطاعة ألا تسأل طلبًا للفهم؛ فقد سأل إبراهيم ربه كيف يحيي الموتى، وكان سؤاله طلبًا للطمأنينة. إنما الطاعة ألا تجعل سؤالك حيلة لتأخير الامتثال، وألا تجعل صعوبة الطريق حجة للرجوع عن الله.

قالوا: سمعنا وأطعنا، ثم لم يغتروا بطاعتهم، ولم يظنوا أنهم أدوا حق الله كاملًا، بل قالوا: ﴿**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**﴾.

هذه هي العبودية حين تنضج: تعمل، ثم تستغفر من تقصير العمل. تطيع، ثم لا ترى طاعتك ثمنًا للجنة. تمشي إلى الله، وأنت تعلم أن خطواتك، مهما صدقت، لن تبلغ بك لولا رحمته.

إنهم لم يقولوا: «ثوابك ربنا» كأنهم قدموا عملًا مكافئًا، بل قالوا: «غفرانك»؛ لأن المؤمن يرى فضل الله في حسناته، ويرى تقصيره فيها، ويرى حاجته إلى المغفرة بعد الذنب وبعد الطاعة أيضًا.

﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

إليك، لا إلى أموالنا ولا إلى أسمائنا ولا إلى ما جمعناه من أسباب القوة. ستسقط يومًا كل الجهات التي ظننا أننا نصير إليها، ولن تبقى إلا جهة واحدة: الله.

لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها

ثم تنزل الرحمة على القلوب التي قالت: سمعنا وأطعنا: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.**

كأن الآية يد من نور توضع على قلب خائف.

لست مكلفًا بما لا تطيق. ولست مؤاخذًا على الخاطر العابر الذي لم تختره، ولم تركن إليه، ولم تحوله إلى قول أو عمل. إنما ميدانك هو ما تستطيع: ما تعقد عليه قلبك، وما تنطق به مختارًا، وما تسعى إليه بجوارحك.

والله الذي خلق النفس أعلم بسعتها منها. قد تظن في ساعة البلاء أنك بلغت النهاية، وأنك لن تستطيع خطوة أخرى؛ لكن الله يرى فيك مساحة لا تراها، ويمنحك مع التكليف من العون ما لا تحسبه حين تنظر إلى قوتك وحدها.

ومع ذلك، لا تعني الآية أن كل تكليف سيكون سهلًا؛ فالوسع أوسع من الراحة. قد يكون الأمر داخل قدرتك لكنه يوقظ كل ما فيك من صبر، وقد تكون الطاعة ممكنة لكنها تحتاج إلى مجاهدة طويلة. إن الله لا يعدك بطريق بلا مشقة، وإنما يعدك ألا تكون المشقة عبثًا، وألا يضع على روحك حملًا يستحيل عليها حمله.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

لها خيرها؛ قريبًا منها، عائدًا إليها، محفوظًا لها.

وعليها شرها؛ حملًا لا يستطيع أحد أن يحمله عنها.

هنا تنهض المسؤولية الفردية كاملة. لا يستطيع الإنسان أن يعيش عمره متكئًا على صلاح أسرته، ولا أن يبرر فساده بفساد بيئته، ولا أن يختبئ خلف الجمهور. ستكون لك حصيلة ما اخترت، وعليك تبعة ما صنعت.

وهذه ليست وحشة؛ بل كرامة أيضًا. فكما أنك لا تحمل ذنب غيرك، لن يضيع خيرك لأن غيرك لم يقدره. قد تنسى الدنيا معروفك، وقد ينكره من أحسنت إليه، لكنه صار لك عند من لا تضيع لديه الودائع.

دعاء الأمة الخائفة الراجية

ثم يعلمنا القرآن كيف ندعو حين نعرف ضعفنا: **﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.**

يا لجمال أن يكون أول ما نطرق به باب الرحمة اسم الربوبية: **ربنا**.

نحن لا نخاطب قوة مجهولة، بل ربًا خلق وربّى ورحم وهدى. نأتيه بأخطائنا، لا لأننا نستخف بها، بل لأننا لا نعرف بابًا غير بابه يطهرنا منها.

والنسيان والخطأ جزء من هشاشتنا البشرية. قد نعرف الحق ثم يغيب عنا، وقد نقصد الصواب فلا نصيب طريقه. لذلك لا يتظاهر المؤمن بالعصمة، وإنما يسأل الله ألا يعامله بما يقتضيه ضعفه إذا لم يتعمد الانحراف.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾.

لقد مرت بنا في السورة أخبار أقوام شددوا فشُدد عليهم، وراوغوا التكليف فضاقت عليهم مسالكه. والآن تتعلم الأمة أن تسأل ربها شريعة الرحمة، وأن تستعيذ به من أثقال تصنعها المعصية والعناد.

فأقسى الأغلال ليست دائمًا تلك التي يضعها الطغاة في الأعناق؛ قد يصنع الإنسان غله بنفسه حين يرد الحق مرة بعد مرة، حتى يصبح الرجوع إليه أثقل على قلبه من الجبال.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.

إن المؤمن لا يتمنى البلاء، ولا يغتر بقوته، ولا يطلب الامتحان ليثبت لنفسه أنه ثابت. إنه يعرف أن العافية فضل، وأن الثبات منحة، وأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن.

لذلك لا يقول: أنا قادر على كل شيء، بل يقول: يا رب، لا تكلني إلى قدرتي.

واعف عنا واغفر لنا وارحمنا

ثم ترتقي المناجاة في ثلاث درجات: **﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.**

اعف عنا: امح أثر الذنب.

واغفر لنا: استر قبحه، واحفظنا من تبعته.

وارحمنا: لا تكتفِ بأن تنجينا مما نخاف، بل امنحنا ما نرجو.

فالعبد لا يحتاج فقط إلى صفحة تُمحى، بل إلى قلب يُشفى، وطريق يُضاء، ويد من الرحمة تقوده بعد أن عثر.

العفو يحرره من الماضي، والمغفرة تستره في حاضره، والرحمة تفتح له المستقبل.

وما أوسع الفرق بين أن يغادر الإنسان محكمةً بريئًا، وبين أن يغادرها محبوبًا مُكرمًا! نحن لا نسأل الله النجاة وحدها؛ نسأله القرب أيضًا. لا نريد فقط ألا يعاقبنا، بل نرجو أن يرحمنا، ويصلحنا، ويأخذ بأيدينا إليه.

أنت مولانا

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾.

بعد رحلة طويلة بين التشريع والتاريخ والابتلاء والمال والأسرة والجهاد، تصل السورة إلى هذه الحقيقة البسيطة العميقة: أنت مولانا.

ليست قوتنا في كثرتنا، ولا عصمتنا في ذكائنا، ولا نجاتنا في أموالنا. نحن قوم لنا مولى. فإذا ضعفنا قوّانا، وإذا ضللنا هدانا، وإذا أذنبنا فتح لنا باب العودة، وإذا خذلنا الناس لم يخذلنا.

ولأن الله مولانا، فلا ينبغي لشيء في الأرض أن يستعبد قلوبنا. لا مال، ولا شهوة، ولا خوف، ولا تصفيق جمهور، ولا سطوة طاغية. من عرف مولاه الحقيقي تحرر من الموالي الزائفين.

ثم يأتي آخر الدعاء: ﴿**فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾.

ليس طلب النصر هنا صيحة غرور، بل دعاء أمة أنهكتها مجاهدة الباطل في داخلها وخارجها. لقد طلبت العفو والمغفرة والرحمة قبل أن تطلب النصر؛ لأنها تعلم أن أخطر هزيمة هي أن تنتصر على عدوها، بينما تكون قد انهزمت أمام نفسها.

إن النصر الذي تطلبه السورة يبدأ من الداخل: أن ينتصر الإيمان على النفاق، والطاعة على الهوى، والإنفاق على الشح، والعفة على الشهوة، والعدل على الانتقام، واليقين على الخوف. فإذا استقام الداخل، صار النصر الخارجي ثمرة لا وثنًا جديدًا.

حين تعود السورة إلى بدايتها

وهكذا تغلق سورة البقرة دائرتها الكبرى.

بدأت بقول الله: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾،

وانتهت بقوم تلقوا الهدى فقالوا: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾.

بدأت بالحديث عن الإيمان بالغيب، وانتهت بإيمان الرسول والمؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله.

بدأت بوصف المفلحين، وانتهت بالدعاء الذي يرسم طريق الفلاح: عفو، ومغفرة، ورحمة، ونصرة.

وبين البداية والنهاية كانت الرحلة كلها سؤالًا واحدًا: **ماذا ستفعل حين يخاطبك الله؟**

هل ستجادل كما جادل أصحاب البقرة؟

هل ستبدل كما بدل من سبق؟

هل ستتخذ من النعمة دليل امتياز بدل أن تجعلها باعث شكر؟

هل ستؤمن ببعض الكتاب وتعرض عن بعض؟

أم ستقول، بكل ضعفك ورجائك: **سمعنا وأطعنا؟**

ليس المطلوب أن تخرج من السورة حافظًا موضوعاتها فحسب، بل أن تخرج منها إنسانًا آخر. أن تصبح قبلتك أوضح، ونيتك أصفى، ومالك أطهر، وعهدك أوفى، وصلاتك أعمق، ونظرتك إلى الناس أعدل، وخوفك من الله أصدق.

سورة البقرة لا تريد قارئًا يعجب بطولها؛ بل إنسانًا تطول أنفاسه في الطاعة.

لا تريد عينًا تمر على آياتها؛ بل قلبًا تسمح له الآيات أن تمر خلاله، فتنظف غرفه المغلقة، وتعيد ترتيب رغباته، وتكسر الأصنام الصغيرة التي اختبأت فيه.

وحين تبلغ آخرها، لا ينبغي أن تشعر أنك أغلقت سورة؛ بل أنك فتحت عهدًا.

عهدًا بينك وبين الله: أن تسمع حين يدعوك.

وأن تطيع حين يأمرك.

وأن تستغفر حين تقصر.

وأن تعود حين تضل.

وأن تعرف، في كل خطوة، أنك لا تنجو بقوتك، وإنما برحمته.

ثم تضم قلبك إلى قلوب الرسول والمؤمنين، وترفع الدعاء الذي ختم الله به أطول سور كتابه: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾.

وهنا تنتهي السورة في المصحف، لكنها تبدأ في الإنسان.

فهرس الكتاب

الرقم	الصفحة	عنوان الفصل	الفصل
١	١٧	على عتبة اليقين: حين يعرّف الكتاب قارئه	**الفصل الأول**
٢	٣٠	الكافر: حين يتحول الإعراض إلى ختم	**الفصل الثاني**
٣	٥١	الإنسان الأول: سر الاستخلاف وجرح المعصية	**الفصل الثالث**
٤	٦٨	إعلان الإنسان في الملأ الأعلى	**الفصل الرابع**
٥	٩٣	بنو إسرائيل: حين تتحول النعمة إلى وثيقة اتهام	**الفصل الخامس**
٦	١٠٢	البقرة: الجدل الذي ذبح روح الطاعة	**الفصل السادس**
٧	١١٧	حين يُسمع كلام الله ثم يُحرَّف	**الفصل السابع**
٨	١٣٧	رسل يتتابعون والهوى ثابت في موضعه	**الفصل الثامن**
٩	١٦٤	كلمة واحدة قد تحمل وراءها قلبًا كاملًا	**الفصل التاسع**
١٠	١٩١	إبراهيم عليه السلام: رجل كان أمة قبل أن توجد الأمة	**الفصل العاشر**
١١	٢٢١	القبلة: حين أعاد الوحي توجيه وجه التاريخ	**الفصل الحادي عشر**
١٢	٢٤٤	عدالة تمنع الدم من أن يلد دمًا	**الفصل الثاني عشر**
١٣	٢٥٨	الصيام: تحرير الإرادة من سلطان الرغبة	**الفصل الثالث عشر**
١٤	٢٨٢	الحج: عودة الإنسان من ثيابه إلى حقيقته	**الفصل الرابع عشر**
١٥	٣١٣	الرجل الذي يزهر لسانه وتحترق الأرض خلفه	**الفصل الخامس عشر**
١٦	٣٣٠	الأسرة: كيف يصون التشريع أرقَّ مواضع الإنسان	**الفصل السادس عشر**
١٧	٣٥٢	العِدَّة: زمن يحمي القرار من عاصفة اللحظة	**الفصل السابع عشر**
١٨	٤٠٠	آية الكرسي: حين تقف اللغة في مقام السجود أمام عظمة الله	**الفصل الثامن عشر**

١٩	٤٢٩	الصدقة: حين تتحول الحبة الواحدة إلى بستان	**الفصل التاسع عشر**
٢٠	٤٥١	الربا: حين تتحول حاجة الإنسان إلى سلعة	**الفصل العشرون**
٢١	٤٦٧	آية الدَّين: حين صارت كتابة الحق عبادة	**الفصل الحادي والعشرون**